رغيد النحّاس

أربَع وثلاثونَ حِكايَة

ترجمة لقصص أستراليّة قصيرة معاصرة

رغيد النحّاس

أربع وثلاثون حكاية

ترجمة لقصص أستراليّة قصيرة معاصرة

الكتاب: أربع وثلاثون حكاية
ترجمة لقصص أستراليّة قصيرة معاصرة
المترجم والناشر: رغيد النحّاس، سيدني، أستراليا
الغلاف: رغيد النحّاس
الطبعة الثانية 2015
© جميع الحقوق محفوظة للمترجم. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه وتداوله إلكترونيّاً، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من المترجم الناشر.

Published by Raghid Nahhas,
PO Box 242, Cherrybrook, NSW 2126, Australia.
E-Mail: raghid@ozemail.com.au

Cover: Raghid Nahhas

SECOND EDITION 2015

Printed in Australia by Five Senses Education

© All rights reserved.
Apart from any fair dealing for the purposes of private study, research, criticism or review, as permitted under The Copyright Act, no part of this book may be reproduced or stored by any means, electronic or mechanical, without the written permission of the translator/publisher.

National Library of Australia Cataloguing-in-Publication Entry
Title: Thirty-four tales: Arabic translations of contemporary Australian short stories/ Raghid Nahhas.
Edition: Second
ISBN: 978-0-9756872-6-0 (paperback)
Subjects: Short stories, Australian.
Other Creators/Contributors: Nahhas, Raghid, translator.
Dewey Number: A823.408

هذه الحكايا

يضمّ هذا الكتاب ترجماتي لقصص أستراليّة قصيرة كتبها عدّة كتّاب أستراليّين معاصرين يمثّلون شريحة تعكس الواقع التعدّديّ لأستراليا التي يوجد فيها مجموعة كبيرة من مكوّنات الطيف الإنسانيّ عرقيّاً وسياسيّاً واجتماعيّاً ودينيّاً واقتصاديّاً وأمميّاً ودوليّاً، بحيث يحمل كلّ فرد مكوّناته الخاصّة، ولا زال يدعو نفسه أستراليّاً. أستراليا تجمعه مع كلّ أفرادها تحت مظلّة قانون واحد في مناخ من الحريّة والديمقراطيّة والعدل، والذي يبدو أنّه من أكثر الأنظمة نجاحاً في العالم.

هذا لا يعني بالطبع أنّ أستراليا خالية من مشكلات العصر، لكنّ نظام الحياة هنا، والرخاء الذي تنعم فيه البلاد يجعلها مميّزة، ومحطّ أنظار المهاجرين. كما لا يعني أنّ المهاجرين حين يحضرون إلى هذه البلاد ستنفتح لهم أبواب النجاح والسعادة تلقائيّاً. قليل من يعلم أنّ الشعب الأستراليّ هو من أكثر شعوب العالم كدحاً. وهذا يعني أنّ الرخاء الذي نحصل عليه، إنّما دفعنا ثمنه من عرقنا وجهدنا في أفضل الحالات، وفي حالات أخرى يمرّ بعض الناس بمعاناة عميقة طويلة الأمد دون أنْ يتحقّق له رغد العيش. هذا الأمر ينطبق على كلّ فئات الشعب الأستراليّ، ولا يقتصر على المهاجرين.

يتميّز معظم هذه الحكايا بأنّه يحمل بين سطوره معطيات كثيرة من الإرث الثقافيّ لكاتب القصّة، سواء من تجربته الشخصيّة أم من تجربة أبائه وأجداده، فهي بذلك تتعدّى الحدود الأستراليّة لتتضمّن مواقع أرضيّة أخرى، وبعضها يذهب إلى عالم الخيال مثل قصّة "لانسلوت"، لكنّها كلّها مرتبطة بخيوط تُمسك بها مهجة الكاتب الذي جسّدها لنا بلهجة أستراليّة تحكي عن

العالم كلّه. مثال ذلك قصّة "المعموديّة في غلينروك" التي تتحدث البطلة فيها عن انطباعات والدتها عن أدنبرة، مدينتها الأصل، وعن وجودها بعد ذلك في مدينة أستراليّة يسيطر عليها العمل في مناجم الفحم، وعن الاختلاف بين البطلة ووالدتها في تلقّي طبيعة البلاد الجديدة.

ومن الحكايا ما يأخذنا إلى قرية في لبنان، أو شارع في نيويورك، أو حقل في أفغانستان. ومنها ما يحدّثنا عن الضواحي الأستراليّة، أو شواطئها البحريّة. أمّا قصّة جون غريفين عن "نيليكان"، فهي مستوحاة من زواج شقيقة جدّة والدته لأفغانيّ. خيّم الصمت العائليّ على هذه الواقعة، وجون غريفين يكتب هنا عن ذلك الصمت، وليس عن الزواج. لعبت الجالية الأفغانيّة دوراً هامّاً في استقرار الناس في المستوطنات البعيدة بين أحراش أستراليا في القرن التاسع عشر. وهو إذ يذكر جالية معيّنة، تتوضّح لنا أمور أخرى، مثلاً أنّ كلمة أفغانيّ هي التي كانت شائعة عن الغرباء، ولكنْ يعتقد أنّ بين الأفغانيّين كان هناك سوريّون وأتراك وباكستانيّون. وبالواقعيّة نفسها يحدّثنا كتّاب مدينة نيوكاسل، مثل غريغ بوغارتس، عن شؤون وشجون مدينتهم الصناعيّة، بالإضافة لتجسيده العميق للحالة النفسيّة والاجتماعيّة لأبطال قصصه الذين يلعبون أدوارهم في مواقع طبيعيّة صارخة المعالم مثل مستنقعات القَرام.

هذا التصوير الشفّاف الذي يجمع بين الوضع الإنسانيّ في أقصى ما تكون عليه حقيقته، وبين المعالم الطبيعيّة والمعماريّة التي تشكّل مواقع حدوث هذه القصص، هو من أهمّ الحوافز التي دفعتني للجمع بين هذه القصص في كتاب واحد، لأنّنا مع قلب الصفحات من مشهد لآخر، ومع استخلاص المعنى تلو الآخر، نجد أنّ التعابير المتباينة للتجارب الإنسانيّة المختلفة تلتقي عند نقاط فيها من التشابه الجوهريّ أكثر ممّا يبدو على أنّه اختلاف. ولعلّ لقاء كلّ هذه الثقافات المختلفة في بلد مثل

أستراليا، وتمكّنها في الاستمرار والتعبير عن ذاتها، هو ما يميّز هذا البلد الفتيّ.

ولقد اعتمدت في ترجماتي نقل المعنى الذي أراده الكاتب بما تقتضيه الأمانة العلميّة، لكنّني تعمّدت أيضاً أنْ أحافظ ما أمكن على أسلوب الكاتب، ولهذا قد يشكّل بعض المقاطع صدمة لغويّة في تركيب الجمل لأنّها غير مألوفة أو متداولة وفق الأسلوب العربيّ المعتاد، لكنّ اللغة كائن عضويّ دائم التطوّر، وحتّى يكون التطوّر صحيّاً لابدّ من استخدام الحكمة في أسلوب التعاطي مع اللغات الأخرى، كأنْ يتمّ الاقتباس بتطويع الأسلوب الأجنبيّ وإظهاره من روح الأسلوب العربيّ ما أمكن. أي أنّ الفرق شاسع بين العبث باللغة وبين الحرص على تطويرها الرزين، دون أنْ تفقد أصولها. وللمترجمين دور هامّ في هذا الخصوص، لأنّ من شروط الترجمة الجيّدة الضلوع من اللغتين، الأصل والمستهدفة— المترجم يحمل في عنقه أمانة مزدوجة: الوفاء لكلا اللغتين.

الأمانة العلميّة من أهم عناصر هذا الوفاء برأيي. ولهذا أعتقد أنّ الترجمة لا يمكن، و يجب أنْ لا تبزّ الأصل إنْ كانت أمينة. الترجمة الأمينة تنقل عمل الكاتب الأصل بكلّ محاسنه وعيوبه.

لست انتقائياً في ترجماتي، أي لا أركّز على ما استحسنه من أعمال فقط، ولا أعمال المشاهير من الكتّاب، وإنّما ما أرى أنّه يجب أنْ يعمّم على الآخرين بانتقاله إلى المجتمعات الأخرى لإغناء تجربتهم الفكريّة والثقافيّة. الشرط الوحيد الذي لا أتخلّى عنه هو أنْ يكون العمل الأصل (الإنكليزيّ) منشوراً سابقاً في وسط على درجة كافية من الاحترام الأدبيّ. وأشير إلى أنّ معظم هذه الترجمات العربيّة سبق نشره في مجلّة "كلمات" (المُحكّمة)، ورأيت وجوب ضمّها في كتاب واحد لتسهيل مهمّة القارئ والباحث الذي يركّز على هذا النوع من الكتابة.

أتقدّم بشكري الكبير إلى صديقي كينيدي أسطفان على ملاحظاته القيّمة حول هذا العمل.

وأشكر جورج الهاشم ورغداء النحّاس-الزين على ملاحظاتهما اللغويّة، فنحن نعتقد أنّ عملاً كهذا يجب أنْ يسهم في كونه مرجعاً لغويّاً بالإضافة لكونه مرجعاً أدبيّاً، ما يزيد الفائدة على الأجيال الأستراليّة القادمة المعنيّة باللغة العربيّة.

شكراً لزوجتي نجاة، وللأصدقاء سوسن ودريد مدينة، وجورج ولوسي الهاشم وعائلتهما، لملاحظاتهم التي ساعدتني على انتقاء التصميم النهائيّ للغلاف.

التصميم يعتمد على صورة التقطتُها لببغاء أستراليّ (لوريكيت قوس القزح Rainbow Lorikeet) في حديقة دارنا وهو يفرد جناحيه وكأنّه يتلهف لتلقّي كلمات الحكايا، ألا وهو بألوانه المتعدّدة يحاكي طبيعة التعدّديّة التي تتمتّع بها أستراليا، وبزهائها يعكس إشراق هذا البلد المُنْعَم.

رغيد النحّاس

المحتويات

مقدّمة المترجم	هذه الحكايا	3
كينيدي أسطفان	وَعْد	9
	إطلاق السبيل	13
رين إنكلاند	ريشتان	21
هياسينث أيلوود	المعموديّة في غلينروك	27
	الطريق إلى "غليب"	30
بروس باسكو	كوَّة	33
سوزان باينارت	مصيدة الصراصير	40
غريغ بوغارتس	"لِمونتري باسيج"	51
	كعكة عيد الميلاد	61
كارمل بيرد	اللحْظَةُ الذَهبيّة	67
بام جيفري	جايمس دين والأحلام القديمة	77
	تشارلي صديقنا "اللدود"	81
جَستين داث	خمسَة تعميمَات عَن المَرأة والحُبّ	85
جاين داونينغ	محلاّت خان	103
إيفا ساليس	مُنيرَة والوَجبةُ العَامِرَة	117
توماس شابكوت	القبّعة الحمراء	125
غراهام شيل	الشحنة	139
جون غريفين	قصّة نيليكان	155
ماري غولدينغ	السلَف	167
ك. فان لانغنبيرغ	أكابر... من "ردفيرن" إلى "ورينغتون"	172
فيونا م. كارول	الميراث	179
ماريسا كانو	رايموندو	187

دايف كولدوِل	تحرير	196
راشيل كيغلي	رقعة جلد	205
ستريفين مابين	الغَطَّاس	215
آيلين مارشال	بحروف قرمزيّة	221
صوفي ماسون	شَاطئُ الأجَانب	230
	"لانسلِوت"	233
كريس مانسل	يوجيني وطيور الكَرَوانْغ	246
أندرو مكينا	تطويب "مالك الفلانيّ"	251
جين ل. مونبير	أفكار على القماش	262
بام هارفي	رَسائلٌ إليْهَا	271
جون هولتون	جون لينون ومسألة مصرفيّة معقدة	278
أسترا وارِن	الدائرة المغلقة	291
المترجم		297

كينيدي أسطفان

وَعْد

’ذات يوم، سأصبح طبيباً عظيماً يا جدّي، وأعدك أنّك لن تموت أبداً.‘

كنت وقتها في التاسعة من عمري، لكنّ أحلامي كانت أحلام من كان في الخامسة، مليئة بأمل أنّني سأكون دائماً محاطاً بالناس الذين أحبّهم، أولئك الذين ملؤا حياتي حبوراً. وأراني معذوراً لعاطفتي الشديدة تجاه هذا العجوز الذي يزيد عن السبعين، وذاكرته مكتبة تختزن حكايا عن جنود أتراك ومصريّين وإفرنسيّين تعاقبوا على احتلال لبنان؛ حكايا النُبل والبطولة الإنسانيّة، يسبكها في لبوس من الكلمات السحريّة تجعل المستمعين صمّاً بكماً عمياً عن العالم المحيط بهم، وأذهانهم مركّزة فقط على هذا الحكواتيّ الذي يرتدي السروال التقليديّ والقلنسوة الفخّاريّة اللون: بوخليل، جدّي.

أتذكّر جليّاً ذلك اليوم الذي مات فيه والدي، ابنه الأكبر، نتيجة لحادث سيّارة، والناس الذين حضروا بأزيائهم السود لتقديم العزاء لعائلة الفقيد، وتكريم التقاليد العتيقة. توقّعوا أنْ يجدوا بوخليل مترهلاً، منطوياً على نفسه، يرتدي حزنه وكأنّه صليب على صدره. لكنّهم شاهدوا رجلاً منتصب القامة، حزنه العميق يَظهر صفاءً يخيّم على أهل البيت، ويذهل الجميع بقوّته.

كنت أقصد القرية لأرى بوخليل أثناء عطلتي الصيفيّة. كانت أشجار التفاح المزروعة في صفوف متناسقة في الحقول هي

الآثار الوحيدة للحياة المنتظمة هناك. ما عدا ذلك، كانت القرية مليئة بالمتناقضات. كان أكثر ما يسترعي انتباهي برك الوحل الكثيرة، المفتوحة في الطرقات المعبّدة، التي يسلكها الرعاة بماشيتهم، والشبّان بسيّاراتهم الحديثة يتسارعون تباهياً، فيدفع المارّة ضريبة المرور بما يصيبهم من لُطخ. تلك قرية يعيش فيها المثقّف مع القَبَليّ، المسالم مع المحارب، المتصوّف مع المتهوّر، تجمعهم صفة مشتركة واحدة، ألا وهي الشغف بتلك المرتفعات الجرداء التي تحيط بقريتهم؛ ببيوت الحَجَر، بالسقوف القرميديّة، وآلاف المخابئ الصغيرة التي كانت تُنسج فيها أحلام الطفولة، وبغابة الأرز القريبة، بعطر زيتها العتيق، وظلالها التي تترامى فيها أصداء قصص الكتاب المقدّس.

جمال القرية فتّان. جاذبيتها لا تقاوم. سحرتني!

ما أذكره من تلك الأيّام هو مُساعَدَتي لجدّي في جني محصول جديد من البطاطا. كان بوخليل يحني ظهره لساعات، قابضاً بيديه، اللتين تحملان نُدباً خلّفتها سنين زراعة لا تنتهي، على مِذراة قديمة يحفر بها الأرض، فيطرح التربة جانباً لتظهر الدرنات المخبّأة. كان العجوز دؤوباً مثابراً، وكنت أنا الصبيّ أحاول مشاكلته، لكنّ هذا لم يكن بالأمر اليسير. وعلى الرغم من أنّ السنين زادت من عزيمة ساعديّ قليلاً وأضعفت ساعديه قليلاً، إلاّ أنّني لم أقدر أبداً أنْ أماثل حماسه للأرض، وأنْ أماشي إيقاع مِذراته.

صادفنا مرّة شتلة بطاطا بزرية. كان لها لون داكن مميّز، وكانت لا زالت متعلّقة بالألياف التي خرجت منها الدرنات الجديدة.

'أُنْظُرْ كم هي جافّة وقديمة،' خرجت الكلمات مع أنفاسه.

'تكاد تكون فارغة،' كان جوابي وأنا أتحسّس بشرتها.

استقام، ومسح العرق عن وجهه. أشار بإصبعه المرتجف نحو النموّ الجديد وابتسم: 'حياتها الآن في مكان آخر، أترى؟'

بعد انقضاء كلّ يوم من تلك الأيّام كنّا نجمع المحصول في أكياس خيش كبيرة، نحملها فوق ظهورنا، ونشقّ طريقنا عبر ممرّ ضيّق لم يكن أكثر من مجرّد صخور ونبات القرّاص اللاسع. أحياناً، حين كان ضباب أيلول يزحف ببطء إلى أعلى الوادي ليلفّ القرية بكاملها بغطاء روحانيّ، والعالم من حولنا يتحول إلى الأبيض، وتفقد العين قدرتها على رؤية ما يقع على بُعد ذراعٍ ممدودة، كنت لا أستشعر من حضور بوخليل سوى تنفّسه المتواصل، وانسحاق التربة تحت جزمته. شعرت في ذلك الجوّ وكأنّني في حلم، أثب نحو المجهول، يقودني فقط إيماني بمن كان أمامي، يقود طريقي.

لم تدم تلك السنين الهادئة طويلاً. اندلعت الحرب الأهليّة حين كنت في الثالثة عشرة، وويلاتها التي اقتصرت في الشهور القليلة الأولى على المدن الساحليّة الرئيسة، سرعان ما امتدت إلى كلّ المناطق. جاء الغزاة إلى قريتنا وأحرقوها، أمّا من نجا من القرويّين، فلقد عمد الصليب الأحمر إلى نقله في قافلة من الباصات نحو بيروت، فهناك يمكن لديْرٍ أو قريب أو صديق أنْ يوفّر لهم المأوى ريثما يتمّ التوصّل إلى معادلة للسلام، معادلة كانت تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم.

محزنٌ أنْ يكبر المرء في ظلّ الحرب الأهليّة، لكنّ سخرية القدر هي أنْ يتعوّد على بشاعتها، على زئيرها، وحتّى رائحتها. تلك لعمري مأساة بحدّ ذاتها تهزأ بوجودنا كلّه. وحتّى أشدّ أهل المدينة عناداً – أولئك الذين رفضوا لسنوات أنْ يؤمنوا أنّ الموت قاب قوسين أو أدنى، على بعد حارة واحدة، نَفَسٍ واحد – استسلموا أخيراً لما لا يستطيعون تغييره، ولقبول تعريف الـ"حياة" الذي فرضه قاموس الحرب على بيروت.

لكنّ الصدمة كانت كبيرة بالنسبة للقرويّين. فجأةً تحوّل الهواء الذي اعتادوا على استنشاقه نقيّاً إلى وسط ملوّث بالبارود والغازات المنطلقة من عوادم السيّارات. والغيوم التي كانت حتّى

الأمس بيض اللون نظيفة، صارت اليوم ترتدي ثياباً مختلفة: رماديّة، داكنة، محترقة.

لأوّل مرّة أرى علامات الحزن على وجه العجوز. تدلّى خدّاه، ولم تعد نظّارته ذات الإطار الذهبيّ قادرة على إخفاء الجيبين الغائرين اللذين غرسا نفسيهما تحت عينيه الزرقاوين الدامعتين. عزل نفسه معظم الوقت، وصار يتناول من الطعام قليله حتّى تقلّص جسده إلى حزمة من الجلد والعظم، وبدأ ظهره بالانحناء، فكأنّ التطوّر يحدث منعكساً، وكأنّ هذا آخر فصل من فصول كفّارته، واعترافه الأخير بالهزيمة. وجدّتي، التي كانت دائماً مدفوعة بإحساسها بالواجب والتقاليد أكثر من إحساسها بحبّ واضح المعايير، قدّمت له عنايتها بحنان وعطف ما عهدتهما لديها. لكنّ هذا ما كان ليغيّر مجرى الأمور، أو يوقف المحتوم منها. توفّي بوخليل بعد ذلك ببرهة وجيزة.

جرت دموع سخيّة من عيون كلّ من عرف الحكواتي، على تلك الفاجعة. والعجيب في الأمر أنّني شخصياً لم أقدر أنْ أذرف الدموع. غرقت في عالمٍ ساكت، أفكّر في الأرض، بمذراة بوخليل العتيقة، بتلك اللُّحمة الغامضة من الحبّ التي تربط بين الرجل وأرضه، وبين الأرض ورجلها. وكأنّ الأرض أبت أنْ تتخلّى عن بوخليل حين لم يكن له من خيار سوى التخلّي عنها. أبتْ الابتعاد عن الحبيب الذي تنشّق عطرها، ولامس رَحِمَها، لذا استدعته ليرتمي بين ذراعيها الحنونين بطريقة غامضة، لكنّها مألوفة.

والآن، بعد مرور سنين طويلة، وأنا أنظر عبر عدسة الزمن وأتفهّم ببطء تقلّبات الحياة، وتلك الحقيقة التي نولد فيها، أتعلّم الضحك من تلك الأحلام الكثيرة التي نسجتها لنفسي، والوعود التي ما تمالكت سوى الإخلال بها. ومع هذا فإنّني ضمناً مرتاح لأنّني استطعت الوفاء بوعد واحد.

سواء أكانت روح بوخليل لا زالت تحوم حول تلك القطعة المهجورة من الأرض على بعد آلاف الأميال، تستخرج مزيداً من البطاطا النفيسة، أو أنّها في حالة وجود أخرى، هذا بعدٌ ما عاد بإمكان ذهني أنْ يحدّده، ولكنّني أتنهّد بارتياح لأنّني وجدت الطريقة. ما احتجت إلى إكسيرٍ للحياة، ولا لدواء سحريّ. ورقة فقط، وقلم، وحماس ابن التاسعة الذي لا زال يساكن ذاتي، القادر على جعل المستحيل ممكناً، والحلم حقيقة. عزائي في الأدب! وفّيت بوعدي!

جدّي لن يموت أبداً...

إطلاق السبيل

بالأمس، كنتُ لبنانياً. اليوم تُضاف واصلةٌ: لبنانيّ-أستراليّ. جواز سفر جديد.

أتناول الوثيقة بتأنّ وأقلّب النظر في صفحاتها. أبحث عن مؤشرٍ للحياة القادمة، حياة سلام، لكنْ كلّ الذي أراه هو لقطات لرجال مسلحين، عابسين، أصابعهم مشدودة على الزناد. أتنشمّ الشعار بحثاً عن رائحة الأحراج الأستراليّة، لكنْ كلّ الذي التقطه هو رائحة البارود واللحم المحترق. رائحة لاذعة مُقزِزة.

أقول هذا لصديق، فيظنّ أنّ الأمر اختلط عليّ بين جواز سفري الحديث والقديم. يعلّق قائلاً: 'تتمسّكُ بشيء من ماضيك، نوع من الموت النفسيّ كما تعلم.'

أحدّثه عن الواصلة، عن العالم الجديد، وأنّ كلّ ما أبغيه

هو التخلّي عن مرارة الماضي، والبدء من نقطة الصفر.

ويقول وهو يهزّ رأسه ثمّ ينظر خارج النافذة: 'البعض يتمسّك بالألم كتمسّكه بكنز.'

عيناي تلحقان بنظرته إلى حيث تتفجّر الشمس صامتة إلى شظايا حمر تتبعثر في أفق المغيب.

فجأة، صار بإمكاني سماع هذه الانفجارات.

فجأة، يعود الأمس.

إنّها السنة التي آخذ فيها إجازة من عالم الطبّ "الأكاديميّ"، وأتطوّع في الصليب الأحمر اللبنانيّ. إنّه الربيع الذي ضاع فيه أمان العيش في حرم الجامعة بين رائحة الجثث المتعطّنة، وصراخ الجرحى. إنّه الشهر الذي تحتفل فيه الحرب الأهليّة بميلادها الثالث عشر، وتتغذى على المزيد من الضحايا. تأخذهم، تمتصهم وتزداد سُمنة بفضلهم.

نيسان، 1988.

إنّها بيروت، وأصوات المدفعيّة القادمة عن بعد خير مؤشّر لبدء صباح مألوف. أركب السيّارة مع سيمون، من ضاحية الأشرفيّة المسيحيّة، ونتّجه عبر متاهة من الأزقّة نحو منطقة السوديكو حيث علمنا بوجود بعض الإصابات. سبق ذلك وابل من قذائف الهاون الذي حوّل الضاحية إلى منطقة مقفرة. تناور سيّارة الإسعاف في إحدى النقاط لتتلافى الحفر التي خلّفتها القذائف. بدا الإسفلت هناك كقشرة كوكب آخر. بعيد. داكن. داكن جدّاً.

صليل الرصاص يملأ الجوّ، والقلق يخيّم علينا. لن تستطيع راية الصليب الأحمر الآن حمايتنا، فحياديّة المؤسّسة الإنسانيّة التي نعمل لها ضاعت منذ زمن في هذه المنطقة القتاليّة التي تخلّى الربّ عنها. في الأسبوع الماضي فقط، قام قنّاص بالقضاء على اثنين من متطوعي الصليب الأحمر. تورّد

مئزراهما الأبيضان بالدماء حتّى اختفى الصليب المطبوع على كلّ منهما.

نتجاوز أبنية تستعصي على الوصف، على جدرانها المرقّعة آثار بثرات كالمصاب بالجدريّ. نمرّ، بين الفينة والأخرى، قرب دار على الطراز العثمانيّ بقرميدها الأحمر ونوافذها المقوّسة. شرفةُ إحداها انفصمت إلى قسمين بفجوة واسعة. برزت، من خلال درابزونها الملتوي، أولى أوراق كرمة.

نواصل السواقة إلى أنْ تنتهي الطريق بحاجز. هناك يأمرنا شابّ مسلّح بالتوقّف، ملوّحاً ببندقيّة "فال" يتأبّطها. ينظر إلينا بحذر وهو يتحدّث إلى جهاز اتصالاته المحمول. تلك منطقة عسكريّة، آخر حدود المقاطعة المسيحيّة. وباتت الجبهة المميتة على "طريق الشام" على بعد رمية حجر منّا. بعدها تبدأ منطقة بيروت الغربيّة، وستكون هناك نقطة تفتيش أخرى على ذلك الجانب من خطّ النار، وملصق آخر، ولهجة أخرى. علَمٌ جديد في هذا المشهد المكتظّ أصلاً.

’من هنا.‘ يوجّهنا المسلّح نحو اليسار، ونطيع.

سيمون يقود سيّارة الإسعاف، وجهه رصين. ’طيور جنّتي، طيور جنّتي الجميلة...‘ كلمات أغنية إنكليزيّة تنطلق من مسجّلة مثبّتة على لوحة أجهزة القياس، وهي الترفيه الوحيد لنا في هذا العالم المكوّن من العلب المغطّاة بالسيلوفان، ومعدّات الحقن الوريديّ.

أقول وأنا أُحدّق من النافذة: ’لن تجد كثيراً من الطيور هنا.‘

يسحب سيمون بشدّة من لفافة تبغه ويقول: ’القنّاصون قد يصابون بالملل، كما تعلم.‘

’سوف يقتلك التدخين يوماً. من الأفضل لك الامتناع عنه.‘

’التدخين يقتلك فقط إذا عشت طويلاً. هذه بيروت يا صديقي، فلماذا القلق بحقّ الشيطان؟‘ ينقف عقب لفافته خارج النافذة، ثمّ يزوّدني بواحدة من ابتساماته الساخرة التي تكاد تكون علامته التجاريّة. سيمون... لا يتغيّر ولا يتبدّل.

تختلط تعابير سيمون الساخرة مع تعابير غيره من المساعدين الطبيّين الأجانب، في مستشفى الطوارئ الميدانيّ، وقد ضاع تأثير تراثه الأيرلنديّ على الأحرف الصوتيّة الإنكليزيّة في معمعة الألسنة المختلفة. الحقّ أنّ سيمون ظاهرة فريدة أينما حلّ، يجذب بلهجته الفتيات المحلّيّات اللواتي يبتسمن ويتغزّلن بوجوده. هذا الشابّ الأجنبيّ مصدر أملٍ لإحداهنّ، بطاقة خلاص محتملة إلى العالم الخارجيّ، بعيداً عن بشاعة الحرب وويلاتها.

أخيراً نصل. البناء السكنيّ مفعم بالشظايا، وشرفته العليا متدلّية. الدخان الأسود يتسرّب من نافذة في الطبقة الثالثة. حملت أنا وسيمون نقّالة، وحقيبتَيْ إسعاف أوّليّ، وهرعنا عبر الطابق السفليّ، متجاوزيْن جدراناً مغطّاة برسوم عابثة، صاعديْن الدرج البالي.

باب الشقّة الخشبيّ محطّم. الهواء في الداخل ساخن ومشبع بالبارود المحروق. رئتاي تلذعانني ونحن نسرع عبر ممرّ مظلم نحو ما بدا على أنّه غرفة الاستقبال.

عجوز تجلس في زاوية مغطّاة بالسُخام. تتأرجح وتترنّح، تنتحب وتشدّ شعرها. جسدُ رجل في وسط العمر مطروح إلى جانبها، ذراعاه ملتويتان بزوايا مستحيلة. إلى يمينه امرأة شابّة تستلقي على ظهرها، وتبدو نائمة. تتمسّك بشيء ملفوف بدثار أحمر. طفلها، فيما أتصوّر.

تتصاعد في عظامي رعشة باردة. أتلمّس رسغ الأمّ مبتغياً بعض النبض فلا أجد بغيتي. أبحث عن الجروح، وأيضاً لا أجد شيئاً. لا بدّ أنْ يكون السبب نزفاً داخليّاً. هذا التفكير العقلانيّ يساعدني دائماً؛ يُمَكّنني من ضبط مشاعري.

فجأة يأتي صوت مكتوم.

'الطفل، أعتقد أنّه لا زال حيّاً.' يشير سيمون نحو الكرة المدَثّـرة، وعيناه مفتوحتان ملء اتساعهما. أحاول بجنون أنْ أُباعد ذراعي المرأة الباردتين، ولكنْ دون جدوى. تجمّدتا؛ لن تخضعا لقوّة دفعي، فالرزمة التي بينهما غالية لا يمكن التفريط بها.

أوليس الموت وقتاً لإطلاق السبيل؟

أمسكُ بيد من يديها، ويمسك سيمون اليد الأخرى وهو ينظر شزراً حين لامست أصابعه بشرتها الباردة. وبعد العدّ إلى ثلاثة، يسحب كلّ منّا بأقصى مايمكنه، فيتباعد ذراعاها، وأسمع صوت طقطقة المفاصل. لن تشعر بأيّ ألم طبعاً، ومع هذا أجفَل.

أمسك الطفل. وجنتاه زرقاوان، وعلى شفتيه خيوط من البطّانيّة التي تدثّـره. نبضه ضعيف، والنفَس شبه معدوم. أحاول إنعاشه، لكنّ قبلة الحياة لا تنفعه. العجوز إلى جانبي تواصل عويلها.

'اسكتي! اسكتي!' أصرخ في وجهها. لكنّها لا تسمعني، أو ربّما تختار أنْ لا تسمع. أنظر ثانية إلى الطفل الذي بالكاد يرتعش الآن، فينزلق ببطء من قبضتي، خارجاً من عالمي، عائداً إلى عالم أمّه. هذه المرّة، لم تكن نار الكراهية من تسبب بالقتل، بل قبضة الحب.

لا أستطيع التنفّس، موجة الغثيان تغسلني. ترتجف يداي، يحترق حلقي، ويجنّ جنون قلبي. لكنّ الدموع لا تنهمر؛ كيف أشطف غلّ الفؤاد؟ عوضاً عن ذلك أصكّ أسناني وأفكّر برجل المدفعيّة، ذلك المخلوق على الطرف الآخر لمسار القذائف. أتساءل فيما لو كانت لديه أيّ فكرة حول مكان سقوط قذيفته، ومدى الأذى الذي سببته. ليتني أجعله يرى ما أرى، ويشعر ما أشعر. ليتني أريه ثمار عمله اليوميّ، ثمّ أراقبه يذلّ ويتعذّب. آه لو أستطيع أنْ أفعل ذلك معه، ومع كلّ الذين ينحرون البراءة. كلّ واحد ملعون منهم.

تنتقل عيناي نحو صورة لا زالت معلّقة على الجدار. رجل

بتعبير حزين ـ هالة تشعّ حول وجهه ـ يصوّب إصبعه نحو قلب متوّج بالشوك. قلبه هو. قلب مشظّى. شاهد حزين على هذه المأساة.

'إن كنت ما تكون، فلماذا لا ترسل ملائكتك؟ لماذا لا توقف هذا الجنون؟' أسأل وأترجّى، لكنّ رجل الصورة يردّ بصره إليّ محملقاً بتينك العينين العاطفيّتين دون أنْ يجيب. أم هل أنا الذي لم يعد بإمكانه السماع؟ الذي نسي كيف يصغي؟

يضع سيمون يده على كتفي، فأدفعها عني غير مبالٍ. ينظر إليّ رابط الجأش متعاطفاً.

انفجار هائل يهزّ البناء. انفجار بعيد يتبعه.

'يبدو أنّ هذا الثاني ردّ على الأوّل.' قال سيمون، بينما أمعنت فيه بنظري. وما الفرق يا سيمون؟ مالفرق؟ أولا يوجد أطفال على الجانب الآخر من السياج؟ ألا يوجد أطفال؟

اليوم الثاني.

الجريدة المحلّيّة، الصفحة الرابعة، مقالة قصيرة عن "الأم الميّتة التي لا تريد إطلاق سبيل طفلها". على الصفحة المقابلة، صورة لمغن "شهير" يبتسم ابتسامة تجاريّة. دعاية لحفلة.

ثلاث مئة دولار أميركي للبطاقة الواحدة. ثلاث مئة.
وفجأة كلّ الذي أردت القيام به هو أنْ أصرخ. أنْ أبصق.
أنْ أبصق.

الآن.

قد يتساءل المرء عن سيمون. أين هو؟ لا أعرف. فقدت الاتصال به منذ اليوم الذي تركت فيه الصليب الأحمر. منذ ذلك اليوم. لكنّني في ذهني مازلت أراه يجلس القرفصاء في زاوية مظلمة من هذا العالم، يُنعش ويحيي، يضمّد، ويرمي بتعليقاته

الساخرة بين الحين والآخر. أما الشعار الذي على طوق ذراعه، فقد يكون الصليب الأحمر، أو الهلال الأحمر، أو حتّى نجمة داود. ليس هذا ما يهم. النتيجة دائماً دم. لزج. دافئ. بشريّ. دائماً دم.

ولربّما تتساءلون عنّي؛ في أيّ مستشفى أعمل، وفي أيّ فرع من الطبّ تخصّصت. مفاجأة! لم أكمل تحصيلي الطبيّ، ولم أؤدي القسم الذي طالما تطلّعت إلى تأديته. لا يهمّني ما سيقول الناس. 'يالك من غبي! كدت تنتهي من دراسة الطبّ، وتترك الآن؟ تترك؟' ليتهم يفهمونني. أشعر بالتعب. رأيت الكثير. لا داعي لرؤية المزيد.

حالياً أعيش في سيدني المسالمة، وأُدرّس مادّة العلوم. نعم، فيزياء المدفعيّة، كيمياء القنابل الفوسفوريّة، بيولوجيا الحياة الهشّة. حلمي في إنقاذ الحياة تقزّم إلى عيش اليوم، وتجاوز ضغوطه. وطموحي في عيش بطوليّ يوميّ اختزل إلى التخطيط للتقاعد لمدّة خمس وعشرين سنة من الآن.

جون زميل لي. يجيد الإصغاء. أراقبه يقطّب حاجبيه لسماع كلماتي، ويداه تتكوّبان حول فنجان من القهوة الحليبيّة. ربّما يحاول حماية عالمه الأبيض الحالم من سواد ماضيَّ. أم هل هو ماضيه؟ ماضي البشرية؟

'يجب نسيان الماضي،' يقول لي. 'الحرب في لبنان انتهت. بيروت يعاد بناؤها، وسيدني تقع على بعد سنين ضوئيّة منها. حان الوقت لإطلاق السبيل!'

'إطلاق السبيل؟'

تتردّد أصداء الكلمات في رأسي، صورة تتجلى من الماضي. كيف يمكن للأحياء إطلاق السبيل، بينما الأموات ما تمكّنوا من ذلك؟

فجأة يصبح جون ضبابياً أمامي. دموع! سوائل الجسم! قطرات الماء اليائسة، أبرّر الأمر لنفسي عقلانياً، لكنّ حيلتي القديمة هذه لم تعد تجدي. أبكي.

عشرة صيفيّات وشتويّات تلت، وأنا أبكي وأبكي، والدموع
لا تتوقّف.
عشرة صيفيّات وشتويّات تلت.
آن الأوان، أعتقد...

كينيدي أسطفان كاتب من أصول لبنانيّة يعيش في سيدني، أستراليا. خرّيج الجامعة الأميركيّة في بيروت، وحائز على دبلوم تربية من جامعة نيو ساوث ويلز. يعمل في التدريس.

نُشر النصّ الإنكليزيّ الأصل لقصّة "وعد" كما يلي.

A Promise, by **Kennedy Estephan**, was published in *Waiting in Space*, an anthology by Pluto Press, Australia 2000.

الأصل الإنكليزيّ لقصّة "إطلاق السبيل" نشر كما هو مبيّن أدناه.

Let Go, by **Kennedy Estephan**, was published in *Idiom 23*, Volume 16, October 2004. It was highly commended by the "Open Stories, Bauhinia Literary Awards, 2003".

رين إنكلاند

ريشتان

وصلتُ إلى المنعطف لأراكِ واقفة في الممرّ. تبتسمين؛ شفتاك تفترقان، ويداك مشتبكتان كأنّك طفلة صغيرة. كنت أسمع خرير رشّاشات الماء وهي تدور لتروي عشب المستشفى. السيّارات تمرّ مسرعة، وطيور العَقعَق تنشد أغنيتها الصباحيّة. أشرتِ للأعلى نحو طائر أبيض كبير نشر جناحيه العريضين فوق رأسيْنا، فتحدّدت معالمهما بوضوح على صفحة السماء الزرقاء الداكنة.

ذاك الصيف، حلّ في المدينة قطيع من طيور أبي منجل بيض اللون. حرفتها العواصف عن خطّ طيرانها الأصليّ، ثمّ حملتها الريح الشماليّة الحارّة جنوباً إلى مواقع تبعد عمّا تفضّله للتفريخ. بنت أعشاشها في مستنقع آسن تشكّل على أرض صناعيّة قاحلة، يفصلها عن المدينة خليج صغير، وتلمّست غذاءها عند مقلب النفايات المحلّيّ. لكنّ تغيّراً كبيراً كان يطرأ على المدينة أثناء النهار، حين كانت مئات الطيور تحلّق في سمائها. لازلت أتصوّرك وأنت على السطح تمدّين ذراعيك على مداهما حينما كانت تلك الطيور تعوم فوق تيّارات الرياح الدافئة.

بدا أنّ كلّ يوم حارّ يتداخل مع تاليه. الحرارة انتشرت في كلّ مكان. أصوات الأطفال في الشقق البلديّة ترشح للأعلى من الشارع الظليل في الأسفل. الساعة الجداريّة ترسم مرور الأيّام، ورنينها المشوّه يسجّل الساعات التي كانت تنسلّ منّي.

كنّا في المساء نجلس في حديقة السطح، نراقب أضواء

المدينة يخفت وميضها عندما كانت المكيّفات تُجهد مخزون الطاقة الكهربائيّة. كان لا يمكن لنا أنْ نتصوّر، ونحن ننعم ببرودة الظلام النسبيّة، ونجلس بين نباتات الجيرانيوم والبندورة، أنّ الفجر سيأتينا بنهار جديد ذي أربعين درجة. الهرّة تنام في حضنك، بينما المدينة تتقلّب وتدور في فراشها. طارت الخفافيش بصمت. نبحت الكلاب. كان ذاك الشهر أشدّ شهور ديسمبر حرارة على ذمّة السجلاّت المدوّنة.

الإثنين

كنتُ إلى جانب النافذة أنظر إلى مشهد المدينة، حين أتيتِ. كتفاك مطرّزان بقطرات من الرطوبة بدت وكأنّها الجواهر. يداك مليئتان بموادّ بناء، ورداؤك القطنيّ يلتصق بالعرق بساقيك. تحلّقت الهرّة حول ذاتها وحول كاحليك، لكنّك كنت مشغولة عن إطعامها، لذلك تركَتك وانسلّت إلى السطح لتحدّق بشوق إلى الطيور المحلّقة.

مشيتُ نحو بقّال الحيّ عند الغسق. كانت الحياة تنبعث في أضواء الشارع، والفراشات تتراقص حول وميضها الغريب. توقّفتُ في الزقاق، ونظرت للأعلى نحو الضوء في شقّتنا. تصوّرتك هناك تحيط بك صحائف كبيرة من الورق الأسمر، تخطّين رسوماً بيانيّة معقّدة، وتضعين خططاً مفصّلة. عندها لاحظت أنّه سبق للرمال أنْ بدأت تتحرّك من جديد. السماء خالية. وكلب يعوي عن بعد.

الثلاثاء

حين استيقظتُ صباح اليوم التالي كان سريرك ممهّداً لا شية فيه. وجدتك مازلت تجلسين إلى طاولة المطبخ بدوائر داكنة تحت عينيك، وشعرك معقود بقُنزعة. قصاصات الورق والأسلاك تغطّي أرجاء المطبخ. تجاهلت كلّ ذلك، وقمت بتحضير فنجانين من القهوة الصرفة لكلينا. كنت دائبة على عملك، وبالكاد نظرت إليّ.

بدا لي، بقيّة النهار، أنّك كنت نصف موجودة! التحقتِ بي إلى السطح عند غروب الشمس، تنبعث منك رائحة الصابون، وترتدين حلّة زهريّة اللون. لم أر ذلك الرداء منذ مدّة طويلة. قبّلتني على خدّي. وقمنا سويّاً بدراسة النماذج التي يتبعها أبو منجل في طيرانه.

عند حلول الظلام رأينا الطيور تعود إلى موقعها غرب المدينة.

الأربعاء

هيكل على طاولة المطبخ. أوعية مليئة بشمع العسل الأصفر المتحجّر. قطع من قماش القنّب مشدودة بإحكام بأسلاك مفتولة وقضبان الخيزران. محاولات منبوذة. نماذج أوّليّة. خردة. لم يعد بإمكاني رؤية سطح الطاولة الأزرق اللميع. قضيت العصر أستمع إلى الأطفال في الشارع تحت، بينما كنت أحاول كشط بقايا الشمع من على قدورنا. كلّ أمسية بعد ذلك اليوم كنت أجلب طعاماً جاهزاً من سلسلة تلك المطاعم ذات الأضواء الومضيّة على طول شارع جونستون.

الخميس

استيقظت ووجدت نفسي وحيدة في الشقّة. مرّ النهار ببطء. راقبت الساعة واستمعت إلى جرسها. رجعتِ في المساء، فخورة والوحل يغطّيك. اكتشفتِ أماكن تفريخ تلك الطيور. وقفتُ في المدخل أتحدّث إليك وأنت تستحمّين. بدا أنّك كنت سعيدة. استيقظت متعرّقة من كابوس أصابني.

الجمعة

الريش في كلّ مكان. جمعتيه في أكوام في كلّ أرجاء المطبخ وحجرة الجلوس. ريش موحل تمّ غسله بتأنّ، وترك لينشف على

حافّة النوافذ. تركت خلفك آثاراً رشحت إلى كلّ زاوية، وظهرتْ فجأة في كلّ الأماكن التي لا يمكن توقّعها: البرّاد، والحمّام، وتحت الوسادة.

السبت

بدأت البندورة بالنضوج في حديقة السطح. حافظتُ لك على نباتات الجيرانيوم حيّة حينما كانت الرياح الشماليّة القائظة تسفع أوراقها. لم تلحظي أيّاً من هذا. بدا وكأنّك كنت تذوين ثمّ تشرقين.

توقّفت طيور أبي منجل عن التحليق فوق المدينة. كانت مشغولة عند المستنقع بتعليم فراخها على الطيران. جلستِ إلى الطاولة ومعك إبرة وكُشتبان، تحيط بك أكوام من الريش، وأنت تخيطينها بدقّة متناهية إلى نسيج صامد للماء.

الأحد

ذهبتُ لزيارة سيليا بعد الظهر. حين عدت إلى البيت عند الساعة السادسة، أحسست بالريح تسفعني. تمشّيت في الشوارع العريضة ذات البيوت المصْطَبيّة، والتقطّت الزهور المتدلّية من فوق أسوار الحدائق. حين وصلتُ إلى المنزل، كانت الشقّة نظيفة وهادئة. تكّت الساعة، وكانت الهرّة تحلم وهي ترقد في كرسيّها المفضل من كراسي المنزل. رأيت صورة ملتقطة بآلة "بولارويد" على طاولة المطبخ. التُقطت على مسافة ذراع. كان وجهك ملويّاً بنصف ابتسامتك المألوفة، مؤطّراً بزوجين من الأجنحة البيض الهائلة الحجم. بدأتُ بالركض.

كنّا في بيت شجريّ. يوم أحد صيفيّ تفوح فيه رائحة الأعشاب المجزوزة حديثاً. الأطفال والكلاب تلعب في الشارع. شاحنة بيع البوظة تدور بين الحارات والأزقّة في الضواحي، موسيقاها الخفيفة ملأت العصر.

قلت لي: 'عندما أكبر، أريد أنْ أكون طائراً.'

الأشجار الباسقة، والبيوت القرميديّة امتدّت نحو الأفق. شمس القسم الأخير من عصر ذلك اليوم حامت على ارتفاع منخفض، ونشرت ضوءها الذهبيّ. أتذكّر كلّ شيء بوضوح الآن. كنتِ بزيّ جنيّة زهريّ اللون. الأجنحة المتقزّحة اللون المربوطة إلى ظهرك، وشعرك الأشقر، وبشرتك المسْمَرّة، كانت كلّها تستحم في ضوء الشمس السحريّ.

بدا للحظة أنّ كلّ شيء ممكن. تحدّيتك أنْ تطيري.

حين قفزت خارج البيت الشجريّ، رأيتك للحظات معلّقة في لعبة الضوء الباهرة، ولكأنّك وقفت على جناحيك قبل أنْ تختفي من المشهد.

ارتطام، بعده سكون بدا وكأنّه أبديّ. شُللتُ. جلستُ مصدومة في البيت على الشجرة، وظننت أنّك تهمسين من تحت: 'استطعت الطيران.'

ثمّ جاءت الصيحات المقزّزة للنفس: أصوات خطوات البالغين يركضون عبر ممرّ الحديقة.

اضمحلّت الأصداء. الشارع تحتي صار خاوياً، وأنا محاطة بأصائص الجيرانيوم، والنجميّة، والبندورة التي استعجبتُ كم بعثت من الاطمئنان في نفسي. السماء داكنة رماديّة. بعيداً عند الأفق، القطيع الأبيض العظيم يتحرّك بثبات نحو الشمال. المدينة تستحمّ بضوء العاصفة الغريب. تساقطت أولى قطرات المطر على وجهي المقلوب للأعلى.

باع الملاّك البناء لمجموعة تطوير عمرانيّ في الربيع. سيتحوّل إلى بيوت مدينيّة حديثة. انتقلتُ إلى منزل قديم في "ميري كريك" حيث أنام على صوت أغنيات الضفادع عوضاً عن أصوات سيّارات الإسعاف وأجهزة التنبيه الأمنيّة. الحديقة مليئة بالأعشاب وأشجار الفاكهة. الخوخ كاد أنْ ينضج. أحياناً، حين أنظر من النافذه، أتخيّلك تتأرجحين حول الهضاب تضحكين.

في جدار غرفة نومي صدع اتّخذ منه النحل منزلاً. أراقبهم يرجعون في رتل أحاديّ إلى الخليّة عند الغسق، وكأنّهم طاق من حبل يحبك طريقه عبر الحديقة، ومن خلال شقّ في ألواح الخشب. حشرات الزيز تنعتق في الليل من قشرتها تاركة رداءها وكأنّها تزيّن به الأسوار. اضطجع في سريري وأذني على الحائط استمع إلى طنين النحل المطّرد المنسجم مع إيقاع الثلاّجة.

أذهب أيّام الثلاثاء إلى مكتبٍ مكيّف الهواء، وفيه نباتات لامعة، ولوحات باهظة الثمن معلّقة على الجدران. تسألني الطبيبة كثيراً من الأسئلة عنكِ. تقول إنّي تقادمت في العمر لدرجة أنّه يجب أنْ لا يكون لي أصدقاء خياليّون— إنّني أكبر من أن أؤمن بالأشباح. حاولت بداية أنْ أجعلها تفهم. لكنّني الآن أهزّ رأسي موافقة، وأكتم أسرارنا.

رين إنكلاند تعيش على رابية في وسط ولاية فيكتوريا. نشر الأصل الإنكليزيّ لهذه القصّة في عدد "كلمات" الخامس عشر كما يلي.

Two Feathers by **Ryn England**, published in *Kalimat 15*, September 2003, Sydney.

هياسينث أيلوود

المعموديّة في "غلينروك"

كانت أمّي تمضي وقتها في المنزل دائماً، وكانت تسألني بين الفينة والأخرى، 'هل تعتقدين أنّه لا يوجد لديّ أيّ شيء آخر أقوم به يا لاسي؟' لكنّني كنت على يقين من أنّ حبّها للريف يختلف عن حبّي. ذكرياتها تمزّق القلب، لوديان يملؤها السديم، وخَلَنْج ناضر يكسوه الصقيع تحت أحذية مشدودة بإحكام، بينما بدت أبراج قلعة أدنبرة باهتة للعين التي تنظرها من خلال غيوم الثلج المنخفضة التي تذرف دموعها على القلنسوات الصوفيّة التي يعتمرها لابسو الطرطان.

كانت عيناها المفعمتان بالحنين إلى الوطن تعكّران مزاج حواسّي أحياناً. مرّة عاد والدي من المنجم إلى المنزل فوجد كوخهما ذا الغرفتين آمناً سالماً. ورأى أمّي ترقد، متوتّرة خائفة، على اللحاف الأبيض المنشّى الذي غطّى السرير النحاسيّ. قالت بلهجتها الأسكتلنديّة: 'لا أريد الخروج يا جوردي. أخاف من الضحكة المريعة الغريبة، كأنّها مرح عفريتة حرّمت عليها الجنّة.' تشقّق وجهه المسْوَدّ بالفحم، وتغضّنت الدوائر النظيفة حول عينيه بالحبور. 'إنه طائر يا نيتي، الأحمق الضاحك، ليس هناك ما يدعو للخوف.' 'بل إنّها أرض عجيبة هذه التي أحضرتني إليها يا جوردي، أصوات مرعبة في أيّام موحشة. ما أجمل عودتك إلى المنزل.'

ملأ البخار المتصاعد من الإبريق الحديديّ على الموقد

أجواء المطبخ، والحوض القصديريّ ينتظر قرب النار استعداداً لاستحمامه. 'سأفرك لك ظهرك حين تكون جاهزاً، ناداني.'

لم تشعر طيور القِرلى بأيّ خوف منّي حين كنت أتجوّل فوق الهضاب في الأيّام المشمسة. وما كان يخيفني أنْ أصادف عصابة من المتسكعين المقامرين في أرض عارية عن الأشجار، يقذف أفرادها البنسات، 'طرّة أمْ نقش؟' ويومض النحاس قليلاً تحت ضوء الشمس قبل أنْ يهبط على غبار الحلبة. كان القمار جريمة، لكنّني ما شكّلت أيّ تهديد لهم؛ على الرغم من معرفتي بأنّ طائرهم "الكوكتوه" رآني وهو يراقب المكان.

بعد أن تجوّلتُ في عمق الدرب، وتوغّلت في بقعة خبزتها أشعّة الشمس، توقفتُ لأتعجّب من كمال كومة مصنوعة من ملايين الأحجار المتدرّجة، يتراوح لونها بين البيج والبرتقاليّ والبنيّ. حملت قضيباً ورسمت شكل الصليب. جحافل من جنود النمل احتشدت خارجة من الحفرة. ألوانها ألوان الأحجار نفسها. انعدم النظام؛ انصبّت الأفواج في الخارج، وأسرع النمل يعدو هنا وهناك، ربّما محاولاً إبادة المتحرّشين. تراجعتُ، لكنْ ليس قبل أنْ أجمع مايكفي من لعابي لأبصق على الكومة، متمّة بذلك تلك الطقوس الطفوليّة.

وأكملت مسيرتي ببعض العجالة، إلى أنْ سمعت البحر يغسل أطراف شاطئ "بيروود". الجزء المرتفع من حفرة منجم "غليب" القديمة مهجور الآن. دفن الرمل معظم مستودع الفحم المجاور. والآن أستطعت بكلّ سرور أنْ أُدخل ثوبي المُطبّع القديم في سروالي، وغدفت على طول الساحل إلى أنْ وصلت إلى جدول خرَّ إلى البحر عند هَوْر "غلينروك".

تذكّرت صديقي على مقاعد الدراسة، بيلي ريتشاردز، بارد في تابوته بعد غرقه في أعماق الهور الغادرة. اصطّف التلاميذ أمام الردهة الأماميّة لمنزله. لمسنا جبينه المتشمّع، فيما كانت عيوننا تتسع رعباً، ونحن نردّد السلام المريميّ فوق جثّة هامدة

لصديق كان مليئاً بالحياة.

الحزن يعتريني الآن، جلست وحملقت بقدميّ. انسلخ الجلد الميّت كاشفاً النقاب عن بقع زهريّة فاحشة. فكّرت بالجلد الذي ترميه الأفاعي فيرفرف مثل البرشمان على الأسلاك الشائكة وأشواك العلّيق.

تابعت تسلّق الصخور المكسوّة بالطحالب بغية الوصول إلى شلاّل المياه. زلّت قدمي فخرّبت تشكيلاً أحاديّاً لرتل من النمل الأسود، كان متوجّهاً نحو عِظَاءة صغيرة جريحة، لم تنتبه لها طيور القرلى والعقعق.

سمعت الماء يقطر على وجه الصخور وأنا أنزل إلى الأخدود. كان بإمكاني أنْ أكوّب كفّي وأشرب بعطش من هذا النقاء المنعش.

نادتني صخرة ملائمة للراحة. تأمّلت شجرة أقاقيا فضيّة، قابعة على حيّدٍ مليء بالدُبال، وقد مدّت أغصانها ببسالة نحو الشمس. تيّار هوائيّ تصاعد من البحر، وداعب أوراقها حتّى التَوَت ورفرفت متلوّنة، بلون فضيّ أوّلاً ثمّ رماديّ: رقّطَت صخرتي وفتّتَت ضوئي. ومتسلّقة طفيليّة تصاعدت بمحالقها حول الشجرة لتعصر وتمتصّ النسغ الحيّ.

في مكان ما في البعد، سمعت أزيز آلة "ديدجيريدو" الأبوريجينيّة. تسمّرت، وسلّمت نفسي لخيمياء لا عمر لها حين بدأ شكل الصخور يتحول إلى رؤوس كثيرة لشعب "أواباكال" ذي الطالع السيء، فقّست هذه الرؤوس وتنفّست عدم الاكتراث فوقي.

صرت دائخة من الإجهاد؛ فالضوء المتأجّج أربك حواسّي، وأزيز الزيز الذي لا ينتهي خلق الانشعاث في روحي. ضغطّت جسمي فوق الصخر الرماديّ الصلد، وتوسّلت إلى الأرواح العتيقة أنْ تراعي وتقبل حضوري الأجنبيّ. حين هدأتُ، خررت ساجدة، مترهبنة أتكرّس. كانت تلك معموديّتي، رسامتي للكهنوتيّة.

نمت إلى أنْ هزّني دعاء العقعق لأستفيق على الحقيقة. بدأت اقتفاء آثار خطواتي، لأجد رتلاً أحاديّاً من النمل تلاشى انتظامه وهو ينقل أمواته بعيداً.

الطريق إلى "غليب"

فقاعات من القار تنفقئ من شدّة الحرّ، وتقطر على الميازيب الإسمنتيّة على حافّة الطريق إلى "غليب". كانت الساعة الحادية عشرة من صباح يوم أحد، وكانت مجموعة من السيّارات اللميعة، حديثة الطراز، تزيد على الوهج وهجاً خارج الكنيسة المعمدانيّة. الهواء مُحمّل بالغبار والضجيج. إحدى الجرّافات، على الجانب الآخر من الطريق، تزيل بمخالبها الطفيليّات النباتيّة المتسللة في دربها، لتستطيع الوصول وهدم آخر كوخ طينيّ في بلدة "آدامستاون" التعدينيّة القديمة.

منذ مئة سنة، استطاع أحد عمّال مناجم الفحم أنْ يدّخر من راتبه فيشتري رقعة أرض، والأرض صارت منزله. بنى كوخه على مكان مرتفع، مستعيناً بالطين من جدول تغذّي مياهه أشجار الأوكاليبتوس التي كانت تغطّي التلال في ناحية الغرب. شقّ الجدول طريقه منحدراً عبر الجانب المنخفض من أرضه، مروراً تحت جسر خشبيّ، ثمّ استوى منتشراً فوق مرج عريض مليء بالبط البريّ وزنابق الماء.

كان، بعضلاته الفتيّة القويّة، التي نمّاها في المناجم تحت الأرض، يستخرج الطين من الجدول فإذا ما آلمته ذراعاه وظّف قدميه في قلب وعجن الوحل الرطب، ليصيّره قطعاً مربّعة

متقنة، يتركها بعدئذ لتجف في ظلّ أشجار الشاي.[1]

كان يعمل وينتظر بصبر، لأنّه كان عازماً على الزواج. اختار ابنة عامل مناجم؛ رجل تعدين مثله. تمّ زواجهما حين أنهى غرفتين رماديّتين مناسبتين، ثمّ قاما معاً بقياس الآجر، ومعه مدى تقدّمهما. غطّسا فَراشي الدهان الموصولة بمماسك طويلة في وعاء من القارّ الأسود، وبلمسات سريعة مرحة عزلا الجدران عن عوامل الطقس. ملأت رائحة القارّ الساخن الجوّ، وتحوّل البيت الرماديّ الصغير إلى أطلسانيّ أسود.

وجلست ابنة المُعدّن تحبك الأنسجة الجميلة لتزيّن بها الرفوف التي صنعها زوجها من صناديق الديناميت، التي كانت تحوي يوماً المتفجّرات التي استعملت تحت الأرض. وكان نسيجها على غاية في الدقّة، فبدا أنّه يليق بتزيين مذبح كاتدرائيّة.

زرعت "كبّوسين"[2] برونزيّاً وأصفر لتزهر جانب الجدول، ثمّ رتّبت الزهور التي كانت تجمعها في آنية خزفيّة لتلامس حافّة النافذة الطينيّة الحريريّة الملمس.

صدرت التعليمات، أثناء الركود الاقتصاديّ العظيم، للعاملين البدلاء أنْ يعملوا على ترميم المسالك السيّئة، فصارت جلبة الألواح الخشبيّة المتواصلة تعكّر صفو نوم الناس في المنزل الطينيّ القابع على الطريق إلى غليب. وصدرت تعليمات، إلى رجال يحملون المعاول والمجارف، بمدّ طريق إسمنتيّة من أجل العربات الآليّة التي أخذ تعدادها يتزايد يوماً بعد يوم، وتبع ذلك عزل الطريق بالقار من جانب إلى جانب، ممّا أخفى آثار أيّ مجرى مائيّ. ومع هذا كلّه، صمد الكوخ الغريب الصغير على حافّة الطريق إلى غليب.

بعد انتهاء الطقوس الدينيّة في الكنيسة، بدأت محركات

---

[1] أشجار أستراليّة تستخرج منها زيوت مفيدة، وهي ليست الشاي الذي نشربه.

[2] نبات يحمل أزهاراً ملوّنة وثماراً تُكبس. يسمّى أيضاً "أبو خنجر"، واسمه اللاتينيّ "نستورتيوم".

التشغيل الضّاجة تستجيب للبطاريّات المشحونة برخاء ملاّكي السيّارات. كان بعض الأبرشيّين يتوقّف صامتاً على ممرّ كان يسير عليه رجال طال نسيانهم.[3]

عجوز، تنوء بحدبة أرملة تعبة، تدسّ مؤشرة كتاب داخل إنجيل مستهلك، وتترك الجمع. تتخطّى، دون تفكير، خليطاً من قبّعات حمر وغبار، متجهة نحو الجانب الآخر، وحين يضطر سائق شاحنة محمّلة بألواح رياضة "ركوب الموج" للتوقّف المفاجئ، بعد إصابته بالذهول بسببها، يطلّ بوجهه الذي حرقته الشمس وبشفتين من الزنك الأبيض، فيصرخ غاضباً بكلّ كراهيّته وألفاظه القذرة.

تصل إلى الرصيف فتجلس مرتعدة بين الحطام، حتّى تتمكّن من إبطاء ضراوة دقّات قلبها المتلاحقة. تمسّد وتربت وجه قرميدة عتيقة، بينما ترشح لطخ دموعها السوداء إلى شكلٍ من أشكال اليأس.

تدمدم: 'من التراب وإليه ياجدّي، عليك الرحمة.'

تقف على رِجلين مهتزّتين لتراقب دواليب الجرّافة العملاقة، تعكس اتجاهها لتكبس على الأرض تاركة آثارها في الغبار الرماديّ. تهرس الدواليب طرف تنكة دبس صدئة، وتسحق للمستقبل حفنة من بذور الكبوسين.

هياسينث أيلوود كاتبة من نيوكاسل، أستراليا. توفّت 2014. الأصل الإنكليزيّ لقصّة "المعموديّة في غلينروك" نشر كما يلي:

Baptism at Glenrock, by **Hyacinth Ailwood**, was published in *Novocastrian Tales*, Paul Walsh (Ed.), Elephant Press, 1997.

الأصل الإنكليزيّ لقصّة "الطريق إلى غليب" نُشر كما يلي:

The Road to Glebe, in *The Newcastle Herald*, 03/01/2004.

---

[3] إشارة إلى عمّال مناجم الفحم.

بروس باسكو

كوّة

لم تستطع أنْ تتذكّر رؤية شجرة، على الرغم من أنّها قلّبت في ذهنها كلّ حجر وبوّابة ونافذة وقرميدة، بوضوح تجلّى لها كوضوح وجه أخيها أو أختها. عاشت في شارع "روزكاسل" ثماني عشرة سنة إلى أنْ جاء الرجل وأخذها، والآن، رغم تمكّنها من رؤية الدرزات المعوجّة تزركش كشكش مريلة والدتها بوضوح كوضوح رؤيتها للشرايين على قفا يدها، لم تتمكّن من تذكّر أيّ شجرة سواء أكانت على طول شارع روزكاسل أو على طريق "هيدلي". جالت في ذهنها شوارع البلدة القديمة، منعطفة تارة إلى هذه الحارة، وتارة أخرى إلى تلك، حتّى الحديقة العامّة، وثلاث شجرات دردار فيها، الشجرات الوحيدة في حياتها حتّى الآن.

آه، سبق لها أنْ قرأت حول الأشجار والنمور والنعامات والفيلة والأهرامات، والواقع أنّ كلّ الناس كان يفعل ذلك في تلك الأيّام، فكانت تلك المواضيع تظهر في الجُمل على كلّ سبّورة، الغريب الفتّان، هكذا كانوا يجذبونكِ للقراءة، حتّى لو كنتِ ابنة عامل في مناجم الفحم الحجري. كان الجميع عمّال مناجم، أو زوجات لعمّال المناجم، أو بناتهم. لا، لم تستطع تذكّر شجرة، أو أيّ رجل لم يكن عامل منجم. ربّما يستثنى من ذلك "إدوارد كارمودي" في المتجر... والكاهن "وليامس"... و"فيتزجيرالد" العجوز في المدرسة... لكنّه مات.

والآن كان هذا الرجل. كان يجب أنْ يكون عاملاً في

مناجم الفحم، لكنّه أتى إلى شارعها يوماً وقال إنّه لا ينوي أنْ يكون عاملاً في المناجم، بل يريد أن يكون... من ملاّكي الأراضي... على الجانب الآخر من العالم. اعتقدت أنّه كان يعني أفريقيا، وفكّرت بالقرود والفيلة ترتع في الحديقة، والفيلة ترش المياه بذكاء من خراطيمها على أحواض الورود. كانت هناك قصّة مثل هذه في كتاب قراءتها، لكنّها لم تتذكّر أنّها تساءلت لماذا لم يأكل الفيل الورود، أو يطأها بأقدامه. بدا لها أنّ الأطفال جميعهم صدّقوا قصّة الفيل.

ثمّ جاء هذا الرجل، وقال لتحلّ اللعنة على منجم الفحم، وقالت هي لتحلّ اللعنة على شارع روزكاسل، وهكذا انتهيا إلى حيث هما الآن.

رمت بنظرها على ظهره. أمرٌ عادي أنْ تشاهد رجلاً وقد خلع قميصه في هذه البلاد الحارّة، خصوصاً لما ينطوي عليه العمل الذي يقوم الرجال به. احمرّت وجنتاها بادئ الأمر، وشاحت بوجهها عن أيّ مزارع أو معماري نصف عار، لكنّها بدأت تتعرّف إلى الأظْهُر بالتدريج. وهذا الظهر... كانت تعرف هذا الظهر. تعرف كيف انفتلت العضلات بصلابة بمحاذاة سلسلة الظهر، مثل حبل مالح. كم مرّرت يديها على هذه الحبال وشعرت به يرتبك. طافت بإبهامها حول عظام كتفيه، وصولاً إلى الترقُوة، وإلى تجويف الرقبة تاركة لأصابعها حريّة الانسياب عبر شفتيه لتجدهما مرطّبتين برأس لسانه، وبعدها اللحظة الحاسمة، يتقوّس فيها ظهره ويستدير ملتوياً فيلتقطها من خصرها، يرفعها مستحضراً كلّ جسدها فوقه. عارياً أسمر. يمكنك فعل هذا في هذا البلد. أجواء حامية. لا أحد ينظر من النافذة، لا أحد سيخبر أمّكِ، لا أحد يعتبر هذا غلطاً.

طقّ، ضربت المطرقة الإسفين في زَنْد الخشب المشقوق فتراجع صدى الصوت عن أشجار الأوكاليبتوس الأحمر والـ"ويلغا" المحاذية للنهر. طقّ، ضرب مرّة ثانية، وطقّ مرّة أخرى، والإسفين

يشقّ الخشب فينبثق عنه عمود سياج، قاسٍ وصلب، ولكنّه مزْهرّ رطب كشريحة من سمك السلمون.

مدّت بصرها إلى حيث استلقت "فيوليت" على ظهرها في سلّة القصب، بذراعين مطروحتين خلف رأسها، وساقين منبسطتين طريّتين كالخزامى. لم يكن عليها سوى الحفاض. يمكنك القيام بذلك هنا. لا في الصيف، ولكنْ في الخريف، فيما كانوا يسمّونه خريفاً، في الضوء المرقّش تحت الشجرة، تحت الشجرة التي سبق لها أنْ رجته ألاّ يقطعها، حيث تنام طفلتها عارية بلون الشاي، ليس أبداً كالأطفال في بلدها الذين بدوا جميعهم بلون مصل اللبن الفاسد.

فيما ينام الكلب الأحمر على العتبة، تجمّعت تلك الطيور الصغيرة التي حضرت تنسلّ بين الغُصَيْنات والوريقات، يصيء واحدها نحو الآخر بصوت خفيض تكاد تسهو عنه إنْ لم تنصت جيّداً، على عكس عصافير شارع روزكاسل. الطيور هنا صغيرة خجولة، كتومة، بريئة، تعبث بحشرات متناهية الصغر لا تراها العين. لم تكن هذه الطيور أبداً مثل ببغاءات اللورِيكيت، بألوانها الحمر والزرق، التي كانت تضفي عليها زيّاً عسكرياً يضاف إليه جرس أغانيها المؤلّف من ثلاث نغمات بدت واعدة بلحن كامل، بل ربّما كانت تعلم السيمفونيّة كاملة، وإنما يحتاج واحدها تذكير الآخر فقط بالفواصل الموسيقيّة الافتتاحيّة حتّى تعود فوراً لتقطيع جوز الأوكاليبتوس اللاذع بمناقيرها الكُلاّبية، فتتساقط البقايا منقبضة ليمونيّة حولها، وكذلك على الطفلة، مرّة أو مرّتين، حتّى أنّها ماءت بشفتيها الرقيقتين البرّاقتين، ثمّ عادت للنّوم ثانية دون أنْ تفتح عيناً، أو تعكّر حلمها المكوّن من الحليب الجاري، وثديين دافئين مضغوطين. يمكنك فعل ذلك في هذا البلد.

حينما أحضرت له قطع الكعك والشاي، تناولها وهو واقف، حريصاً على مواصلة عمله. أدخلت يدها عبر منحنى خصره المشدود وإصبعاً بين أعلى بنطاله وبشرته، وصلت به إلى

أماكن أكثر عمقاً فشعرت بجسده ينشدّ انشداد الحبل الذي يسحب البوارج عكس التيار، وعينيه تلاحقانها كالحصان، أمّا هي فلقد ارتعدت بوجهه رعدة مومس فاسدة. ما كانت لتقوله أمّها لو رأت إصبعها المنزلق، والرعدة الوقحة؟ لكنْ لا من يرى، ولا من يسمع، أو يذكر أنّ هذا غلط. سحبها إليه وأراها كيف سيسطّح قطع الخشب ليصنع منها أطر ومصاريع نوافذهما، ثمّ همس في أذنها وعداً محروراً أحرق وجنتيها. لكنْ، يمكنك فعل ذلك في هذا البلد.

كان ذكيّاً. حصان ذكيّ. راقبته وهو يضع مِرْسَمة في كلّ زاوية تقابل الأخرى من قطعة الخشب، ثمّ كيف بدأ يسحج الخشب من اللوح فيغيب الجوّ في عطر الأوكاليبتوس. دون أنْ ينبس ببنت شفة، حمل قطعتين سوياً مشكّلاً زاوية قائمة، وهو ينظر إليها ليكتشف إنْ كانت تفهم سرّ العمليّة، وأنّ الكوس يحدّد الإطار وفق زاوية مع الحجر تاركاً منفذاً مناسباً. آه، حصان ذكي. حصان جميل، وقويّ، وذكيّ.

عمل كذلك طيلة اليوم، وقبل انقضاء العصر أنجز النافذتين الطويلتين الضيقتين، وركّب المصاريع على النافذتين الأخريين. قطّع أخشاب المصاريع بثلمٍ صغير بحيث أنّها حين جُمعت شكّلت قلباً مثل المصاريع التي سبق أنْ رأتها في صور قرية سويسريّة مطبوعة على علب البسكويت التي كانت أمّها تشتريها في عيد الميلاد.

وقفت تتأمّل الإنجاز بإعجاب، الأناقة التي امتثلت المصاريع لها في واجهة المنزل، منزلها هي. لكنّ الشمس بدأت الآن بالانخفاض، تكاد تكون تحت ذروة الأشجار العظيمة المحاذية للنهر، وهكذا سبق له أنْ أخذ الكلب الأحمر، وأحضر قطيع الغنم والبقرات مع عجولها، ووضعها في حظيرة قرب الكوخ. سبق لها أنْ افترشت الأرض ببعض القشّ البرّيّ الذي قطّعاه من ضفة النهر في أوّل صيف لهما هنا. ثمّ نظر واحدهما إلى الآخر، نظرة فيها أوّل ذرة غموض شعرا بها ذلك اليوم.

بدا أنّ طيور العقعق والقِرِلّى التي كانت تراقب من على الأشجار تقبّلت شكل الفناء كفاتحة للبدء بإطلاق أغانيها الجامحة الطائشة المستحيلة، منهية اليوم بشغب فاجر، وكأنّها جوقة من عازفي المزمار تفضح جيشاً يستحقّ الازدراء.

ساعدت المصاريع على إحلال الظلام في الدار في وقت مبكّر أكثر من السابق، ممّا جعلهما يشعلان المصابيح، ويصقلان زجاج القناديل قبل أنْ يصبغ الغسق الوادي بلونه الأرجوانيّ. أدارت ظهرها حين أخذ البندقيّة من على الرّف وجهّزها قرب الفتحة الضيقة التي سبق أنْ ركّبها، وما زال الخشب ينزّ نسغاً راشحاً.

تلا الصلاة فوق صحنيهما بصورة روتينيّة، ثمّ نظرا إلى بعضهما قليلاً قبل أنْ يلقيا بنظرهما على الطعام. طهت قطعاً كبيرة من لحم الغنم لدرجة أحسّت معها بالعار فيما لو اكتشفت والدتها مدى الإسراف الذي وصلا إليه. بجزراتها هي وبصلاتها أعطت المرق قوامه الكثيف، وصلصة من البندورة التي نمت على هواها جانب زريبة الخنازير. خبز، كدسة من الخبز والزبدة تهدّد بالسقوط من الصحن. لكنْ كان عليها إطعام الحصان الذي عمل بجهد من قبل طلوع الفجر دون لحظة راحة تذكر، لأنّهما كانا في عجلة من أمرهما يحضّران المنزل.

يرقدان في السرير عاريين تحت الملاءة، يمسكان ببعضهما، هي بذراع تحني رقبته، والذراع الأخرى تستقر حول ظهره، وهو كذلك عدا أنّ إحدى يديه تكوّبت حول ثديها، وانتصبت الحلمة بين أصابعه متباهية ممتلئة رقيقة بنداها. لكنّهما كانا ينصتان.

نَفَس فيوليت كان طبيعيّاً وعذباً. لا خُناق ولا احتقان، ولا غمغمة تكظمها أغطية الفراش القريبة منها. مثلهما، يمكنها الاعتماد على ملاءة واحدة، وتنام متألّقة بأطرافها المنبسطة. يمكنك فعل ذلك هنا. لكنّهما لم يكونا ينصتان لتنفسها، سبق لهما توقّع انتظامه المتواصل، ومع ذلك تابعا الإنصات.

استقرّ في وضع يمكّنه من رؤية الكلب عبر كتفها. وحين رفع الكلب خطمه، ونصب أذنيه بالتدريج، بادر فوراً إلى سحب ذراعيه من حول زوجته، دون أنْ يعبأ بثمار جسدها المكشوفة، وتسلّل من الفراش نحو شقّ النافذة المرتفعة، وسدّد بندقيّته من خلال فتحتها.

يصغيان. سعلت إحدى البقرات، ثغى أحد الخرفان، وكان بإمكانهما سماع ضربات أقدامه الجريئة، فهو الذي يعتبره الآخرون قائدهم. مرّة أخرى ضرب بقدمه، يواجه بشجاعة ما كان يجب مواجهته، عيناه الصفراوين تدوران في أرجاء الفناء الذي أضاءه القمر، تعرفان، لكنْ لا تبصران. وبعدها نسفت البندقيّة الصمت من على نصول الأوراق، ومزّقته من أفواه الخراف، وجعلت الأبقار تحني رؤوسها أمام عجولها، مرتبكة، عارفة دون أنْ تبصر. مرّة أخرى صوت البندقيّة، ومرّة أخرى. وما كان بعد هذا ضجيج. عاود ضوء القمر إضفاء لونه الفضيّ الناعم على حوافّ الأوراق، ونصل الرفش، وعظم الوجنة، والهواء الساكن.

ترقد في الفراش تحدّق إلى الرجل الواقف أمام النافذة، ترضع فيوليت من ثديها، مندهشة لوجودها بين ذراعي والدتها.

ماذا يريد هؤلاء القوم؟ لماذا يعودون باستمرار؟ ألا يرون أنّهما لا يريدان شرّاً لأحد، وأنّ كلّ الذي يريدانه هو تربيّة قليل من الخرفان والأبقار، ما يكفي لتربية طفلتهما، وربّما أطفالهما في القريب العاجل؟

وقف إلى جانب النافذة، البندقيّة تتقوّس إلى الأمام وإلى الخلف، وشفير التحصين يسمح له بتغطية معظم الفناء. ينصت، ينتظر. لماذا لا يتركونه وسبيله؟ دون وعي وضع أصابع يد من يديه على الإطار قبل أنْ يدرك براعة الصنعة فيه، الفخر الذي وظّفه في تركيبه. كان هذا شبّاكه، منزله، صنعهما وسيحتفظ بهما، لا ينوي لأحد أيّ أذى، فلماذا لا يتركونه لحاله؟

وقف الليل كلّه جانب النافذة، ملقياً بين الحين والآخر

بكلّ وزنه على ساق واحدة، مريحاً توتـّر عضلات ساقه الأخرى، مريحاً جبينه على الخشب المحبّب إليه، متألّقاً من سطحه، ينطق بالشكر لأنّه أنهى العمل؛ النوافذ صار لها مصاريعها، الباب مؤمّن، وكذلك الكُوَّة التي يدافع عن حقّه منها.

بروس باسكو كاتب ومحرّر وناشر، يعيش في ولاية فيكتوريا في أستراليا، وهو من سلالة السكّان الأصليّين. نشر النصّ الإنكليزيّ لقصّة "كوّة" كما يلي.

The original English of *Embrasure*, by **Bruce Pascoe** was published in *Kalimat 9,* March 2002, Sydney.

سوزان باينارت

مَصْيَدة الصَراصير

تعوّدت أمّي أنْ تقول: 'في أستراليا، تسرح الصراصير وتمرح في المطابخ. لكنّها لم تكن تفعل ذلك في جنوب أفريقيا، إلاّ في المنازل القذرة.' ومهما أعادت أمّي هذه العبارة، كانت خالتي دائماً تهمهم وتهزّ رأسها بتوافق وكأنّها كورس يردّد لازمة أغنية. كنت وقتها أسيْرَتهما، أستمع بأذن طفلة بينما كانتا تتحدّثان وتحاولان خبز الفراريج في فرن "مايكرويف" من طراز ذلك الوقت.

منزلنا في تلك الأيّام من الطراز القديم، ذي اللون الزهري المؤلّف من طابقين، يتربّع فوق هضبة بين كتلة من الشوارع الممتدّة إلى حافّة جرف صخريّ محاذ للبحر. إلى الشمال من هذا الجرف، عند منعطف أو اثنين، كنت أخلع حذائي وأخطو مسرعة نزولاً إلى الرمل حيث أغمر أصابع قدميّ.

كان والدي يعيش في مكان آخر، في ضاحية مبهرجة تعجّ بالسيّارات الفضيّة المتألّقة. كلّما كنت أزوره، كنت أسترق النظر من نافذته لأراقب رصيف أحد المطاعم. رجال ببذّات رسميّة يشعلون السجائر لسيّدات بأظافر مطليّة. من منهنّ يا ترى كانت تنفث الدخان في شعر أبي الذي يشيب؟

بعد أنْ غادرَنا أبي، صار صوت أمّي يندفع فوق السياج جانب رقعة الرمل التي كنت ألهو فيها، ويعبر هابطاً في مدخنة جيراننا الإيطاليّين. 'لماذا كانت والدتك غاضبة من جديد يوم

أمس؟' سألتني السيّدة غيوسيبي بإنكليزيّتها الركيكة، وهي تكنس أوراق الشجر من على ممرّ المشاة المشترك. كنت أرتدي ثوباً مخمليّاً له عقدة فراشيّة في عصر يوم ميلادي الثامن، حين رمقت بنظري ورقة شجرة بنّيّة محمرّة اللون، هشّة بانت عروقها، متجعّدة... كأنّها من الغضب. لم يكن لديّ أيّ جواب.

في اليوم الذي سبق عيد ميلادي الثامن، نهبت الصراصير القطعة العتيقة من كعك زفاف أمّي. جاءت تلك القطعة من أسطوانة كرتونيّة تمّ تعليبها فيها بعد إضافة السكّر الناعم، وقطع كعك الفاكهة التي سبق أنْ كانت الطبقة التي شكّلت قاعدة كعك الزفاف المؤلّف من ثلاث طبقات. كانت واحدة من تلك القطع التي يسبق إحكام لفّها ليأخذها ضيوف العرس معهم، ويضعوها بشغف تحت وسادتهم. 'كعك الزفاف المعلّب بالكرتون عادة من عادات تلك البلاد،' قالت لي أمّي مرّة وعيناها البنّيّتان تدمعان إذ تذكّرت كعكتها المماثلة.

بعد حضورها إلى أستراليا بزمن طويل، وحين اعتبرتني بلغت من الكبر ما يكفي، ناولتني القطعة التي احتفظَت بها لكي أقوم بالعناية بها. كنت أحمل القطعة حتّى تلامس وجنتي، معتزّة بلطف أمّي وثقتها.

لكنّ الصراصير زحفت عبر فُرجة درجي إلى داخله، وقضمت الغلاف السيلوفانيّ، واحتشدت حول محتوياته البالية تهتزّ فوق البياض المشوب بالرماديّ الذي صارت إليه طبقة السكّر الناعم التي تغلّف الكعكة. راقبتهم والضيق يخنق صدري، إلى أنْ حمَيْت يدي بجورب لألتقط تلك القطعة وأرميها خارج الدرج. رفعت حذائي لأعاقب الصراصير، لكنّها اختفت، هاربة عبر الشقوق بين ألواح الأرض الخشبيّة المليئة بالغبار.

'لا يمكن الوثوق بك،' قالت أمّي غاضبة، ثمّ أضافت: 'كلّ ما تقع عليه براثنك ينتهي إلى الدمار.'

قالت أمّي عابسة: ’بما أنّه يوم ميلادك، لماذا لا ننزل إلى الشاطئ بعض الوقت قبل العشاء؟‘

’تقصدين الشاي،‘ أجبتها مصحّحة. قفزت تلك الكلمة من شفتيّ. ’الشاي هو ما يسمونه في المدرسة كما تعلمين.‘

قالت أمّي: ’آه، هذا كثير – أحسّ أنّه لا مكان لي في هذه البلاد.‘ التفتت نحو خالتي متنهّدة. ’لم أعد أستطيع تكلّم لغتي أنا حتّى في منزلي أنا.‘ ثمّ التفتت إليّ وجاءت كلماتها كضرب السكين الحادّ المتكرّر: ’العشاء حين أقولها، تعني الشاي، أو وجبتنا الرئيسة بالضبط.‘ أعادت الالتفات نحو خالتي وقالت: ’كيف يمكنني يا هارييت التوقّف عن الشعور بالتعب، وبعد أسبوع فقط سأخضع لامتحان آخر في الحقوق؟‘

قالت خالة هارييت: ’لا تجهدي نفسك يا إيثر.‘ تكلّمت بلكنة جنوب أفريقيا التي تتّصف كلتاهما بها. فمها الغليظ تبسّم لي. وأضافت: ’عجّلي إلى الطابق العلوي وأحضري طابة الشاطئ الزهريّة الضخمة التي أهديتك إيّاها.‘ ثمّ همست وهي تتبعني إلى المدخل: ’كوني زيادة في اللطف مع أمّك.‘ انتفضتُ بعيداً، وأنا كارهة إيّاها في تلك اللحظة، تتخصّر فيبدو مرفقها يفرض نفسه عليّ، وأنفاسها مفعمة برائحة التبغ.

عندما رجعت وجدت أمّي تضع شمعتين بيضاوين في شمعدانين فضيّين على الخُوان. بدت عيناها البنّيّتان الواسعتان تملآن الغرفة. فيما بعد سوف تضيء الشمعتين، وتصنع دوائر لطيفة في الهواء، وتغطّي عينيها براحَتي كفّيها وتتلو صلاةً فوق اللهب. وحين خرجت متثاقلة عبر الباب الخارجي، تمنّيت لو كنت واحدة من شموع ليلة الجمعة، تحظى بتبجيل ومحبّة أصابع أمّي. لكنّ يديها كانت تومئ بالتوافق مع ألفاظ كانت تثب جيئة وذهاباً بينها وبين خالتي هارييت على طول الطريق ونحن ننزل في ذلك الشارع. أمّا أمنيتي تلك، فقد انطفأت في الوقت الذي وصلنا فيه إلى معبر المشاة.

عند حافّة الإسمنت، خلعت خُفي وكأنّني أقشّر برتقالة. ذابت أصابع قدميّ في جبل الرمل تحتي. وعلى الرغم من رقّة وقصر أكمام الثوب المخمليّ، شعرت به حامياً وشائكاً فوق بشرتي. قلت مترجيّة: 'هل أستطيع خلعه، فأنا مرتدية ثوب السباحة تحته؟'

اختارت أمّي بقعة وفرشت بطانيّتها فوق الرمل. نفخت على ذرات رمل قليلة على يديها لتزيلها، وقالت وهي تلقي بنفسها فوق المربّعات الزرق للبطّانيّة: 'لا، نحن في الخريف الآن. قد تصابين برشح مخيف.' لكنّني كنت أرى في جميع الجهات حولنا أشخاصاً يتمشّون نصف عراة، يعرّضون بشرتهم لأشعّة شمس الخريف التي تعمي العيون. أتى صوت والدتي، وهي تمرّر البولارويد من أمامي نحو خالتي، كسقسقة الطيور: 'عندما كنت صغيرة يا هارييت، هل كانت أمّك تقلق عليك من الإصابة بعدوى شلل الأطفال على الشاطئ؟'

طرحت الخالة هارييت نحالتها فوق القماش ذي الشُرّابة الذي أحضرته معها من أفريقيا. أشارت بأصابعها كالعادة إلى خشونة غزل هذا القماش التي تتّصف بها الصناعة المحلّيّة هناك. أجابت: 'ما عدا مرّة واحدة، كنت دائماً أذهب بصحبة ليلي.'

تبسّمت والدتي قائلة: 'آه، أولئك الخادمات، لا أستطيع تصوّر كيف كنت سأدبّر أموري كلّ تلك السنين بلا كيتي.'

لم يكن هنالك من جواب مباشر. لمع كأساهما، كأنّ الواحد مرفوعٌ نخباً للآخر. كانت لحظة كهربائيّة أخرى تتواصل فيها ذكرياتهما كما بدا، مثل قابس يدخل في مقبس، بعيداً في غرف ماضيهما الغامضة. قالت خالتي هارييت: 'كان يجب أنْ نتعرّف إلى بعضنا بصورة أفضل في تلك الأيّام، حين كان يتوفّر لنا وقت أكثر.'

تنحنحت أمّي وقالت: 'الآن كلانا هنا، نتخبّط سويّاً في أرض غريبة.'

سمعتُ كلّ هذا من قبل، سواء كنت جاثمة تحت منضدة المطبخ، أو واقفة هنا بجسمي الدابق، راغبة أنْ تصعد مشاكلي إلى السطح عوضاً عن أنْ أصاب بالملل من مشاكلهما. ولكنْ قبل أنْ أتمكّن من رفع رأسي والرجاء ثانية أنْ أرتاح من المخمل، أفلتتا منّي، هذه المرّة عند منعطف أكثر شؤماً. كانت أمّي تئنّ: 'على الأقل لديك زوجك، ولا زلت تُدرّسين. ليس لديّ أنا سوى شهادة الحقوق الأجنبيّة، والمنزل والصراصير التي تركها لي زوجي.'

عبست خالتي هارييت. أشعلت لفافة تبغ. انطلق الدخان أمواجاً متلاطمة من أنفها. نظرت إليّ بأسى، وكأنّها تذكّرني أنّني أيضاً من إرث والدي إضافة للبيت والصراصير وكتب الحقوق. التفتت خالتي إلى أمّي قائلة: 'أتعلمين يا إيثر، اليوم الذي تنهين فيه آخر امتحان حقوق، هو اليوم الذي ستنسين فيه ذلك كلّه.'

ثمّ التفتت إليّ بنظرتها التآمريّة. 'هاك يا حبيبتي، اركضي والعبي بالطابة. سأوافيك لاحقاً، حين أنهي مع أمّك حديثنا هذا.' تساقطت الدموع من عينيّ وأنا أخوض في الرمال. شعرت أنّني بنظرهما أقلّ قدراً من تلك الصراصير التي تركها والدي.

حين وصلت إلى جلمودي المفضل، صعدت على درجه الصخريّ. وجهدت في الانتقال من بركة صخريّة إلى أخرى، تاركة الطابة تطفو في أشدّها وحلاً. وأنا أتسلّق، ارتطم إصبع قدمي بالصخر فتحوّلت دموعي إلى أنين. كان بإمكاني رؤية المحيط يزبد، وأنا أداري قدمي من أعلى الجلمود. كان من السهل، وأنا أتألّم في داخلي وخارجي، أنْ أتصوّر نفسي هناك. ستبتلعني موجة وترميني مرتطمة أتقطّع على الصخور، بينما تخفق أمّي مثل السمكة فوق بطانيّتها. كنت أنشج. وعلقت في حلقي غصّة كأنّني ابتلعت تلك الموجة وبدأت أغرق.

'هل أنت بخير يا عزيزتي؟' جاء الصوت المتهدّج من الرمال تحت. تحرّكتُ أماماً، وأطللت. توقّف نشيجي لرؤية وجه

متجعّد في قلنسوة شاطئيّة بلاستيكيّة مربوطة بعقدة تحت الذقن. نكّست رأسي وأشرت نحو قدمي، التي دلّيت فوق الحافّة. غضّنت المرأة عينيها، وهزّت كتفيها في تعاطف صامت، وذهبت في حال سبيلها، ثوب سباحتها يومض، وطيّات بشرتها الجلديّة تتمايل خلفها إذ مشت بحيويّة نحو البحر.

بعدها، وإلى جانب الخليج حيث كان المراهقون يغوصون ويركبون متن الأمواج على الألواح، لمحتُ تيريل ميرفي، الشقراء المغرورة التي كنت ألعب معها حين كنت صغيرة. الصخرة التي كانت ترقص عليها معتمدة على رؤوس أقدامها، والتي طالما عدوت أنا فوقها، كانت مغطّاة بالبَرَوْنق الجاف الذي شكّل عليها قشرة محكمة. قميص، وبنطال قصير، وقميص تائيّ ارتمت جميعاً عند قدميها. كانت تتألّق، عيناها الزرقاوان تحتملان القسوة، وجسمها الزهري يتورّد بلون ردائها.

فجأة توقّف رقصها الدورانيّ. بسطت ذراعيها نحو المحيط. توقّفت المرأة المتقدّمة في العمر وحكّت قلنسوتها وهي تشاهد هذا الجسم المرزيباني يغطس في البحر. أمّا أنا، المناقضة بالمخمل الذي أرتدي، نظرت إلى جسمي بلونه البنّيّ نسبيّاً. ’بشرتك حنطيّة.‘ قال والدي مرّة بصوته الطبيّ. ’تحت السماء الأستراليّة من الأفضل أنْ تكون بشرتك كذلك.‘ حين تكلّم، لوى سمّاعته الطبيّة، وعزلتني لهجته، كما هي حال لهجة أمي، عن كلماته. لهجة والدتي كانت مربكة. وتذكّرت أنّ لهجة أم تيريل لم تكن كذلك.

أثناء ذلك ظهر رأس تيريل فوق الماء. سبحت عائدة نحو الصخرة. وحين رأيت منشفتها ممدودة على مداها وكتفيها يبرزان، تذكّرت كهفي أسفل الجلمود، حيث كنت أختفي عن الأنظار وأنقّب في الرمل عن الأصداف.

قبل أن أدّب هابطة عبر بُرَكٍ وسلاسل من الصخر، سارعت إلى الجانب الآخر، وألقيت نظرة على الشقيقتين اللتين لا

تشتركان بالأب والأم نفسهما. وقفت خالتي هارييت تدخّن على حافّة الماء، وأمّي منبطحة على بطّانيّتها. كانت أمّي تقلّب في مجلّة لامعة الصفحات، وقد انعقد حاجباها الكثيفان. حين لمست أصابع قدميّ الرمال، رفعت المخمل فوق رأسي، عارفة أنّني أهزأ بذلك الشق بين حاجبيها.

طرحت الثوب، ودست بقدميّ على عقدته الفراشية وهي تختلط بالرمال، ثمّ مشيْتُ نحو فتحة كهفي السحريّة. فم ضيّق في الصخر. وبدا أنّه من المستحيل الانزلاق عبر ضيقه. سحبت بطني داخل جسدي لأستطيع إقحام نفسي عبر الشقّ. وسرعان ما اكتشفت، بعد أن حُشرت بين طرفيه الرماديّين، وانفركت ركبتاي حتّى اكتسبتا لوناً أبيض مُزْهَرّ، أنّني الآن بحجم لا يُمَكّنني من الانزلاق إلى مخبأي بسهولة.

كان الهواء داخل الكهف فاسداً، والرمل رطباً. واستطاع ضوء الشمس أنْ يرشح عبر فتحتة. كان بإمكاني الوقوف في الوسط فقط. الجدران الملساء برزت لتصير حوافّ معلقة. وأنا راكعة، حفرت فأخرجت قطعة من عشب بحري، وصدفة لسرطان بلا كُلاّبات.

ذكّرني السرطان بصرصارٍ عثرت عليه مرّة تحت منضدة المطبخ، حين كنت جاثية بين ظلال رُكب الكبار. وجدته منقلباً على ظهره، مجسّاته ترتعش، بينما كان صوت خالتي هارييت يئزّ فوق غطاء المنضدة القماشيّ. 'لكنْ على الأقل لازلت تحتفظين بهذا البيت ومناظره. لا شكّ أنّه جميل في هذه الضاحية الشاطئيّة، أليس كذلك يا إيثر؟'

وبينما استمعت إلى تنهّد أمّي كردّ على ما تقوله خالتي، وراقبت أصابع يدها بخواتمها تحكّ على جواربها، قلعت رجل الصرصار، منفعلة تجاه كثرة تفرّعاتها الشَعريّة. وحين بدأ جسم أمّي يجيش، عاد الصرصار إلى الحياة. رجله الخلفيّة المتبقيّة اهتزت مع اهتزازها. اقتلعت تلك الرجل أيضاً، والجناحين، لمنع

إمكانيّة طيرانه وضرب جناحيه على جسمي. فيما كنت أراقب الصرصار، بدأت الغلاّية تهمهم، وتلاشى نشيج أمّي في حلقها حين نهضت، ورنّت في المكان صلصلة فنجانيْ القهوة اللذين كانت تحملهما.

زحفتُ الآن إلى الوسط أبتغي أصدافي، لافّة يدي على حافّة معلّقة. خَفُتَ الضوء المنبعث من الفتحة في الوقت الذي فشلت فيه يدي تلمس بغيتي. كنزي الثمين من الأصداف كان مفقوداً. وكان بإمكاني تصوّرها في شبه العتمة هذه – تيريل ميرفي – تثب إلى كهفي، تستولي على أصدافي، تقبض عليها وتغوص خارجة. أو ربّما سبق للموج أنْ ارتفع وسمح للبحر استرداد الكنوز التي ضاعت من قاعه.

عاد الضوء. غاصت أصابع يدي في الرمل. نبشتُ بضراوة. وأخيراً، وجدت أوّل صَدَفة – بيضاء، زرقاء وزهريّة، لولب حلزون بحريّ. تابعت الغَرف إلى أنْ طرح المساء ظلّه على تلك الرقعة من الرطوبة. كنت أمسح الرمل عن صدفة مفضّلة، صدفة أحببتها وكانت تشبه قلنسوة لعبة، حين سمعت صدى آهة تردّد إليّ كأنه خُوار ألم من العالم المنسيّ خارج الكهف.

كان صوت أمي: 'يا إلهي، هذا فستانها مرميّ على الرمل، هناك، أمامك يا هارييت.'

'لا تتسرعي بالاستنتاجات يا إيثر.' جاء جواب خالتي هارييت بطريقة تدلّ على أنّها منقطعة الأنفاس. 'المسكينه كانت تشكو من شدّة القيظ... حامية كجهنم... عمليّاً كانت تختنق في ذلك الرداء السخيف.'

'آه، يا إلهي يا هارييت،' قالت أمّي. 'لا بدّ أنّها تلك البومة. أخبرتك كيف أنّني لمحت واحدة على شجرة الآس هذا الصباح.'

'هذا غير صحيح يا إيثر. حكاية عجائز. كفاك تحديقاً إلى البحر، ولنتأكد أنّنا سألنا الجميع.'

لكنّ والدتي، وتساءلتُ لو كان صدرها يخفق الآن، كانت تناديني: 'داني، أين أنت؟ تعالي هنا— هنا— هنا— هنا— '

'أنا هنا في كهفي،' أجبت بصمت. ألقيت برأسي للخلف، واحتضنت حلاوة ألمها. حين أصغيت، ازدادت حدّة خوارها. كانت تزأر وكأنّها أسد البحر. نهضت ومددت يديّ المستقويتان نحو الفتحة الصخريّة، رجفتُ وفكّرت بفستاني المخمليّ.

ثمّ سمعت صوتاً ثالثاً يتسرب: المرأة المتقدّمة في السن ذات القلنسوة السباحيّة. استطعت تمييز تهدّج صوتها الذي يدل على التدخل في شؤون الآخرين. 'ألم تجداها بعد، صغيرتكما؟ لا، أعتقد ليس بعد. يا إلهي، هل الأب قريب من هنا؟ هل قلتما إنّه في بانكوك؟ صحيح، الحياة صعبة هذه الأيّام. على كلّ حال، يفعل المرء ما يستطيع فعله على أفضل وجه. كما تعلمان سألت كلّ فرد على الشاطئ. بقي واحد أو اثنين منّا فقط. اِنتظرا هنا ياعزيزتيّ. سأذهب لأبحث مرّة أخرى عن ملاككما.'

'ملاك،' قالت أمّي. 'ملاك!' وغصّت بمتوالية من نشيج آهاتها. ارتعدتُ. تذكرتُ يوم تألّق صنبور في المطبخ حين ماءت أمامه بالطريقة الحزينة نفسها.

قبل أنْ يغادرنا والدي كان يغسل نظارتيه في مغسلة المطبخ تحت صنبور يقطر. ثمّ يجفّف العدسات، بفرك كلّ على حدة بقطعة من القماش. يوم غادرنا، رمى بربطات العنق، والبلاطيل، والقمصان، والمعاطف في حقائب جديدة من جلد التمساح، ثمّ جرّها إلى الطابق السفليّ نحو الباب الأماميّ. واخيراً، استند إلى المغسلة وفرك نظّارتيه مرّات عدّة. أمّي التي كانت تحتضن واحداً من كتب الحقوق التي درَسَتها، وقفت خلف ظهره تبكي مضطربة.

سبق لوالدي أنْ قال: 'دعيني أذهب، يا للّعنة، دعيني أذهب.' وتبعني بكاء أمّي، الصوت نفسه الذي أسمعه الآن، إلى

الأسفل حيث تسلّلت أحتمي مختبئة تحت منضدة مطبخنا الخشبيّة الضخمة.

الآن انزلقت خارجة من كهفي. أردت بقوّتي المكتسبة الجديدة أنْ أمسك بأمّي، أخفّف عنها فتزول دموعها.

جلست والدتي تدلّك حاجبها وحمرة الشفق تخيّم على المكان، ساقاها ممدودان فوق الرمل. نظرت إليّ، حاجبان مختبئان، عينان كحبّتي عنب لا حياة فيهما؛ تحملقان من هذا الوجه الوعاء. صرختْ، لا تغيير في عينيها، بل تواصلٌ في موتهما، وأنا التفت إلى أشياء أخرى: الشموع، حقائب والدي، كتب الحقوق المهملة، الإعياء، أفريقيا، وحتّى خالتي هاربيت بطريقة لم أفهمها بعد. لاحظت الآن أنّ عالم أمّي كان مؤلّفاً من أشياء أخرى بالإضافة لي.

تعثّرتُ بها. غطّتني بالمخمل. رأيت خالتي هاربيت تلوّح من قمّة الجلمود.

حملتني أمّي، أو كادت، إلى أعلى الهضبة نحو البيت، ثمّ سارعت بي نحو الطابق العلويّ إلى الحمّام، ثمّ الفراش. أطعمتني شوربة دجاج، وضحكت حول شموع مطفأة، وتمتمت: 'الشكر لله،' ونفثت قبلاتها في الهواء نحوي وهي تغادر غرفتي.

أغلقت خالة هاربيت الباب بلطف خلفها في الطابق السفليّ، وسمعتُ أمّي تدمدم بصوت غريب وهي ترشّ الصراصير بمادة لها رائحة المنتول. أخيراً سحَبَتْ كرسيّاً، وسمعتُ كتاب الحقوق الأزرق الضخم ينفتح بخبطة، وشممت رائحة قهوة داكنة حلوة.

دمدمت أمّي اللحن الأجنبيّ الغريب نفسه في اليوم التالي حين أبحرت بين الموج. جسمها خلفي، نخوض بقوّة، وكانت راحتا كفّيها تدعماني. لفتة أخرى تبشّر بتغيير صغير لكنّه دائم.

في ذلك اليوم نفسه، حين تسابقت مع أمّي نحو

الشاطئ، لمحت كهفي الصخريّ السريّ في حضن الرمال. تأمّلت وجهه الناعم السرمديّ. أضاءت أشعة الشمس ثغره الواسع المبتسم استحساناً ورضاً.

سوزان باينارت من مواليد جنوب أفريقيا. عملت خلال العشرين سنة الأولى من وجودها في أستراليا بتدريس اللغة الإنكليزيّة للمهاجرين واللاجئين. نشرت عديداً من القصص والمقالات. ربحت قصّة "مصيدة الصراصير" جائزة جوزيف فيرفي التذكارية لعام 1995. كما نُشر الأصل الإنكليزيّ في العدد التاسع من "كلمات"، آذار/مارس 2002.

The Cocroach Lair, by **Susan Beinart**, published in *Kalimat* 9, March 2002, Sydney.

غريغ بوغارتس

"لمونتري باسِج"

مال إدي سميث نحو السواد. سماء رصاصيّة تضيئها أكاليل من البرق. ومضةٌ أسدلت على "لمونتري باسِج" ستاراً من نارٍ بيضاء. ضربت في معابر مستنقعات القَرَام. أطلقت إحدى الشجرات لهباً أحمر، تحت المطر، وتركت آثاراً من الدخان الأسود فوق صفحة الماء. ركزّ إدي ببصره على عمود النار. يلتهب رغم البَلَل. يسحب ألسنة حمراً رغم البرد. جافٌّ بداخله من شهور القحط. تكسّره خليّة الهواء الرطبة، فوق المحيط، ترمي النار، ترمي المطر، ترمي الرعد الذي تدحرج بين مستنقعات شجر القَرَام عند الكاتدرائيّة، عبر ماء لمونتري المنبسط كالأردواز، تدحرج إلى كوخ إدي، آخر كوخ في لمونتري.

شعر إدي بالدّويّ يهبط عليه كصوت أبواق تقضّ مضاجع الموتى فتبعثهم من جديد، يأتي عبر ألواح الكوخ، يستفزّ إدي، يخدش جلده، يثير فيه الروماتيزم أكثر ممّا تفعله الرطوبة حين تلعب دورها. رعدٌ هزّ عظامه فانتصبت، وأرسلت أشرطة من الألم، كأنّها مئة عصب نَسَوي، نبّهت الحسّ من خلال العظم والغضروف والدم؛ أشعلت في دمه الراقد غير المبالي موجة عارمة من الحركة، كأنّها نهر "تيلليغري كريك" في حالة فيضان، انتفاخ مائيّ يزيل في طريقه الطَمي والوحل من مصبّ نهر لمونتري. لمونتري بكلّ ألغاز كهوفه الموحلة تحت كتل جذور أشجار القَرَام التي كانت

ملاذاً لأسماك الأبراميس والتايلور والراقود، تتأرجح فيها كأطفال في مهدٍ من المياه الزرق.

إدي، الأخير من نوعه، مثل كوخه. بناء ملتوٍ من ألواح خشب الأوكاليبتوس المعالج بالشمس، قبعة مائلة من الحديد المموّج تهدّد بالوقوع، والانزلاق إلى الماء الذي ارتطم بباب إدي الخلفيّ. وإدي، بناءٌ ملتوٍ من أطرافٍ رقيقةٍ؛ معالجة باللحم والملح والهواء، جلد لحم عجل مقدّد. العينان مِشكاتان بلون أزرق ناعم. قاربان زرقاوان يحترقان نحو خطّ الماء عند المصبّ، حين كان الليل يغطّيه.

كوخ إدي، الرابض في مركز أرض منبسطة خضراء تشكّل النهاية المنتفخة لبرزخ نتأ تماماً في مياه لمونتري، أخذ إدي بعيداً عن الشاطئ، وعن الصدأ الزاحف للبيوت الجديدة المصنوعة من الآجرّ والقرميد، والتي ما كانت بعيدة ما فيه الكفاية على كلّ حال. بيد أنّه أوصل إدي قريباً من مستنقعات القَرَام. هناك استقر، كأنّه يهتزّ في أرجوحة معلّقة بين الأشجار، يرتفع وينخفض مع المدّ والجزر، يهتزّ بالريح التي تستعيد نشاطها بين أشجار الأوكاليبتوس المائيّة عند انبلاج النهار، يهتزّ بصوت الأبراميس، يسحق أصداف المحار على الحواجز المسنّنة وقت المدّ.

نظر إدي خارجاً. حدّق إلى ستار الماء الداكن. الماء المتجمّد. سهام جليديّة عطّلت عينيه. استطاع فقط أنْ يتبيّن مقرّ الشرطة الجديد، وفي الظلام الداكن، أتاه شكل المكتب العقاريّ كهيكل تهمسه الرؤية همساً. مكتب جديد، ويبيع لمونتري قطعة قطعة. ما عادت المنطقة كما كانت، منذ سنين.

لكنّ لمونتري لا زالت أرضاً حدوديّة: أشجار القَرَام الاستوائيّة، ومستنقعات، وسحر أتى من الماء الأزرق العميق. سحر أتى من المصبّ في الأجسام الفضيّة المعاندة لأسماك الأبراميس والقدّ الأبيض والتايلور. سحر أضفى على إدي ظلالاً مستديرة

تتساقط على الصيّاد من تيجان أشجار الأوكاليبتوس في مستنقع القَرَام. سحر أتى مع اللامتوقع الذي انتمى إليه الخارجون عن القانون من أمثال إدي.

كسرة ضوء ضربت في أساس الغيوم. راقب إدي الشجرة المحترقة تتقهقر إلى الأسود الفاحم. سبق له إزاحة لوح الزجاج عن نافذته الوحيدة. أبعد قطعة الزجاج، المحفوفة بالملح ليرى الماء والقَرَام بوضوح. أتى المطر دافقاً، لكنّ الأمر كان يستأهل كلّ ذلك بالنسبة له، فهو الذي سيكون أولّ من يعلم عن انقشاع الطقس، وأولّ من يصطاد في تلك الأعماق الحالمة.

حزم إدي الطُعم وأدواته، وانطلق من منصّته بزورقه، وبدأ يجدّف. سبق له أنْ نظّف جسم الزورق من الأعشاب والعوالق قبل يوم. انزلق القارب بسهولة عبر بشرة الماء، وترك نُدْباً طويلاً رفيعاً في الماء الواصل بين كوخ إدي وشفة المستنقع. أحسّ وكأنّه كاد أنْ يلمس دفء موقد الحطب في كوخه يلاحقه عبر الماء، يمتدّ من يدٍ حارّة مضيافة من المصطلى إلى برودة صواري أشجار القَرَام.

جدّف إدي بثبات بين الفكين الخشبيّين. المجدافان لا يغطسان في الوحل، كما كانت الحال قبل المطر. انزلقا الآن إلى الماء، وسيطرا على العمق الأزرق؛ يدفعان إدي بسهولة إلى موضع الأبراميس.

لا زالت السماء معكّرة بالسواد، سحابات عظيمة من نُدَفٍ قصديريّة تلمست طريقها إلى إدي، وكأنّها زوائد قناديل البحر. هذا السواد هو اللون نفسه الذي صبغ سماء اليوم الذي دفن فيه زوجته آنا ماريا.

إدي، ضائع، دائخ، يائس، مقضيٌّ عليه. مشطور بفؤوس الحزن، لكنْ يمشي مع الجنازة، مع الأقرباء، التعاطف، التفسيرات. ’السرطان يصيب امرأة في هذا العمر النضر، من كان يخمّن. في مثل عمرها. يا لحظّك يا إدي. لا بدّ أنّه كان صعباً عليهم.‘

كان صعباً على إدي، لكنّه خدّر ألم الخسارة بالعمل. غمر نفسه في أتون عمله، في صفّ حامٍ في مصانع الحديد والصلب، يشدّ نوابض الساعات من الحديد الحامي المسحوب حديثاً. أخذ كلّ المناوبات الإضافيّة، كلّ الأوقات المضاعفة التي استطاع الحصول عليها. أمضى أسابيع كاملة ينام في الزريبة، تهزّه نحو شبه الإغماء أصوات اصطدام الحديد الحامي يقضي على مخزون عتيق من المعدّات الدارجة. ما غيّر ملابسه. ما استحم. نام على المقاعد الخشبيّة حين كان الرجال من الطاقَم "ا" والطاقم "ب" يأتون ويذهبون. جاءت سيّارة الإسعاف وأخذته حين انهار. نام فوقع على ملفّ حديديّ حامٍ، اخترق ثياب عمله المشحّمة، محروق وغاضب، فترك دمغة على شكل لولب متقرّح بالاحمرار فوق قلبه ورئتيه. بعد المستشفى، رحل، بدأ يمشي بعيداً عن مدينة نيوكاسل، والمصنع، وبيته.

وجد إدي البقعة الملائمة؛ حفرة وحليّة عميقة في قلب مستنقعات القَرَام. بلاد الأبراميس. لا شكّ. سحب سمكة أبراميس. حرّرها من الكُلاّب. ثمّ علّق دودة أخرى. طرحها نحو الأعماق. العزلة لاءمته. لكنّ شيئاً التقط طُعمه. سمك يأخذ كلّ الطعم؛ سمك له رشّاشٌ من الأشواك المميتة التي يمكنها أنْ تخترق الإصبع حتّى العظم. سمك "محترم"، لكنْ ليس ما ابتغاه. هذا الصيد المتوحش الذي يَعْرُق العظم في الظلام ذكّره بصاحبه بيل. بيل مجنون كفأس تقطيع اللحم. يعيش وحيداً في كوخ في أعالي نهر كاروا. وهو الشخص الوحيد الذي كان إدي يُكلّم فعلاً. بيل وشبكته وقنينة البورت التي لا تفارقه.

كان بيل عبقريّاً. حسناً، لنقل عبقريّاً نوعاً ما. أعاد بناء كوخه على قاعدة من قناني البورت الفارغة. أدخل أعناق القناني في الإسمنت، وشكّل مربعاً وطيداً من الزجاج الذي كان يئنّ كما تئنّ امرأة مضروبة تحت أعقاب بيل السكرانة.

سحب إدي. الطُعم كان كتلة مدمّاة من أسنان المحترم الحادّة.

توقّفَ إدي. أحسّ بتغيّر التيار. رأى الدّوامة. وشعر بخدش اللولب الحامي يستحكّه فوق قلبه ورئتيه، وكأنّه يدير نفسه. يتحوّل مع تحوّل المدّ والجزر، المستنقعات، الأرض تدور في موج السواد.

بعد خمس أسماك أخرى من الأبراميس، قرّر إدي أنْ يجدّف إلى أعالي النهر نحو كوخ بيل.

أعطِ ذلك الهزيل اللعين بعض السمك. بعض الغذاء عوضاً عن البورت الذي يصفّي جسمه من الصلاح. لا يتمكّن بيل من صيد أيّ شيء بتلك الشبكة. مخمور معظم الوقت، فلا يستطيع سحبها.

سحب إدي نفسه فوق الماء الأسود سواد حبر الحبّار، يغمز بانعكاسات كوكبات النجوم في أعماقٍ عضّت الأسماك فيها على الوميض الفوسفوريّ المحترق. نظر إدي للأعلى بتناغم مع تجديفه. نظر للأعلى نحو النجوم التي صاغت ألف نقطة كرؤوس الدبابيس في عينيه.

استطاع أنْ يسمع بيل يغنّي وهو على بعد كيلومتر قبل وصوله إلى الفُرْضَة. بيل الذي كان يصيح سكراناً عبر الماء الأسود. وكان بإمكان إدي سماع الكوخ يتحرّك على أساسه الزجاجيّ الزلق، مطلقاً صرخاتٍ طويلة حادةٍ في الليل. كان بإمكانه سماع جزمة بيل الخشنة بنعلها ذي المسامير يقعقع ذهاباً وإياباً في الكوخ. صفعاتٌ هائلة غاضبة من الصدى تندفع مدوّية عبر الماء، وكأنّها مدفع أُطلق ليسحب الغرقى، المفقودين.

ربط إدي الزورق إلى الفُرْضَة. وتسلّق السلّم الخشبيّ بجهد، درجاته متكسّرة من الطقس والأمواج، فصارت ألسنة خشبيّة مُشظّاة مفلطحة. يتجادل مع بيل، عبر الليل.

'مَن هناك؟ أخو الملعونة!' صاح بيل.

حذاء غاضب. باب يضرب ثانيةً. مضرب بايسبول جاهز للطوارئ. وعينان مملوءتان بوحشيّة مشروب البورت، تريان أشياء في المستنقعات إذا ما تمكّن بيل من شرب ما يكفي وبقي على وعيه. وهي عادة رؤى زوجته تنهض شاحبة من السبخ، تؤشّر لبيل عبر الماء. كاد يغرق ثلاث مرّات في السابق. أطلق نفسه إلى المصبّ وعاد للسطح، بوّل، وهو يتقيأ. يُمَخّض الماء. يصل إلى الفُرْضَة بجهد جهيد. يرمي نفسه على خشبها. يَنْشِج. يعوي. كحيوان وقع بين فكّي مصيدة من الحديد، ولكنْ، على عكس الحيوان، غير قادر على مضغ طرفه العالق، ليحرّر نفسه.

'لا تخف يا بيل. هذا مجرّد أنا،' قال إدي.

'آه، إدي، تعال لأريك ما لديّ!' هَذْرَم بيل وكأنه جنّيٌّ يخرج كزوبعة من حلم ليليّ.

دفع بيل إدي وجرّه حول جانب الكوخ. سمح له إدي بذلك. شعر ببعض الأسف تجاه بيل منذ أنْ طردته زوجته. ضاقت ذرعاً بفورات سكره، وبعينيها المتلونتين بآثار الكدمات كأنّهما عنب المـُسكات، يانع ساقط من على الكرمة.

حزَمَتْ حقائب بيل ووضعتها على الرصيف. وحصلت على حكم لتبعد بيل عنها. بيل بعيد عنها، ينبح لتسترده سوزان. خرّ على يديه وركبتيه عند حدود منطقة مئة المتر التي نصّ حكم الإبعاد عليها.

يعوي كالذئب إلى أنْ استدعى الجيران الشرطة.

أوراق الطلاق قادته من نيوكاسل إلى لمونتري. قادته للشرب. أكثر ممّا كان يشرب حين كان مع سوزان.

'أُنظر! أُنظر! أُنظر!' صاح، يقفز مرحاً بين طرفي الفُرْضَة.

نظر إدي، وتعجّب. كومةٌ من أنابيب معدنيّة، بلاستيك، سدّادات، صارت إنبيقاً على شكل تنّين تخرج منه رائحة جعلت إدي يكاد يختنق. رائحة أقبح من أيّ غاز سبخٍ تعرّض له في مستنقعات القَرَام تلك. رائحة لاذعة، طغت على حليمات إدي

الذوقيّة، خدشتها، وحرقت حلْقَه.

’بحقّ المسيح القدير، بيل‘ قال إدي، ويده محكمة فوق فمه مثل قناع جراحيّ، ’ما هذا؟‘

ومشى بيل بافتخار وسط السديم الكريه. لاطف وحرّك الجهاز. فتح غطاءً معدنياً، وسكب فيه سائلاً صفراوياً أخضر من صفيحة دهان قديمة.

نظر إدي، بنصف إعجاب، ونصف غثيان، حين كان بيل يصب محتويات أوانٍ مليئة حتّى الجمام في ذلك الفم المعدنيّ العطشان.

أخذ بيل ملء يده من أكوام الحديد المموّج، المقطّع، المطروق، التي كانت جانب الإنبيق المهسهس، الباصق، فقطعت أسنانها الصدئة يديه حتّى قطر الدم. سكبها في بطن التنّين، تهسهس، تبصق الفساد والبخار وتدفّقات من الحموض السائلة عثرت على جلد بيل. أكلته، تركت فيه حفراً جلديّة تتوسّع حتّى العظم.

’هذا لها! سوزان!‘ صاح بيل. ’خيمياء! تحوّل الحديد إلى ذهب. أُنظر!‘ أمَرَني.

سحب من مؤخّرة التنّين كتلة صفراء لزجة، وتمكّن إدي من رؤية الوحل يقطر فيكشف الحديد والصدأ تحته. بيل لم يتمكّن من الرؤية.

سأستردها بالنقود! سأستعمل الذهب لآخذها. خارج البلاد. أشتري بيتاً كبيراً. لأعود إليه. ستعود. سأتوقّف عن الشراب كما تعلم. لا شراب بعد الآن. لن يكون الأمر كما كان قبلاً.

دفع إدي المجاديف بقوّة. وتراجع نحو الليل. ومن خلال كُمّ السواد رأى بيل يرقص؛ وحش مرسوم يعوي. رأى إدي التنّين، كبريتاً أصفر، عينين حمراوين متقدتين؛ جسماً بحراشف معدنيّة قد يبعث نفسه من خلال قضبانه الحديديّة، ويهاجم بيل، يضرب بذيله المتراكب من النثريّات، ويمزّق جسم بيل العجينيّ الكحوليّ

في عمقه. يأكله كلّه بفكيّه الشائكين البشعين.

التفّ إدي حول الحافّة. حُجب عن رؤية كتلة النار المجنونة التي احترقت حول بيل الفَزّاعة. كان إدي يرتجف. وكأنّ الجنون انتقل إليه. فيروس تركه يرتجف بالحمّى. اهتزّ مثل رجل مصاب بالبطاح الغولي.

نظر إدي من فوق كتفيه. رأى الكوخ، قلعة خشبيّة غريبة، مهملة جاثمة قرب خطّ الماء. من خلال الإطار الهيكليّ للخشب، كان موقد الحطب يحرق النار فوق الماء الأسود.

تمكّن إدي من رؤية السلحفاة بين أشجار المستنقعات. مقحمة بين فكيّ شجرتين. كان يراها وقد التفّت حولها لوالب من دوائر المستنقعات، لولب من الأشجار وطريق مائيّة ضيّقة بالكاد تتّسع لجسم الزورق ذي القعر السمين.

استطاع إدي أنْ يرى، في آخر ضوءٍ للنهار، ذلك المخلوق العالق يتقلّب ليحرّر نفسه. يستريح. مرهق. عيناه المتقرحتان بالوحل ترقبان إدي من خلال العوائق الشجريّة. كان إدي يعرف ذلك الحيوان. يعرفه معرفته بقاربه، فقد أخاف إدي عدّة مرات.

عدّة مرات نسي نفسه يحلم فوق الماء، بعينين نصف مغلقتين، وذهن مقفل، تعصف السلحفاة في ذهوله فتوقظه ليراها على سطح الماء جانب الزورق تماماً. تنفث كالحوت. تهزّ القارب. توقظه لبقيّة اليوم.

وضع إدي المجدافين جانباً لأنّ الممرّ بين الأشجار ضيّق فما أمكن التجديف بينها. سحب نفسه بواسطة اليد، ممسكاً بالأغصان، أطراف ميّتة تقطع اللحم الصلب في كفه. سحب نفسه داخل اللولب. اقترب أكثر من السلحفاة البائسة. المدّ يرتفع، يغطّي ترس السلحفاة الذي كان كحجرٍ كريمٍ محدّب، يُغرق رأس السلحفاة الحكيم المتجعّد الذي حاكى رأس رجل عجوز.

استطاع إدي أنْ يحسّ بعين اللولب السوداء تأتي إليه. استطاع أنْ يشمّ رائحة الوحل الأسود الذي شكّلَ قلب دهليز

المستنقعات اللولبيّ. سحب نفسه بكلّ إرادته نحوه. فَرَّضَ بيديه العاريتين الفروع التحتيّة للشجيرات. ترك قطرات من دم يديه في الماء.

سمع، خلفه، أفواه ضفادع الطين الرضيعة تلتهم دمه من على السطح. تغرفه بين فكوكها الشرّيرة، وكأنّه قشدة تُزال من دلو حليب ساخن.

وجد السلحفاة. ربط الزورق إلى شجرة أوكاليبتوس. انزلق، برقّة، بحذر، إلى الماء الأكمد. شعر بجذور تقطع قدميه. شعر بالوحل يطبق على كعبيه. الرواسب الطينيّة السوداء ترتفع مثل المدّ. وصل الماء إلى خصره. أحمر الوجه، يتعرّق، كسّر الأغصان وأبعدها من حول جسم السلحفاة.

وضع إدي نفسه في تفرع شجرة قَرَام جانب السلحفاة. سند ساقيه ضد الجذع، ودفع بكتفيه ضد الترس. شعر بالسلحفاة تتحرّك قليلاً بين الملزمة الخشبيّة. دفع إدي، تشظّت بعض زوايا الترس. سمع الألم ينتقل عبر الجسم الطريّ داخل الترس.

عاد إلى الزورق. أخرج المنجل الصغير الذي احتفظ به لأوقات اصطياد القرش. خاض الماء راجعاً نحو الحيوان. أثرُ الماء في عينيه كأنّه خطّ علاّم لمستوى الماء. شعر إدي بالاندفاع المطّرد للمدّ على مستوى صدره.

بدأ يرفس إحدى الشجرتين اللتين أمسكتا بالسلحفاة. وقف إدي في الوحل الأسود النتن. شعر بالضفادع تقضم الجروح في قدميه وساقيه. شعر بسرطانات الطين تأخذ شريحة أو اثنتين من لحم كعبيه. ابتهل أنْ لا تأتي أسماك القرش إلى المستنقعات.

رفس إدي وضرب. كان يسمع الصدى يرتدّ إليه عبر الماء. يرتدّ ليقضم أذنيه بالطريقة نفسها التي قضمت فيها الضفادع والسرطانات لحمه.

أخيراً، استسلمت الشجرة؛ أنّةٌ طويلة لحطبٍ يهوي والسلحفاة دُفعت نحو حريّتها بواسطة إدي، طفت في موجة المدّ

المرتفعة في المصبّ، عيناها، تختفيان، نظرتا إليه دونما مبالاة، وهي تغوص عائدة إلى كهوف مستنقعات القَرَام الموحلة.

كان إدي منهكاً. تسلّق بجهد إلى حافّة من الوحل. استراح قليلاً، ثمّ وقف ليعود إلى الزورق. زلّت قدمه. سحق يديه حين حاول أنْ يحتفظ بتوازنه، لكنّه وقع للخلف فوق الأوتاد الحديثة للشجرة المقطوعة.

دخل الخشب في يديه، واخترق قدميه، قطع وريد وشريان رقبته، أدمى جوانبه بجروح بليغة. فجّر من جسمه تياراً من الدماء دُوِّم في المجال اللولبيّ للمستنقع. يصبغ القلب الأسود بالاحمرار. انتقل إدي إلى هذيان بين النائم والصاحي. وحين غطّى المدّ أصابعه، يديه، رأسه، أتت آنا ماريّا في الليل، بين الأوكاليبتوس. لم تكن من ضيّعها السرطان، بل آنا ماريّا التي أحبّ. المرأة، السمراء والرّيانة وممتلئة الثديين. متقوّسان في الليل تحت دفع جسمه، والعرق المالح الناتج عن مطارحتهما الغرام يجعلهما زلِقان كالسمك في الماء، سائل يتجمّع، لهثات مرحهما وسرورهما فوق الطرق المتكرر للفولاذ المسحوب إلى لوالب حامية.

فوقه، أيقظته عيناها السوداوان المـُشعّتان. راقبها تصعد نحو ضوء نجم حادّ. شعر إدي بالقاع الموحل تحته؛ شعر بالمدّ ينزلق للتوّ إلى شفته السفلى. ابتعد بنفسه عن الأخشاب، يصرخ من الألم ويستنكر.

انزلق إلى الماء، وصرخ حين كَوَتْ ملوحته جروحه. وصل إلى الزورق، ورمى بنفسه على أرضه، ثمّ جعل نفسه يجدّف في الممرّ الذي عرّضه المدّ. اشتمّ طريقه في الظلام عبر المستنقعات. كان بإمكانه أنْ يشمّ الماء المالح الذي زادت عذوبته خارج الدائرة الملتفّة، وتبع أنفه، والمركب الصغير يجد طريقه بالغريزة عبر الحلقات؛ بالكاد يصطدم بانحناءات أشجار الأوكاليبتوس.

رائحة الملح كانت أقرب. استطاع إدي، من خلال ألمه، أنْ يشعر بالدمغة اللولبيّة فوق قلبه ورئتيه، وتذكّر آنا ماريا وحكّة الندبة تلاشت، هدأت فكأنّ أثر الندبة البارزة الغاضب قد زال، أُفرغ من تيّار الدم الأحمر السامّ.

كعكة عيد الميلاد

مرآب صغير، مصنوع من قصدير وخشب، يقع في نهاية حارة مرصوفة بالحصى الأسود، تتفرّع عن مؤخّرة شارع في "ريتشموند"، وهذا أمر لم يكن مألوفاً وقت الركود الاقتصاديّ الكبير. داخل المرآب، وتحت الوهج البرتقاليّ لمصباح كهربائيّ وحيد، يكدح رجل بتفكيك وتركيب قطع غسّالات وبرّادات مستعملة. هذا كلّ ما هو ملّم به، وكلّ ما قام به منذ أنْ وصل إلى سنّ مكّنته من ترك المدرسة وراء ظهره.

يتصبّب عرقاً تحت أشعّة الضوء البرتقاليّ الضعيفة، على الرغم من الصقيع داخل ذلك الكوخ المعدنيّ. ويبدو أنّ جسمه غير مبال بالبرد، خصوصاً أنّه يرتدي سروالاً قصيراً، وقميصاً قصير الكمّيْن، وفي قدميه سَيْر من البلاستيك، لكنّه ينحني لا تخونه العزيمة في تصميمه على إنهاء إعادة تثبيت أجزاء الغسّالة سويّاً بعد أنْ أصلح محرّكها. الغسّالة تخصّ السيّدة اليونانيّة التي تعيش على مسافة تبعد ثلاثة شوارع عنه. بعد أنْ ينتهي من تجميعها، سيرفعها بمفرده ويحمّلها على عربة يدويّة تنتظر خارج باب الكوخ مباشرة.

تراود بعض سكان ريتشموند فكرة تحيّرهم أو تقلقهم، وهي أنّ العربة يمكن أنْ تسرق طالما أنّها تترك بعيداً عن أنظار صاحبها. لكنّ الرجل، الذي يتصبّب عرقاً فوق الغسّالة، يعرف أنّه من غير الممكن لأحد أنْ يأخذ العربة، لأنّ الناس كلّهم يعرفونه في هذا الجوار، ويحترمونه. الأمر مفروغ منه، بعد مرور خمس عشرة سنة على وجوده بينهم!

العجوز اليونانيّة، التي تعيش على بعد ثلاثة شوارع، تعرف أنّ غسّالتها ستعود إليها وقد تمّ إصلاحها، وتعلم أنّ الرجل سيحضرها محمّلة على العربة، التي سيدفعها بنفسه، إلى عقر دارها. ولن يطلب منها أجرة التحميل والنقل، ولا أجرة إعادة وصل خراطيم المياه، فتستطيع غسل ما تجمّع من ثياب خلال يومين من غياب الغسّالة عنها من أجل التصليح.

تعلم المرأة أنّ الرجل سيقبل بالقليل لقاء العمل الذي قام به في إصلاح الغسّالة. ليس لأنّه ليّن العريكة. يطلب عادة ما يكفي لتغطية نفقات قطع التبديل، وشغله، وما تيسّر لتأمين أدنى حدود الربح. فقط ما يكفيه لتأمين طعامه، ودفع إجرة الكوخ الذي يستعمله لمهنته وإقامته.

يعلم الجيران دائماً متى يستيقظ، حتّى أنّه يمكنهم ضبط ساعاتهم على صوت الطرق القادم من الكوخ. حين يبدأ صوت المطرقة يدوّي فوق المعدن، يعرفون أنّ الرجل نهض من شبه السرير الذي ينام عليه في ناحية من الكوخ. ومع أنّه يبدأ الطرق باكراً، لم يبد أيّ من الجيران امتعاضه، فالكلّ يعلم مدى الحاجة إليه، وضآلة المبالغ التي يطلبها منهم لقاء إبقاء غسّالاتهم وبرّاداتهم صالحة للاستعمال. يرون فيه قدّيساً للسلع البيض المستعملة، رجلاً يبقي على طعامهم طازجاً وبارداً، وثيابهم نظيفة، لقاء لا شيء تقريباً. رجل قليل الكلام، ولا يختلط مع الآخرين، ومع هذا يجعل وجوده كلّه يدور حول مصالح الناس الذين يشكّلون خارطة من الشوارع والحارات في قلب وعقل المُصلّح.

تتدلّى من السقف القصديريّ فوق السرير، كعكة عيد ميلاد ملفوفة بخرقة موصلين أبيض تلطّخت باللونين البنيّ والذهبيّ من فرط حلاوة الفاكهة والكحول التي كانت تتعتّق في قلب الكعكة. هذه هي الهديّة التي يقدّمها له الجيران، فتتناوب نساء ريتشموند في صنع الكعكة وتقديمها للرجل بعد انقضاء نصف السنة. لكنّها ليست جهداً فريداً لأنّ الرجال والنساء، والأولاد أحياناً، يطرقون بابه عبر الشهور المؤدّية إلى موسم عيد الميلاد، حاملين له زجاجات "بورت"، و"رم"، و"شري".

حين يظهر حامل الشراب المسكر عند باب الكوخ، يبتسم المصلّح ابتسامة عريضة، ويتوقّف عن العمل، ويتوجّه نحو الكعكة المعلّقة فوق سريره، ويفكّ الخيط الذي يمسك بقطعة القماش في مكانها، ثمّ يومئ نحو الزائر بيديه القاسيتين من العمل، فيمشي الزائر نحو السرير، ويقف على الفراش الإسفنجيّ الرقيق، ثمّ يسحب فلينة الزجاجة، وبحذر يصبّ الخمر المقوّى على الكعكة العطشى.

يبدو أنّ الكعكة جافّة كلّ الوقت، بغضّ النظر عن عدد الناس الذين يحضرون بزجاجات خمورهم، ويفرغون محتوياتها في كعكة الميلاد. تمتصّ الكعكة الشراب المسكر، وكأنّه دلو ماء مسكوب في صحراء رمليّة. ويقف المصلّح هناك، مبتسماً، يراقب الكعكة تتأرجح من السقف، تنمو ببطء، يوماً بعد يوم. تنتفخ ببطن مليء بالـ"شري"، والـ"بورت"، والـ "موسكات"، وأيّ شيء آخر يمكن لسكان ريتشموند العثور عليه، حتّى لو كان منسيّاً، مخفيّاً في خزائن الشراب، أو تحت الأسرّة، أو خلف الرفوف.

كلّ ليلة، حين يستلقي المصلّح فوق فرشته الإسفنجيّة، بنوابضها الحادّة تنغرس داخل الفراغات اللينة بين فقرات سلسلة ظهره، ينظر إلى الأعلى، نحو الكعكة تتأرجح بصمت فوقه. يشمّ الأريج الصارخ للفاكهة والخمور المعتّقة في قلب الكعكة، وهي كافية لتوقظ فيه بعض ذكرياته. لكنّ رائحة تعرّق الزوّار

وعطورهم هي التي كانت تجعله ينام، تسقطه إلى عالم السبات الذي لا أحلام فيه.

مع اقتراب موسم عيد الميلاد، يزداد عدد الزوّار الذين يُحضرون الخمر المعتّق لأجل الكعكة، نوبة قلق خفيفة تعتري رجال ونساء ريتشموند، سببها الخوف من أنّ الكعكة لن ترتوي أبداً، بل ستواصل امتصاص الخمور. لكنّهم جميعاً يعلمون، كما يعلم المصلّح، من خبرة السنين السابقة، أنّ هذا لن يحدث أبداً. ستصبح الكعكة، في النهاية، مشبّعة بالخمور، وتتساقط القطرات الأولى عن قماشة الموصلين على الفرشة الإسفنجيّة. ثمّ يعلن المصلّح عن توقّف سكب المزيد من الخمور في كعكة عيد الميلاد، وينتشر الخبر على طول شوارع وحارات ريتشموند. لا حاجة لمزيد من الخمر، حتّى السنة القادمة.

عند تلك اللحظة من الإشباع، قبل عيد الميلاد تماماً، يتوقّف الجيران عن إحضار الخمور، ويتأمّل المصلّح في حياته الماضية حين كان يعيش مع والديه في ضاحية أخرى من ضواحي المدينة. يغلق المحلّ، يجلس على السرير، يتجاهل قطرات الخمر التي تترشّح عبر قماشة كعكة الميلاد، تتساقط على ظهره وكتفيه، تلطّخ قميصه الأبيض بلون الدم.

يتذكّر الرجل كيف جعل والداه منه الشخص الذي لا يصلح لشيء، خلقوا منه ابناً من الدرجة الثانية، يمكنهم إلقاء اللوم عليه كلّما أصابهم سوء. كان أمراً عجباً، يفكّر المصلّح، وهو جالس في سريره، أنْ تصبح كبش الفداء منذ نعومة الأظفار. كلّما تعطّل والد الرجل عن العمل في المرفأ بسبب إضراب أو نقص في الطلب، تنزل مسؤوليّة فقر العائلة على أصغر الابنين لأنّه كان يأكل كثيراً. أمّا الابن الأكبر، والابنتان، فلا ذكر لما يقومون به، لا بالنسبة لما أكلوا، ولا ما فعلوا دون حساب.

كلّما جاء جار يتشكى من نافذة مكسورة، أو من ليمون أو برتقال مسروق من شجرات حديقة الدار، كان المصلّح يتلقى اللوم

على الرغم من أنّ والديه كانا يعلمان حقّ العلم أنّ أخاه أو إحدى الشقيتين هو أو هي المسؤولة عن تلك الفعلة.

وجاءت القشّة التي قصمت ظهر البعير خلال سنته الأخيرة في المدرسة، بالكاد قبل أنْ يكمل سنة عمره الخامسة عشرة، وكان متحرّقاً لترك تلك البلاد الغريبة المؤلّفة من الكتب والأقلام والمعلّمين بقوانينهم التي تتماثل في إرهاقها مع قوانين والديه. سبق لوالدته أنْ أعدّت كعكة عيد الميلاد كعادتها، وعلّقتها من سقف المطبخ. كما سبق لها أنْ أصدرت تعليماتها الصارمة بعدم رشّ الكعكة بالمسكرات، فما كانت توافق على الشراب في أيّ شكل أو صفة، وكان على الكعكة أنْ تظلّ محكمة الرباط حتّى يوم العيد لتؤكل جافّة.

لكنّ الكعكة كانت تختفي قطعة قطعة خلال شهور التعتيق، شكراً للعناية الجائعة لشقيق المصلّح وشقيقتيه. وفي يوم الميلاد حين فكّت الأمّ الخيط، وفتحت القماش، انفجرت بغضبها الجهنميّ لأنّ كلّ ما تبقى كان الفتات وقطعاً صغيرة من الخشب وضعها الشقيق والشقيقتان مكان ما اختلسوه لتضليل والديهم.

نزل اللوم على المصلّح الذي بلغ لديه السيل الزبى فغادر المنزل تاركاً وراءه متّهميه الذين لم تقع عليهم عيناه بعدها قطّ.

مضت مدّة قبل أنْ يجد الكوخ في رينتشموند، ومضت سنوات عديدة قبل أنْ تتكرّس سمعته كحرفيّ ماهر معتدل الأسعار. لكنّ المصلّح أصبح جزءاً من المنطقة، ثابتاً من ثوابتها، يمكن تمييزه مثل تمييز الحصى الأسود والرماديّ الذي ترتصف به حاراتها.

يوم الميلاد، يُنزِل المصلّح الكعكة، يفتح القماش، يقطّع الحلوى الهائلة إلى أسافين، ويضع الصحن الحاوي على الكعكة قرب الباب. تحمل النسائم رائحة المسكرات الحلوة فتنتشر إلى أنوف رجال ونساء وبعض أولاد رينتشموند. يصلون زرافات ووحداناً،

تجرهم رائحة الكعكة نحو الكوخ. يقفون حول الكوخ، في الممرّ، ويتشاركون مع المصلّح في تناول قطعة من الكعكة، يتمنون له عيداً سعيداً، ثمّ يغادرون عائدين إلى عائلاتهم، ووجبات عشاء عيد الميلاد التي تُطبخ في أفرانهم. لكنّ يوم المصلّح مليء بالزوّار الذين يغادر آخرهم في ساعات المساء المتأخّرة بعد أنْ يتناول إسفينه، ويتمنّى له عيداً سعيداً.

يذهب إلى السرير، يضطجع، ينظر إلى الأعلى نحو خرقة القماش الفارغة تتدلّى مترهّلة فوق رأسه، لكنّ معدته مليئة بالكعك، وقلبه مليء بالحنان الذي تركه له رجال ونساء وأولاد ريتشموند.

غريغ بوغارتس نشر عدداً كبيراً من القصص القصيرة يركّز فيها على منطقة مدينة نيوكاسل التي يعيش فيها، وهي مدينة ساحليّة صناعيّة تقع على بعد زهاء مائة وخمسين كيلومتراً شمال سيدني. والبلدة "لِمونتري باسيج" (ممرّ شجرة الليمون) تقع شمال منطقة نيوكاسل. نُشر الأصل الإنكليزيّ لهذه القصّة كما يلي.

Lemon Tree Passage, by **Greg Bogaerts**, was published in *Australian Short Stories* No. 53, 1996.

نُشر الأصل الإنكليزيّ لقصّة "كعكة عيد الميلاد" كما يلي.

The Christmas Cake, by **Greg Bogaerts**, was published in the anthology *A House Full of Mirrors*, by The Surf Coast Scribblers, Anglesea, Victoria 2003.

كارمل بيرد

اللّحظة الذهبيّة

قصّة اللحظة الذهبيّة هي قصّة الضواحي الأستراليّة في الخمسينيّات من القرن العشرين. والحيّ الذي تدور فيه حوادث القصّة يشار إليه عادة باسم "المِيل الذهبيّ"، لأنّ عديداً من مدراء المصارف، والمحامين، والجرّاحين، وزوجاتهم الجميلات، وعائلاتهم السعيدة، اتخذ منه مكاناً لإقامته لأجيال عديدة تميّزت بالعظمة والرفاهية. معظم سكّان الحيّ من ذوي البشرة البيضاء الذين يدينون بالمسيحيّة (من النوع البروتستانتيّ). مع العلم أنّ الندرة من العائلات اليهوديّة، أو الروم الكاثوليك، كانت تُعامل بتسامح وإحسان متناهيين، لكنّ العرف السائد كان أنّ صفحة هذه العائلات سوداء لإصابتهم بآفة قويّة غامضة يتعذّر تسميتها. أمّا بيوتهم فتحمل أسماء أُسبغت عليها من قبل من سكنها أوّلاً، وبعض هذه الأسماء يعكس حنيناً دافقاً لأماكن بعيدة، وبعضها الآخر يعبّر عن ولعهم بهذا الوطن الفتيّ أستراليا.

ويطلق على أسلوب العمارة "فيدرايشن"، أي "الاتحاد"، تكريماً لمولد الدولة بشكلها الحديث. والأشجار والأزهار أوروبيّة عموماً. وفروع السنديان والدردار على كلّ جانب من الطريق تكاد تمسّ الفروع على الجانب الآخر، بحيث أنّه في الصيف يتقوّس نفق سحريّ أخضر فوق حركة المرور، ويأتي الناس بسيّاراتهم من ضواحٍ أقلّ جمالاً ليندهشوا من روعة الأشجار المصفوفة على طول الميل الذهبيّ.

اللحظة الذهبيّة هي وقت من اليوم محبّب للمصورين، بعد العصر، حين يغسل ضوء النهار العالم في آخر ومضة إشعاع، عند الجنّة الموعودة، عندما تقف الأشياء كلّها بلا حراك، عند تلك اللحظة بين الضياء والظلام، حينما يمكن أنْ تظهر للعيان الجنيّات والعفاريت والأرواح الأخرى.

اللحظة الذهبيّة في الميل الذهبيّ واحدة من عجائب الطبيعة.

على شرفة منزل كبير عتيق يدعى "ليْلَك"، في هذا المكان المزدهر من المدينة الأستراليّة، تجلس امرأة. ترتدي ثوباً مُزَهّراً كالذي ترتديه الجدّات عادة، وتسترخي على أريكة من قصب. الوقت وقت سلم، في منتصف الخمسينيّات من القرن العشرين. طبعاً، هنالك حرب باردة، لكنّها لا تطرح أيّ ظل، ولا تلقي أيّ ندفة ثلج على شرفة ليْلَك في دفء شمس الصيف من بعد ظهر ذلك اليوم. ممرّات، أحواض زهر، شجيرات، أشجار، كروم، وحائط، هي ما يفصل الأرض التي يقوم عليها هذا المنزل عن الأرض التي يقوم عليها المنزل المجاور المسمّى "سانتافيه". وينبّه اسم "سانتافيه"، الأجنبيّ الدخيل، الزائرين والغرباء إلى حقيقة أنّ شيئاً من الاختلاف يميّز هذا المكان.

لهذا تشرق الشمس في هذه القصّة، وتطنّ النحلات، وترفرف الفراشات. يخيّم سديمٌ من السعادة الحالمة حول حديقة ليْلَك.

تشرب المرأة "جين" مخففاً، مع الليمون والصودا، تقرأ كتاباً، رومانسيّاً.

طق! طق! هذا صوت الشباب والشّابات يلعبون التنس في الملعب في حديقة سانتافيه. ضحك، صراخ، طق! طق! شجرة "رودودیندرون"، ضخمة أكثر من الخيال، بزهيراتها الورديّة الألماسيّة، المهدّبة الكثيرة، تنمو بين سانتافيه وليْلَك. يحتمل أحياناً، من خلال الفراغات المحبوكة بين الأوراق، أنْ ترى وميض

تنّورة بيضاء مكسّرة تنطوي للأعلى، وتلفت النظر.

في القصّة الرومانسيّة التي تقرؤها "المرأة الليلكيّة"، يحدّق الرجال والنساء إلى أعين بعضهم الآخر. يقبّل بعضهم الآخر، ويسبحون ويرقصون على الشرفات عند الشفق. كليك! التقط أحدهم صورة لبعض الفتيات، وبعض الصبيان، فيما كانوا يقعدون في الظلّ، قرب ملعب التنس في سانتافيه. المرأة على الشرفة لا تستطيع سماع صوت الكاميرا، لأنّه على قدر من الضعف لا يمكّنه من السفر عبر المسافة بينها وبين لاعبي التنس. ضجّة الببغاوات في إحدى أشجار الأوكاليبتوس تغطّي كلّ الأصوات. مئات من الطيور الخضر، بخدود ورديّة، تتغذّى على الشجرة بحيويّة وتناغم شديدين، تزيّن الأغصان وكأنّها طيورٌ محنّطة صغيرة برّاقة على شجرة عيد الميلاد. ثمّه خاصّة غريبة لذلك الصدى الصادر عنها وهي تزعق وتغرّد سويّاً، فيبدو أنّه قادر على دخول الأذن، وغزو العقل، وملء الرأس. فإذا ما أغلقت ليْلَك عينيها، يمكنها الإحساس بغياب دماغها حين تعشّش تلك الصيحة الجماعيّة من اللذة، والطمع، والسرور، في تلافيف قحفها. حبور الحياة الأخضر الورديّ.

ربّما كانت هذه هي الجنّة. لربّما التقط لاعبو التنس، لتوّهم، صورةً للجنّة حيث تشرق الشمس، وتغنّي الطيور، وتطنّ النحلات، وتزدهر الورود، وتقرأ النساء، ويتعانق البطل والبطلة، ويلعب صبيان وصبايا التنس، بحللهم البيض.

تنهي المرأة القراءة، تغلق الكتاب حين يتألّق الغروب فوق مخيّلة الشاطىء الذهبيّ. وللحظات قليلة تحوم المرأة ضمن ممرّ بين الغروب على الشاطئ وضوء الشمس الذي يلطّخ الشرفة. بعدها يذوي البطل والبطلة والشاطئ، وتسمع المرأة الطقطقة— حين تصطدم الطابة بالمضرب. تبدأ المرأة بالتفكير في الفتيات اللاتي يلعبن التنس، اللاتي يقطنّ خلف وشيع سانتافيه.

قطّة بيضاء تطوف في ظلال ليْلَك. كلب أسود يراقب

التنس في سانتافيه. في كلّ حديقة بركة للأسماك الذهبيّة، ومعرض للزهور.

تفكّر المرأة على الشرفة بالفتيات في سانتافيه— روز، فيرونيكا، ماريون، كلير وأرورا بلاكوود. أرورا، أصغرهنّ، ولدت دون أصابع يد. وهي الآن في عطلة من مدرستها الداخليّة التابعة لأحد الأديرة. وهنالك إشاعة أنّها سترتدي الحجاب، وتعتزل العالم، وتدخل في سلك الرهبنة.

ولدت أرورا قبيل الحرب عام 1938. نوع من أعجوبة مدهشة، الصورة الكاملة لطفلة بأغرب يدين مثلّثتين صغيرتين، وأحلى مزاج. تميّزت بالفطنة، وبصوت غنائيّ ساحر. كانت دائماً ترتدي قفّازات مصنوعة من نسيج رقيق محبوك، أو من الجلد، أو الحرير. وتلوّح بيديها وكأنّهما كيسا خزامى. عشرة أصابع على القدمين، بالتمام والكمال. أسنان. لفائف شعر ذهبيّة. ذاكرة بحجم الفيل. عادات حميدة. سبّاحة رشيقة ممتازة.

كلّهم تساءل كيف حدث هذا، ولماذا حدث. أشيء في الماء، في الطعام، في الأدوية، في الهواء؟ هل كان السبب فراء قطّة، شعر كلب؟ نقْص في ضوء الشمس، التمارين، الفيتامينات؟ هل كان نتيجة لأفكار سيّئة؟ أم رؤية قفّازات صيّاد سمك في لحظة غير مناسبة؟ أمواج الراديو؟ النجوم؟ القمر؟ صدمة، ضجّة مفاجأة رهيبة؟ رياضيّات أم جيولوجيا؟ كهرباء، سحر؟ هزّه رجّت الأرض تحت سانتافيه في لحظة تكوّن اليدين؟ أم هل كانت حشرة؟ الحرب؟ وبالطبع فكّر الناس، وأحياناً تهامسوا، حول إمكانيّة العامل الوراثيّ. لكنّ هذه الفكرة استبعدت بسرعة. أربع فتيات كاملات— وبعدها تتساقط الأصابع؟ ما كانت هذه الصفات في أصل السيّد بلاكوود الوسيم وزوجته الجميلة. الغرائب تحدث. إنّه القدر، النجوم، الكواكب، الحشرات، الحرب.

قال طبيب موهوب متنبئ، صديق للسيّد بلاكوود، إنّه إذا حدث شيء مثل هذا في المستقبل، فمن المحتمل أنْ يكون

بالإمكان إعادة بناء، وإنتاج، واستعادة، وزرع، وتنمية الأصابع. قال أشياء مدهشة مريعة حقّاً— إذا مات طفل آخر وفرضنا أنّه بالإمكان مستقبلاً أنْ نزرع أصابعه، كما نطعّم النبات، على يد طفل مثل أرورا. تخيّل. معجزة!

لهذا يمكن القول إنّ أرورا بلاكوود ولدت قبل الأوان، أم هل كان هذا في الوقت المناسب تماماً؟ ففي وقت لاحق من القرن نفسه كان بإمكانها الحصول على البراجم، والعظام، والمفاصل، والأوتار، والعضلات، والأوعية الدمويّة، وأيّ مادة أخرى تلزم لصناعة يدي الطفل، وتحويلها إلى يدي عازف كمان في أوركسترا.

لكنّ هذا يستلزم جلد أرورا بالذات، ناعم مثل مؤخّرة الطفل. خذ الجلد الحريري الصقيل من مؤخّرة أرورا واصنع لها زوجين من القفّازات. هذه القفّازات الرائعة، سيّداتي وساداتي، صنعت من جلد مؤخّرة طفل، ويمكنها أنْ تنطوي وتدخل ضمن قشرة جوز. تنطوي، تلتفّ، تضاعف حجمها بكلّ سرور. وانظر أيضاً معجزة عازفة الكمان الصغيرة. يداها تعزفان السوناتة، بينما يسرح ذهنها بكلّ حريّة.

أخذو أرورا إلى لوردز. ذهبت العائلة كلّها. ويبدو أنّ مسألة نموّ الأصابع، أو الأرجل، أو الأنوف، أو الآذان، بعد لمس المياه الإعجازيّة هناك، أمر مسموع عنه. لكنْ لم يحدث أيّ شيء في هذه الحال. قامت العائلة برحلة قصيرة عبر القارة. الحرب كانت على الأبواب. زاروا أقرباءهم في فرنسا. سيليسته بلاكوود، الوالدة، نصف فرنسيّة. هل كان سبب توقّف اليدين عن النموّ قبل مرحلة الأصابع بقليل فرنسيّاً؟ تسلقوا برج إيفيل، أضاؤوا الشموع في كنيسة نوتردام، وصلّوا بحرارة في كاتدرائيّة ساكركور، وفي حضرة البابا في الفاتيكان. جسر التنهّدات. الغوندولا. أوّل سفينة عائدة إلى الوطن. الحرب.

حين ذهبت أرورا إلى الحضانة، تعلّمت القيام بأشياء لدائنية رائعة، وعاملها بقيّة الأطفال بلطف كبير. كانت راقصة

ومغنّية. تلك أيّام كانت قبل اختراع الدّهن بالأصابع. كانت تجيد استخدام الطباشير وأقلام الشمع، تثني يدها الصغيرة لترسم خطوطاً رائعة على الورق. كلّ ألوان قوس القزح، وبعض الخطوط السوداء الجميلة العريضة اللميعة. وحين بدأت تكبر، توضّح أنّ الفنّ هو ما ترغب. رسمت ولوّنت. ألوان مائيّة، زيتيّة، باستيل، فحم. صنعت صوراً لبيوت في الشارع، وباعتها للمالكين. وكم من جدار في مكتب حمل لوحة باسم "منزلنا بريشة أرورا بلاكوود". وصنعت أيضاً بعض القدور والألبسة المطرّزة. وليتك رأيت السرعة والمهارة اللتين ميّزتا الطريقة التي كانت تجدل بها شعرها.

المرأة على الشرفة في ليْلَك تفتكر بكلّ هذا وهي ترفع نظرها عن كتابها، وتسمع الشباب والشابات يلعبون التنس. تسمع خليطاً من الأصوات عبر ضجّة الطيور في شجرة الأوكاليبتوس. يمكنها أحياناً أنْ تتلقّى طرقة الطابة على المضرب، رنّة الضحك، صلصلة قطع الثلج في كأسها، خشخشة سحليّة على الأوراق اليابسة، قفزة طائر، نفحة ريح: سلامٌ وحسن نيّة، وقريباً يأتي عيد الميلاد. الهاتف يرنّ في القاعة. يقع كتاب القصّة الرومانسيّة حين تنهض المرأة - ثوبها أخضر وبنفسجي، وصندلها أبيض - عن المقعد القصب. تزيح شعرها عن جبينها، وتذهب إلى القاعة حيث تجيب على الهاتف. المتكلّم جارة من منزل عبر الشارع يسمى "واراتاه". هذه الجارة عادت مؤخّراً من رحلة خارج البلاد.

'يجب أنْ أزورك لأحدّثك عن الرحلة. الفندق الذي اقترحته في لندن كان رائعاً تماماً، وقابلت متقاعدة من شلسي في الطريق.'

'تعالي الآن. أُحضّر بعض الشاي، ولديّ نصف كعكة موز من البارحة.'

'لا تتعبي نفسك.'

’لا تعب على الاطلاق. تعالي بالتأكيد. أرغب السماع عن أخبار الرحلة، وأهلاً بك في وطنك.‘

امرأة واراتاه تجلس على الشرفة مع امرأة ليْلَك، تتجاذبان أطراف الحديث، وتغوصان في ذكريات الجزر البريطانيّة وفرنسا. ’ذهبتُ إلى متحف اللوفر وشاهدت الموناليزا. تبضّعت في شارع سانت أونوريه. ما استطعت الحصول على فنجان جيّد من الشاي، لا بالمال ولا بالدلال. أحضرت لك هديّة صغيرة من إسكتلندا.‘

وتناول سيّدة ليْلَك دبوساً للزينة بلون الدم.

’لطيف منك. هذا من الأشياء الأثيرة لديّ.‘

’إسكتلندا مليئة بأزهار رودوديندرون، ولكنْ لا يقارن حجمها مع حجم أزهارك.‘

’تكاد تنتهي هذا الموسم. بنات بلاكوود يستقبلن بعض الضيوف للعب التنس.‘

التُقِط كثير من الصور في حديقة سانتافيه في هذا العصر السعيد. أورورا في البيت وهنالك زوّار، صبيان وبنات يرتدون الأبيض، وجوههم حرقتها الشمس، وعيونهم وخصلات شعرهم لامعة. الكلب الأسود يلتقط كرة التنس في فمه. كرة أخرى تُضْرَب، وطق! يستمرّ اللعب.

حليب وسكر وكعك الموز.

’حسناً، ليْلَك يا عزيزتي، لديّ حكاية أرويها لك. فكّري بهذا. شيء حدث. أجلب لك أخباراً غريبة، نوعاً من الإلهام من باريس. لن تصدّقي هذا. أنا نفسي بالكاد صدّقت عينيّ وأذنيّ. كان الطقس بارداً. كنت محصّنة بملابسي السميكة، وليس من طبعي عادة أنْ أطوف في الكنائس، لكنّني كنت أبحث عن مكتب للبريد ـ من المستحيل تقريباً إيجاد واحد ـ وكما قلت لك، كان الطقس بارداً، قارصاً. كنت في شارع دوباك، وكانت هناك كنيسة كبيرة قديمة. أعلم أنّ هذا سيبدو غريبا، لكنّها، أعني الكنيسة، بدت

وكأنّها تشير إليّ بطريقة ما، وكأنّها تقترح عليّ أنْ أدفع الباب وأفتحه وأدخل. كما تعلمين نحن نتبع الكنيسة الإنكليزيّة، ولا يمكن للمرء أنْ يشعر أنّه يدعى لكنيسة أجنبيّة، ويخرج في البرد ببساطة. ليس عادة. لا أستطيع تفسير هذا، لكنّني دخلت. وكانت في الواقع جميلة؛ الجدران مطليّة بالأزرق، والنجوم تزيّن السقف، وجداريّة رائعة يغلب عليها، حسب ظنّي، الأسلوب الإنكليزيّ، كانت مجرّد مريم العذراء وبعض الملائكة، لكنّها جذّابة بطريقتها الخاصّة. شموع مضاءة، مئات من الشموع، في مماسك صغيرة.'

'تناولي مزيداً من الكعك.'

'كان داخل الكنيسة أشدّ دفئاً بكثير من الخارج. الناس يركعون ويصلّون، وثمّة امرأة ممدّدة على الأرض بطريقة مغالية. لكنْ كان هناك سُوّاح آخرون ينظرون فقط. إنّها كنيسة المعجزات، كما تلاحظين. هذا كلّ ما في الأمر. والجداريّة تحكي عن ميداليّة سحريّة قُدِّمَت لقدّيس. وهكذا جلست مع ما أحمل من رزم. طبعاً لم أجد مكتب البريد، وأخرجت دليلي السياحيّ لأجد بعض المعلومات عن الكنيسة.'

'مزيداً من الشاي؟'

'وجاءت راهبة عجوز صغيرة الحجم فجلست إلى جانبي. كانت فرنسيّة بطريقة مدهشة، مجللة بالسواد، فخلتها ساحرة من قصّة خرافيّة. وكان هنالك عطر طيّب حولها. شعرت بالإحراج، لركوعها للصلاة قريباً منّي جداً. أمّا أنا فكنت أحدّق إلى الأشياء من حولي، وأحاول الحصول على الدفء، لا أكثر. تحرّكت إلى الجانب فرفعت رأسها، واستدارت نحوي، ونظرت في عينيّ. أرجو أنْ لا تعتقدي أنّني اختلق هذه القصّة. كان لها عينان زرقاوان صافيتان، تلمعان، وبدت كثيرة التجاعيد وحكيمة وعالمة. تماماً كساحرة، كما قلت، بذراعيها الملتفّتين ضمن أكمامها بدقّة. ثمّ تكلَّمتْ. كدت أموت. كنت محرجة جدّاً. فأنا لست متعوّدة على الكلام في الكنيسة. وتكلَّمتْ بالإنكليزيّة. دون لَكْنة على الإطلاق.

"أنت زائرة،" قالت. قلت "نعم." فرحّبت بي إلى باريس، وسألتني إذا كنت استمتع بها ومن أين أتيت، وأخبرتها. ثمّ - لن تصدقي هذا - ثمّ سألتني إذا كنت بطريقة ما أعرف عن ابنة أخيها سيليسته بلاكوود، فلم أصدّق أذني. نعم، قلت. أنا جارتها التي تقطن عبر الشارع. وقالت الساحرة العجوز، يا لها من مصادفة، لكنْ لم تبدو عليها أيّ علائم للمفاجأة. سألتني فيما إذا تلطّفتُ ونقلت حبّها وبركاتها إلى ابنة أخيها. شعرت أنّه بامكان ريشة أنْ تطرحني أرضاً. قلت سأفعل، لكنْ الآن وصلنا إلى قسم مرعب، فلا أعلم إذا كان بإمكاني نقل أيّ شيء من حديثها إلى سيليسته على الإطلاق.'

ظلال العصر يزيد طولها، والنسيم الذي يداعب أوراق الكرمة على الشرفة بارد. عادت القطّة البيضاء إلى المنزل طلباً للغذاء والراحة. أزهار الرودوديندرون فقدت بريقها. خيّم السكون على الحديقة في سانتافيه. ثمّ سُمع صوت شابّة تنادي: 'ليقف الكلّ هنا لالتقاط صورة أخيرة فقط، تمام، إنّها اللحظة الذهبيّة.'

ويستحمّ المشهد لفترة وجيزة بالوهج حين تعلن آخر ومضة لضوء النهار عن وصول الغسق. يطقطق مصراع آلة التصوير بحدّة عالية، وتُلتَقط آخر الصور.

تتابع سيّدة واراتاه: 'والجزء المريع هو ما يلي. أقسم أنّها الحقيقة. جمعت رزمي وودّعتُ الراهبة. أخرجَت يديها من كمّي ردائها. وليْلَك يا عزيزتي، ما وجدت عليهما أيّ آثار للأصابع. اليدان تماماً مثل أرورا المسكينة. بالضبط. من الواضح يا ليْلَك أنّ الأمر وراثيّ. تتساقط الأصابع لسبب ما، ويضعونهنّ، أعني الفتيات، في الأديرة، في بلاد أجنبيّة، في محاولة لإيقاف هذا المصاب. لكنْ بالطبع لا يمكن ذلك. هنالك نكسة دائماً. يا له من أمر مأساويّ.'

تتفتح عينا ليْلَك بسرعة الدهشة التي اعترتها وتتمالك أنفاسها.

'لا أصدّق ذلك. بصراحة، لا يمكنني تصديق ذلك.

أعذريني، ولكنْ هل أنت متأكّدة أنّك لم تحلمي بهذا الأمر. أمر بعيد الاحتمال، والسفر يوسّع المدارك، ولا بدّ أنّه يحتال على المرء بتأثير ضوء وهواء البلدان الأجنبيّة.'

'رأيت كلّ ذلك بأمّ عيني، ومتأكّدة بقدر تأكّدي من جلوسي قربك الآن.'

'إذاً لا بد لك من إخبارها. انقلي إليها الرسالة وادّعي بأنّك ما رأيت شيئاً، وأنّ الراهبة لم تخرج يديها من أكمامها. عليك فقط نقل الرسالة، البركات، الحبّ، تناسي ما رأيت. تخيّلي أنّك تخيّلت المشهد.'

'كيف يمكنني ذلك؟ وكيف يمكنني نقل الرسالة دون أنْ تتغيّر تعابير وجهي، بعد كلّ هذا الذي أعرفه. الأمر عائد لعائلة سيليسته. لا يمكنني النظر في عينيها. ستعلم أنّني أعلم، مهما قلت. كان ذهابي إلى الكنيسة صدفة لا يزيد احتمال حدوثها عن واحد بالمليون. لماذا كان عليّ القيام بذلك؟'

ليْلَك صامته. ليس لديها جواب عن هذا السؤال. وجد القلق طريقة إلى محادثتهما على الشرفة.

ذهب الضوء، ومرّت اللحظة الذهبيّة. وآخر لقطة للاعبي التنس سُجلت على الفيلم في آلة التصوير، بعد أنْ أشعلتها آخر رشّة سحريّة من الضوء. آخر صورة. تجمع المرأتان اللتان على الشرفة الفناجين والصحون، وتدخلان المنزل، فيما الظلام، وكأنّه نسيج عنكبوت طريّ، يغزل طريقه عبر الحدائق، يربط بين ليْلَك وسانتافيه تحت حجاب طيلسان الليل المندفع.

كارمل بيرد قاصّة وروائيّة ومحرّرة أستراليّة، مولودة في تسمانيا. عملت في التدريس لمدّة طويلة. سبق نشر الأصل الإنكليزيّ لقصّة "اللحظة الذهبيّة" كما يلي:

The Golden Moment, by **Carmel Bird**, *Australian Short Stories*, 1995, No. 50, 137-144.

بام جيفري

جايمس دين والأحلام القديمة

لو كُتب له العيش، لربّما كان اليوم أصلعَ بديناً. لكنّ المنيّة وافته وهو في الرابعة والعشرين من عمره، حين انحرف بسيّارته الـ"بورش" الفضيّة انحرافاً تامّاً نحو سيّارة أخرى في ضاحية من ضواحي سالييناس بكاليفورنيا عام 1958 فأصبح بذلك القدّيس الراعي للشباب. فلسفته التي ورثوها عنه: 'عش سريعاً، مت شاباً، ولتكن جثتك حسنة المظهر.'

الشباب جميل. ومجرّد المحافظة على هذا الشباب في لقطة تصويريّة، هو بحد ذاته معجزة صغيرة، تكشف عن أشياء ما سبق لنا معرفتها عن أنفسنا: بثرة ما، الزغب فوق الشفة، الحاجبان الوحشيّان، وقلّة الكياسة ما هي ذات شأن. كنّا جميلين: كنّا شباباً. الحيويّة واضحة على الوجه، والأمل جليّ في العيون.

الرجل الذي يظهر دائماً في صوري، هو شخص تزوجته منذ ست وثلاثين سنة. أصابه الكبر بسرعة تقلّ عن السرعة التي أصاب بها زوجته. قوامه صبيانيّ ولا زال لون شعره بنّيّاً، بينما أبدو أنا في الصور وكأنّ هالة تحيط برأسي أو أنّني صلعاء، حسب توجّه الضوء. في الصورة أمْ في القلب، يبقى أكثر شباباً من الآخرين. اعتاد على ذلك.

سُرّح اليوم من عمله. وخلال ساعات صار وجهه عتيقاً بالفشل. رئيسته، امرأة تصغره بعشرين عاماً، فضّلت أنْ يضمّ مكتبها مجموعة من الإناث فقط. عمره، وربّما حسن سلوكه،

تسببا لها بالانزعاج. لم تتوفر لديه السرعة المطلوبة. يهزّ رأسه حين يخبرني بذلك. 'قالت إنّني لا أستطيع الطباعة.'

كان منصبه رفيعاً، فلماذا يجب أنْ يطبع؟

'لا، ولا يمكنك الرقص أيضاً، وهذا ما قضّ مضجعك من قبل.'

لم يكن قد بلغ الثامنة والخمسين حين قالوا له، 'لا تأت يوم الإثنين.'

نجلس ونتحدّث ونتذكّر كثيراً من أيّام إثنين قضينا عليها، الديون، الاستثمارات السيّئة — "غرين غولد"، "30 واط"، "لاتيك". يومها كنّا أكثر شباباً. وعزّينا نفسينا بأنّنا لم نكن من الخاسرين، وإنّما بكلّ بساطة من المكتسبين للخبرة. ولكنْ كم من الخبرة نحتاج؟

لا شكّ أنّه تمتّع بالخبرة الكافية ليقوم بعمله. ولربّما هذا هو سبب المشكلة. هل شكّلت خبرته تهديداً لها؟ يُخرج من محفظة جيبه صورة تذكاريّة لمكان العمل، التقطت منذ أسبوعين حين التحق بهم. 'أنا فاشل،' يقول. ووجهه يتحرّك من جانب لآخر. 'جيّد أنّني احتفظت برسالة مكتب التوظيف الفيدرالي، الرسالة حول فيما إذا لم يستمرّ توظيفي...' يخمد صوته، ثمّ يعود. 'عليهم البائنة...' فهذه النقود كانت حافزاً حكومياً لتوظيفه. سبق له البطالة لمدّة سنة.

كانت تلك الوظيفة خَلاصه، فرصته الأخيرة لتعويض مافات. أولادنا بالغون وتركوا المنزل. أسنانهم قويمة، أجسامهم قويّة، وعقولهم مثقّفة. وكان هذا مايجب أنْ يكون زماننا نحن.

أنظرُ في وجهه العتيق و'أغضب في وجه انحسار الضوء.' كيف تجرّأت أنْ تجعله يحسّ أنّه طاعن في السن، عديم النفع! من أعطاها كلّ هذه القوة؟ كانت رئيسته. هي التي تدفع له. أنا مجرّد زوجته.

'أنت الرئيسة،' يضحك ويقول لي. كانت تلك أكبر

أكاذيبه. بإمكانه دائماً أنْ يتغلب عليّ ويقهرني بمجرّد المثابرة.

'الماء يحتّ الحجر!' سبق أنْ صرخت هذه العبارة في وجهه كثيراً.

'سأنتقم منها جزاء ما فعلت.' وجدت نفسي أقولها بصوت مرتفع.

يحاول أنْ يضحك. واه – واه.'الانتقام شأني يقول الربّ! أنا الذي سيردّ لها الصنيع.'

'حسناً، تعرفني يا حبيبي.' أقول له. 'أنا مساعدة من مساعدات يسوع الصغيرات.' لابدّ أنْ أؤكّد له أنّني أؤيّده.

أتمنّى أنْ أنتقم منها. أواجهها في المكتب، أحدّثها بما فعلت. مرّة ما. فقط لو كنت أنا أصغر سناً، وكان هو لا يغلط. الآن أدير ظهري إلى العواطف التي تسمّ القلب والفكر. أحضر له القهوة، وأقسم قطعة من الحلوى كنت أحتفظ بها لعيد الميلاد، لكنّني أطلق العنان لنفسي بضع لحظات. يأمر عقلي بوضع طنّ من غائط الدجاج على عتبة بيتها، وإرسال متعرّية بدينة لمكتبها، ونشر تهنئة بعيد ميلادها الخمسين في صحيفة الهيرالد. ربّما يكون في هذا بعض ما يتدبّر أمرها.

لا زالت الصورة بيده. آخذها منه فيما نحتسي قهوتنا، وأرى التوتّر على وجهه الذي في الصورة.

'لا،' أقول له، 'هذا ليس أنت.' أُحضر علبة كبيرة من القصدير عليها صورة لدار بلدية نيوكاسل – مضاءة لأوّل مرّة. أنقّب داخلها كالقطّ الذي يطارد الفئران. 'أُنظر.' أقول له. 'هذا أنت. وهذا. أُنظر. خذ هذه. جايمس دين إلى ت. 'هذا ليس أنت.' أمزّق صورة المكتب نتفاً.

مرّت السنين بتعاقب الشواء أيّام الأحد، والزمن يقاس بالولادات، والوفيات، والوظائف الجديدة. هذه الليلة أدندن أغنية "موون ريفر" في المطبخ، فيما يتحمّص الخبز في الفرن، وكلّ وجوهه في تلك الصور القديمة تأتي إليّ: ابن، عاشق، زوج، أب.

يومها كان متحصّناً بشهرته الخالدة.

أُعدّ المائدة وأطلق الفكاهات القديمة.

'غداً سيكون أفضل،' أقول. 'هكذا تقول بيت سميث.' ولكنْ ربّما لا. غداً يكون الألم أقلّ وقعاً. سيكون الاعتراف، والتسجيل على معاش الإعانة الحكوميّة من جديد. سنأخذ رقماً، ونجلس على مقعد مع وثائق تثبت هويّتنا، مع كلّ أولئك الآخرين. في الأيّام التي تلي ذلك، ستصلنا المغلفات ذات النوافذ كلّ أسبوعين. سيبحث عن عمل في الجرائد، يكتب الرسائل، وينتظر ساعي البريد، ويسابقني إلى الهاتف. ولن تكون هناك أيّ وظيفة، لكنّ الحديقة موجودة دائماً، والأحفاد، والأعمال المتفرّقة التي يمكن أنْ يؤدّيها للأصدقاء.

نذهب للنوم. في الماضي كان يستجيب لذراعي بشوق. وكان الحبّ يوماً دواء كلّ علة. الليلة يدير ظهره. فالفشل في هذا أيضاً سيكون أكبر من احتماله. التفّ بجسمي حول جسمه على شكل حرف s طويل، كسول، وألقي بذراعي على وركه. هذا يكفي.

يدمدم في نومه بينما أقوم بمعجزات حسابيّة في ذهني. يمكننا بيع هذا المنزل بسهولة. ملائم جدّاً. قريب من مركز المدينة. وربّما نبني منزلاً مزدوجاً... نشتري في الضواحي الخارجيّة... المنازل هنالك أرخص...

نتمدّد سويّاً، المتفائل والواقعيّة. نحن الأحياء. غداً نخطّط للمستقبل، وربّما نشرب نخباً، ونخب جايمس دين والأحلام القديمة. سوف نضحك ونغيّر فلسفته الطفوليّة لتتلاءم معنا. ذلك عظيم لمجرّد أنّنا على قيد الحياة، ولأنّنا نشيخ معاً.

تشارلي صديقنا "اللدود"

'رأيتُ تشارلي البدين في السوق هذا اليوم.'

ارتشفت ماريا بعضاً من الشاي، ثمّ بدأت بجمع ما تناثر من ذرّات السكّر على الطاولة برأس إصبعها الرطب، مشكّلة بها كتلة واضحة المعالم.

'حقّاً؟' أجبتها، وانتظرت المزيد من روايتها. فركت إصبعيها سويّاً، ليتناثر السكّر فوق صحن الزبدة والخبز أمامها. أختي تحبّ التروّي.

أنا أتذكر تشارلي بالطبع. كان لعنة طفولتنا، ودوداً دائم الابتسام، ودائم الحضور. كان أكبر منّا، ينتمي إلى تلك السنّ التي هي "بين بين"، والتي يتّصف بها الأطفال ذوي "الاحتياجات الخاصّة". يمكنني الآن تصوّره في سروال "السكّة الحديد" الأسود مع الأساور الجلديّة، والقميص مفتوح الياقة، يجهد في صعود الهضبة حاملاً حقيبته الغلادستونيّة، يقبض بأصابعه على "مذكّرته" بشدّة.

كنّا نعتقد أنّه كان "مختلفاً" عن غيره بأكثر من طريقة! كان مغرماً بنقل رسائل والدته والجيران، كما كان مخزن "ادفع واحمل" المفضّل لديه. يجلس فيه على مقعد "بسكويت آرنوتس" وكأنّه يجلس على عرش، يهذر ويهزّ برأسه أمام السيّد أوينز، حين تكون طلبيّته قيد التحضير. ثمّ يساعد في توضيب البقالة في جراب له جيوب جانبيّة يضع فيها ما تبقّى له من نقود، ويغلقها بزلق زمامها بكلّ مايمليه عليه ضميره. حتّى أنّه كان يحبّ رائحة نشارة الخشب المشرّبة بزيت الكاز، والتي كانت تُنثر لتنظيف الأرض الخشبيّة. ينتظر البقّال، بمريلته البيضاء، يكنس النشارة ويجمعها في كومات مغرية عند نهاية النهار. بعد هذا، لا يستطيع

تشارلي مقاومة رفس تلك الكومة وهو في طريقه خارج المخزن. ثمّ يتوقّف ليقف أوّلاً على ساق، وبعدها على الأخرى، فيمسح رؤوس حذائه المرقّطة بنشارة الخشب على الجانب الخلفيّ من ساقي سرواله، وهو يستمع بتودّد، ورأسه مائل إلى جنبه، لتأنيب البقّال الذي لا يخلو من الدعابة الجميلة، ثمّ يدور بالباب الدائريّ عدة دورات سريعة "طلباً للحظّ السعيد"، وينطلق عائداً إلى المنزل.

كان ينتقل بكلّ طيبة خاطر وانشراح صدر، من النقطة "ا" إلى النقطة "ب"، دون أنْ ينحرف عن طريقه المقرّر، إلى أنْ يتمّ مهمّته المحدّدة، على الرغم من أنّ عينيه كانتا أحياناً تحدّقان بشوق كلب "سبنيلي" إلى أولئك الأولاد الذين يلعبون كرة القدم في قطعة الأرض الخاوية. يعود بعدها لمشاهدة اللعبة.

كانت أمّنا تأمرنا قائلة: 'ترفّقا بتشارلي!' هذا حينما كان يقف في الزاوية مستنداً إلى عمود التلغراف، أو يجلس على قارعة الطريق حاملاً غصيناً يرسم به في الوحل، متأمّلاً أنْ ندعوه للمشاركة في ألعابنا. وكنّا نتشكّى: 'آه يا أمّاه! يحوم حولنا كالذبابة السروء.' على كلّ حال ما كان لنا مخالفتها، وكان تشارلي يصاحبنا أيضاً، على الرغم من أنّنا كنّا غالباً ما نسرع فيتخلف عنّا بعيداً. بعيد عن العين، بعيد عن البال.

'يمكنكم ياجماعة أنْ تتعلموا عبراً كثيرة من تشارلي – فهو لا يسيء لأحد قطّ.' كنّا نحفظ ذلك ظهراً عن قلب، ونردّد معها العبارات نفسها ونحن نتراجع. واعترفت أمّنا بعد سنوات أنّه كان من السهل عليها اعتماد الرأفة، وأنّها كانت سعيدة بأنّ مسؤوليّة تشارلي لا تقع على عاتقها.

لكنّه كان أحياناً أعطية إلهيّة. كان يمسك بيده طرف حبل غسيل قديم، رُبط طرفه الآخر إلى سور الحديقة، ويدوّره لنا دون كلل أو ملل. كنّا نلعب كلّ أصناف الوثب: "إفرنسيّ وإنكليزيّ،" "ملح، خلّ، بهار،" "سمكري-خيّاط،" – كلّها واحد بالنسبة له. ما عرف ذراعه الكلل أو الملل أبداً، ولم يبد أيّ رغبة في المغادرة. كان

يقول: ‘أنا لا أقفز جيّداً.‘ كنّا نوافق. ما كان يقفز جيّداً.

كان يُعدّ لنا صفائح الدخان القديمة فيملؤها بالرمل، ويحكم إغلاقها بالطرق على أغطيتها بحجر، لنستعملها في تحديد رقع المربعات الخاصّة بلعبة القفز على ساق واحدة. يساعدنا في تخطيط مساحات الإسمنت، أو الزفت المتوفّرة من الطريق، برسوم كثيرة لطائرات وحلزونات يستخدم فيها الطبشور، فلا تدوم أكثر من يوم أو يومين.

وحين كنّا نملّ منه، كان أحدنا يصيح: ‘أمّك تناديك يا تشارلي، من الأفضل لك الذهاب إلى البيت.‘ يستجيب مباشرة، بطاعة جرو مدرب. وغالباً ما كان يرجع، وقد سرّح شعره الأسود من جديد، وحمل في يده سندويشاً، وهو يلهث لكنّه مرتاح لعودته، ويقول: ‘لا. لا تريدني، بإمكاني البقاء معكم.‘

كان دائماً يساعد في عمل أو آخر. أمين موثوق، يقوم بعمله المحدّد بجدّ وسعادة، عيناه البنّيّتان ثابتتان لا تهتزّان لشيء. كان في الصيف يقلّم شجيرات الوشيع، وهو ينقل الصندوق الخشبيّ الذي يقف عليه من مكان للذي يليه على طول ممرّ المشاة. ولا حاجة لتذكير تشارلي بتنظيف ما خلّفه – قصاصات الشجر والعشب تروح إلى كومة مزيج التسميد، والأدوات التي تمّ تنظيفها تعاد مباشرة إلى مستودعها!

إنْ كانت ثمّة حاجة لصعود السلّم وقطف المندرين، أو لمّ الأوراق المتساقطة، أو اللحاق بحصان الخبّاز وفي اليد دلوٌ ورفش – تشارلي في خدمتكم.

كان يجتهد في عبور الغابة في فصل الربيع، ذراعان مفتولان لوّنتهما الشمس، ويجرّ خلفه عربة من صنع محلّيّ، ليجمع فيها باقات من رؤوس أغصان الأوكاليبتوس ويبيعها من منزل لآخر. من الصعب مقاومته. يقول وهو يستنشق بعمق، ويلّوح بالأغصان في وجهك: ‘رائحتهم جميلة، أليس كذلك؟ أوراق نضرة.‘ أتذكّر أنّ سعر الباقة كان ثلاثة بنسات.

حرّكت ماريّا الشاي بعنف، وهي تنظر خارج النافذة نحو الماضي. أمّا أنا، فأكاد أشمّ رائحة الأوكاليبتوس. قالت ونبرة من الأسى تخيّم على صوتها: 'لا أرى أيّ اختلاف فيه. يبدو أنّه لم يتغير كثيراً في هذه السنوات الأربعين!'

'لكنْ يبدو أنّه استطاع التعرّف إليّ. قال مرحباً يا ماريّا وكأنّه رآني الأسبوع الماضي آخر مرّة. وأعطاني شيئاً، وكذلك لك أيضاً.'

تنحنحت وراحت تنقّب داخل محفظتها، ساحبة منديلها ومنديل ورقيّ يلّف بداخله شيئاً. بسطته فوق الطاولة ببطء فعرفتُ عندها لماذا كانت بحاجة لمنديلها: الهديّة كانت قطعتان عملاقتان من السوس المُحلّى، ونثرات من الـ "كلينكس" تلتصق عليهما.

بام جيفري كاتبة من تشارلزتاون في ولاية نيوساوث ويلز، أستراليا. ربحت قصّة "جايمس دين والأحلام القديمة" جائزة، وسبق نشر الأصل الإنكليزيّ كما هو موضّح أدناه.

James Dean and Old Dreams, by **Pam Jeffery**, published in *Tales of a Lakeside City*, Macquarie City Council Publications, 1997.

نشر الأصل الإنكليزيّ لقصّة "تشارلي صديقنا اللدود" كما يلي.

Charlie Our "Special" Friend, by **Pam Jeffery**, was published in *The Newcastle Herald.*

جَستين داث

خمسَة تعميمَات عَن المَرأة والحُبّ

1- عمر الرجل لا يهمّ بالنسبة للمرأة

دخول سريع ثمّ خروج سريع. هكذا يحب أنْ يكون الأمر. إذا كان عدد المنتظرين أكثر من خمسة أو ستة أشخاص، يذهب ليعود لاحقاً. واليوم أتى وذهب ثلاث مرّات – رقم قياسيّ جديد – والآن، أثناء زيارته الرابعة، ليس أمامه سوى سيّدة واحدة (باستثناء الطفل في العربة) تنتظر في الصف الموسوم بعبارة "المعاشات فقط". يصطفّ خلفها.

ليس لأنّه فاقد للصّبر دون سبب. وليس لأنّه لا يملك الوقت لانتظار دوره في الرتل. القضيّة ببساطة أنّه يحسّ بالخجل، بل بأنّه مخادع إذ يقف ليتقدّم بطلب المعاش. وتصوّر أنّه ربّما كان الأمر مختلفاً لو أنّ سامية كانت بعمر الطفل الذي في العربة التي أمامه: أيْ لو كانت بحاجة لوالد متفرّغ لها تماماً. لكنْ في الآونة الأخيرة بدا لـ "جون" أنّه يحتاج لابنته أكثر ممّا تحتاج هي إليه.

بينما كانت موظّفة المعاشات، سيّدة في منتصف أو نهاية الأربعينيّات من العمر، تقوم بجهد جهيد، وتكرار مديد بشرح عمل بطاقة التعويضات الصيدلانيّة لزوجين متقدّمين في العمر أمامها على الجانب الآخر من منضدة الاستعلامات، يقوم جون بتفحّص الفتاة، والدة الطفل، الواقفة أمامه. لا يوجد خواتم على

يدها اليسرى. هذا أوّل ما يتفحّصه هذه الأيّام. كانت ترتدي قميصاً أخضر ملاصقاً لجسدها، وقد ظهر جزء من علامته التجاريّة على رقعة مقلوبة فوق الياقة استطاع قراءتها، وبنطلوناً من الدَنيم الأزرق، وصندلاً من النوع الذي يدلّك القدمين أثناء المسير. أظهر البنطلون، دون أنْ يزيد امتلاؤه، تقاطيع جسمها الجميلة، خصوصاً عند الخاصرة. الفتاة أقصر من جون، ولكنْ ليس بكثير، وأعجبه كيف ربطت شعرها البنيّ على شكل كعكة مسطّحة فوق رأسها فبانت مؤخّرة عنقها. جلدها شديد البياض حتّى لكأنّها تترك شعرها مرخيّاً معظم الوقت. ربّما ستقابل أحدهم بعد انتهاء معاملتها هنا – شخص عزيز، خطيب. يأمل جون أنْ لا يكون لها خطيب.

يقاوم بشدّة حافزاً مفاجئاً شعر به، أنْ يمدّ يده ويعيد الرقعة إلى داخل ياقة قميصها الدَبق. وتذكّر كيف كان يقدّم مثل هذه الخدمة لـ سامية حين كانت مثل هذه الأفعال الصغيرة التي تنمّ عن المحبّة مسموحة في غابر الأيّام؛ قبل أنْ لقنوها في المدرسة (حين كانت بعمر خمس أو ست سنوات) دروساً ضدّ المخاطر الكامنة في لمسة الأب.

وأخيراً يغادر العجوزان منضدة الاستعلامات فتنتقل الفتاة إليها. يلاحظ جون حين دفعت الفتاة بالعربة إلى الأمام أنّ ساقيها متقوّسان قليلاً. هذا أمر مشجّع كما تبادر له، فلو كانت كاملة، أليس من الممكن أنْ تضيع عليه مثل هذه الفرصة؟

على الرغم من أنّه لم ير وجهها بعد، يخمّن أنّها جميلة من الطريقة التي كانت الموظّفة خلف المنضدة (وجهها مغطّى بالمساحيق، وتتصرف كأنّها قيّمة على الآخرين) تنظر إليها: تلك النظرة المستعجلة حول عينيها وفمها.

'كيف حالكِ اليوم؟'

'بخير، شكراً.' صوتها عذب أيضاً.

حين انحنت فوق المنضدة لتسليم استمارة "مراجعة

معاش تربية الأولاد" الزهريّة اللون التي تدل على كون المرء منفصلاً عن الزوج، ظهرت فقراتها وكأنّها مسكوبة بالريّون الأخضر الذي صُنع منه قميصها، تقتفي أثر سلسلة ظهرها الجميلة الممتدّة للأسفل. ولا ينافس هذا المشهد، ويكسب انتباه جون سوى أربطة حمّالة صدرها الممتدّة على عرض الظهر، بالكاد تُرى تحت نسيج القماش الممتطّ. كان يجاهد في الإبقاء على أفكاره نقيّة. لكنّ رؤوس أصابعه النهمة، دون اكتراث لما هو مباح، استذكرت حركة السحب والفتل البسيطة اللازمة لفكّها.

'هذا مقبول.' قالت موظّفة المعاشات، وهي تضرب بالختم على الورق وتقدّم ابتسامة تماثل الختم المطاطيّ.

تتراجع الفتاة وهي تسحب العربة للخلف، ثمّ تديرها بحركة واحدة متقنة فتواجه جون مباشرة. كان ظنّه صحيحاً حول مفاتن وجهها: تعوّض وتزيد عن مشكلة ساقيها. ويفكر خلال تلك اللحظة السريعة لتلاقي العيون لو أنّه كان أصغر ممّا هو بعشر سنوات. ينتحي جانباً ليسمح لها بالمرور.

'التالي!' تنادي الموظّفة.

يكتشف جون أثناء وقوفه أمام المنضدة، أنّه مستاء من نفسه. عمر الرجل لا يهمّ بالنسبة للمرأة. كان يجب أنْ يغتنم الفرصة، يرافقها إلى الباب ويفتحه لها، ويستعمل هذا كحجّة لبدء حديث معها.

لكنّه يتذكّر أنّ الباب يعمل تلقائيّاً.

سألته الموظّفة حين تفحّصت الصفحة الثالثة، المعنيّة بالدخل، من استمارته: 'ماذا تعني عبارة حقوق الإعارة العامّة؟'

'إنّها دفعة أحصل عليها من المكتبة الوطنيّة لقاء كتاب ألّفته.'

'أي أنّها دخل ثابت؟'

هزّ كتفيه وقال إنّه يحسب الأمر كذلك.

تبسّمت الموظّفة وقالت: 'لو كانت هذه الدفعة أسبوعيّة لغيّرت الأمور. وهذا العمل الذي تقوم به للسجن – هل يحتمل أنْ يزيد خلال الأشهر الثلاثة القادمة؟'

'لا أعتقد ذلك. هو مجرّد درس واحد في الأسبوع.'

الاستمارة التي سبق أنْ سلّمتها الفتاة (هكذا قدّر – لأنّها فوق كومة الأوراق) تقبع في الصينيّة على المكتب الصغير تحت المنضدة. لا يستطيع تمييز الاسم لأنّ الموظّفة تستره بكوعها. ولكنّه بحركة بسيطة إلى الطرف استطاع قراءة العنوان. منزل 24، زقاق بضليا. يمر بهذا الزقاق في طريقه إلى المدينة؛ لا يبعد سوى بضعة حارات. ربّما تسير الآن هناك.

'لم أقابل مؤلّفاً من قبل.' قالت الموظّفة.

'بالكاد أسمّي نفسي مؤلّفاً.' قال بتواضع.

'لكنّك كتبت كتاباً.'

حرّكت ذراعها فبان جزء من اسم الفتاة: "–يكومب". ترى هل يكون "هنيكومب"؟ تساءل جون بينه وبين نفسه.

التفت إلى الموظّفة قائلاً: 'حين أكسب من كتابتي ما يكفي لأستغني عن معاش الضمان الاجتماعيّ، عندها أسمّي نفسي مؤلّفاً.'

تختم الموظّفة استمارته بعناية، وتضعها فوق كومة الأوراق، وتبتسم له بطريقة تختلف تماماً عن طريقة تبسّمها للسيّدة "؟يكومب".

وتسأله: 'هل فكّرت بكتابة القصص الغراميّة؟' 'شاهدتُ تلك السيّدة على شاشة التلفاز منذ يومين، تنشر قصصاً تحت سلسلة "ميلز وبوون" ويبدو أنّها تحصل على كثير من المال بمجرّد نشر كتاب واحد في السنة، كما أنّها تصرف على زوجها.'

ينظر جون إلى كومة الإستمارات القابعة تحت كوع الموظّفة. هل يمكن له كتابة قصّة غراميّة بعد كلّ الذي حدث له؟

2- يرغبن في أنْ تهتمّ بمظهرهنّ

يقف جون على الرصيف خارج مكتب دائرة الضمان الاجتماعيّ، ويبحث في طول الطريق وعرضه، لكنْ لا أثر للفتاة. لا بدّ أنّها ذهبت لملاقاة صديقها. يتخيّلهما يلتقيان في أحد البارات لتناول الغداء، يقترب الصديق ليقبّلها ثمّ ينحني ليداعب الطفل. ويتساءل فيما لو كان الصديق يحبّ تسريحة شعرها الجديدة. فيما لو سيعلّق عليها. لو كان جون صديقها لقال لها فوراً كم تبدو تلك التسريحة جميلة. سيقول: 'أحبّ الطريقة التي رفعت فيها شعرك.' عندها (وبإمكان جون تخيّل هذا) ستخفض الفتاة من نظراتها، محرجة قليلاً لأنّ الجالسين على الطاولة المجاورة ربّما سمعوا المداعبة، لكنّها غير قادرة على إخفاء ابتسامتها الصغيرة الراضية التي تمتدّ على زاويتي فمها. يرغبن في أنْ تهتمّ بمظهرهن. ولكنْ فقط الأقسام الجيّدة – لن يذكر الساقين أبداً.

مطر خفيف بدأ يتساقط. يسترق النظر إلى ساعته، ثمّ ينطلق بخطوات سريعة منعطفاً حول المجمّعات السكنيّة إلى المرآب العامّ حيث ترك سيارته الستاشين. لم يكن متأكّداً كم مكث في المدينة. لكنّ زياراته الثلاث المجهضة إلى طابور المعاش لا بدّ أنْ استهلكت معظم التسعين دقيقة التي هي الحدّ الأقصى المسموح به لإيقاف السيّارة. لا يستطيع تكبّد مخالفة. لا يستطيع تكبّد زوجة.

من أين أتاه هذا التفكير؟ يسأل نفسه حين كان يسرع تحت المطر عبر شارع ريجاينا. لكنّه يعلم تماماً من أين أتاه: أتاه من كونه في التاسعة والثلاثين من العمر وأعزب؛ ومن سماحه لنفسه الاستغراق في تهيّؤات جامحة مثيرة للشفقة حول النساء – فتيات – من نصف عمره. وصحيح: لا يستطيع تكبّد أعباء زوجة.

لم يجد بطاقة مخالفة على زجاج سيّارته. يفتح باب السيّارة ويدخل. ولكنْ قبل أنْ يدير المحرّك يسترق النظر إلى نفسه

في مرآه الرؤية الخلفيّة. حدّد المطر شكل ما تبقى من شعره فوق جلدة رأسه التي بدت تحته زهريّة اللون عند القمة. يخلبطه، ثمّ يمدّ رأسه للأمام ليتفحّص النتيجة. هذا أفضل. يمكن الآن أنْ يعتقد الناس أنّ عمره ثلاثون سنة فقط. أو على الأقل خمس وثلاثون.

يراها على مسافة نصف الطريق تتجه نحو مجموعة المنازل الثالثة. العربة مغطّاة بواقية من البلاستيك الشفّاف، لكنْ لا شيء فوق الفتاة ليدرأ عنها المطر. حتّى أنّها لا ترتدي سترة واقية. يقرّر تلقائياً أنْ يعرض عليها إيصالها بسيارته. رجلٌ في سيّارة ينقذ امرأة من المطر. صورة سارّة، حتّى لو كانت في نواياه بعض الأنانيّة. على بعد ثلاثين متراً عن الفتاة يجد بقعة خالية من السيّارات المصفوفة بكثافة على جانبي الطريق. يكتشف أنّ هذا موقف باص، لكنّه يتوقّف هناك على أيّ حال. ينحني جانباً ويبدأ بفتح نافذة الجانب الآخر من السيّارة. يكاد أنْ ينادي الفتاة، لكنّه يغيّر رأيه فيغلق النافذة ويترجّل متجهاً إلى الرصيف.

'هل ترغبين أنْ أوصلك بسيّارتي؟'

سبق أن توقّفت على بعد مترين منه. قالت وهي تبتسم: 'لكنّني أكاد أصل إلى منزلي.'

يقف جون مرتبكاً جدّاً. متران من الإسفلت المبلّل يفرّقان بينهما. يداها تشكّلان قبضتين صغيرتين على مَسْكة العربة. يلاحظ أنّه يقف في طريقها، ربّما يقترف فعل تحرّش جنسيّ. ولكنْ كيف يمكن للمرء، في هذا العصر الذي صارت فيه الأبواب تلقائيّة الفتح والإغلاق، التعرّف على أحد بغير هذه الطريقة؟ جفّ ريقه. لم يفعل شيئاً كهذا منذ زهاء عشرين سنة. وحتّى في ذلك الوقت، وعلى الرغم من ذلك التستوسترون المفرط الهائج، كان يجد الأمر صعباً.

يأخذ نفَساً، يتكلّم: 'صادفتك في دائرة الضمان الاجتماعيّ.'

’وأنا رأيتك أيضاً.‘

هذا تقبّلٌ على الأقل.

يقول لها ما هو واضح: ’تبتلّين.‘

’وكذلك أنت.‘

فِكْرَة. يقول لها: ’اِنتظري هنا،‘ وأسرع إلى سيارته فأحضر شمسيّة قابلة للطي كانت "لوسي" تملكها. ’هذه ستنقذ الموقف،‘ قال وهو يفتحها بسرعة البرق ويضعها بين الفتاة والسماء.

’أنت من يجب أنْ يستعملها،‘ تقول الفتاة. تمدّ يدها وكأنّها تريد إيقاف ذراعه، لكنّها تتوقف قبل لمسه بقليل، وتقول: ’أنا مبتلّة تماماً.‘

علائم قشعريرة تظهر على ذراعه التي كادت أنْ تلامس يدها.

’سأعقد معك صفقة،‘ يقول لها، وهو يبقي على ذراعه ممدودة حتّى تحميها المظلة، هي والعربة، من المطر الخفيف. ’هي لك في الذهاب ولي في الإياب.‘

’هذا يعني أنّك ستصاب بالبلل مثلي.‘

’لكنْ لا يمكن أنْ نكون أكثر عدلاً من ذلك.‘

تضحك. يمشيان الآن على الرصيف، هو يمسك بالمظلّة، وهي بالعربة. من يراهما مع الطفل، قد يظنّ أنّهم عائلة واحدة.

تقول: ’في الحقيقة لا أعلم لماذا تقوم بكلّ هذا.‘

لكنّ جون يعلم. يشعر أنّ قلبه ضخم وجامح داخل صدره. من المؤسف أنّه ترك سيارته في موقف للباص. يسرق نظرة إلى جانب وجه السيّدة "؟يكومب"، إلى جبينها العالي المدهش، وإلى أنفها الصغير الذي تضرّج بقطرات المطر (والذي بإمكانه كما تخيّل أنْ يشبعه تقبيلاً إلى أنْ يجف)، ويسمح لنفسه أخيراً أنّ بإمكانه تكبّد مخالفة وقوف غير مسموح.

بإمكانه تكبّد أيّ شيء.

‘أحبّ الطريقة التي سرّحت فيها شعرك،’ قال لها جون.

3- إذا لم تكن المرأة مهتمّة ستُعلم الرجل فوراً

المنزل رقم 24 في زقاق بضليا يعود للخمسينيّات من القرن العشرين، منزل خشبيّ كئيب أمامه شجرة أقاقيا هائلة الحجم تتدلّى على العشب الأماميّ.

‘جاء دورك الآن لتأخذ الشمسيّة،’ قالت وهي تنحني لتفتح البوّابة الأنبوبيّة الخفيضة.

يصاب جون بخيبة أمل. من المفروض أنْ تدعوه إلى داخل المنزل. وأنْ تقول مثلاً: هل لديك وقت لشرب فنجان من القهوة؟ ينتهي هذا السيناريو بعودته بعد عدّة ساعات إلى موقف الباص ليجد أنّه تمّ سحب سيّارته.

بدأ بسؤالها: ‘هل يمكن لي،’ وأكمل بتردّد وخوف: ‘أنْ أعود لزيارتك في وقت ما؟’

تتوّقف عن فتح بوّابتها. لا يستطيع فك رموز شيء ما— انزعاج؟ - شفقة؟ - حين ضاقت عيناها للحظة. وتجيبه دون التزام واضح: ‘إذا أردت.’

لا يمكن أنْ نسمّي هذه دعوة، لكنّها ليست طرداً. إذا كانت المرأة غير مهتمّة فسوف تُعلم الرجل فوراً.

‘أرغب في ذلك، ويمكن أنْ نذهب للغداء في وقت ما.’

تنظر إلى العربة وتقول: ‘من الصعب إيجاد من يحضن الأطفال.’

كلاهما يبتلّ بالمطر. ترك ذراعه الأيمن الذي يحمل المظلة يرتمي إلى جانبه. على الرغم من اتفاقيّتهما، لم تسمح شهامته أنْ يستخدم المظلة قبل أنْ تدخل هي إلى المنزل.

يقول لها: ‘لديّ ابنة ذات أربع عشرة سنة، تحسن العناية بالأطفال.’

هو غير متأكّد من ذلك، لكنّ سامية تحسن إلى الحيوانات، وربّما يدلّ هذا على صحّة حدسه.

'لا أتناول الطعام خارج المنزل كثيراً،' تقول السيّدة "؟يكومب" بسرعة. ويصطبغ وجهها المرقّط قليلاً بحمرة خجل تمتدّ إلى جيدها. 'رائحة الطعام هي المشكلة، تسبّب لي آلاماً في الرأس أحياناً.'

يتساءل فيما إذا عنت كلّ الطبخ، وما نوع الطعام الذي تأكله ياترى؟

'هل تحبّين النزهات؟'

تكافئه بابتسامة وتقول: 'هذا جميل.'

'ما رأيك بيوم غد؟ بإمكاني أخذك زهاء الحادية عشرة.'

تنظر بسرعة نحو السماء.

يضيف: 'طبعاً إذا كان الطقس جيّداً.'

لكنّها بقيت على حالة من الشكّ، وكان يرى أنّها تعيد النظر بالأمر. حذّر نفسه بأنْ يتأنّى، وأنْ لا يضغط عليها.

'أو في وقت ما الأسبوع القادم، إنْ كان هذا أفضل لك.'

'لا،' قالت. 'غداً لا بأس، إذا كان الطقس صحواً.'

'بإمكاني إحضار شمسيّة إضافيّة.'

تضحك. هذه المرّة الثانية التي جعلها تضحك. بشارة خير.

'آسف، لم أقدّم لك نفسي: أنا جون – جون أورسل.'

'أنا أميرة،' قالت. 'فقط أميرة.'

'سرّني لقاؤك يا أميرة.' ونقل الشمسيّة إلى اليد اليسرى، استعداداً لإمكانيّة المصافحة. لكنّهما لا يتصافحان. 'ما اسم طفلك يا أميرة؟'

'غالب.'

ينحني جون محاولاً الرؤية عبر الواقية البلاستيكيّة التي تكثّف البخار عليها. لا يرى كثيراً.

’مرحباً يا غالب.‘

تحرّك أميرة يديها بعصبيّة على مَمْسَكة العربة فتتساقط قطرات سمينة من الماء على الرصيف. وتبدو وكأنّها تريد تقديم اعتذار. ’لا يحبّ الرجال كثيراً.‘

يجلّس جون نفسه. يقول لنفسه إنّ المسألة ليست شخصيّة، فليس في يده حيلة أنّه رجل.

’من الأفضل أنْ تدخلي يا أميرة، صرت متشرّبة بالرطوبة.‘

أصبح قميصها شافّاً. يحاول جاهداً أنْ يبقي نظره فوق مستوى رقبتها. تبتسم.

’وأنت أيضاً.‘

يميل برأسه للخلف ليخفي شعره المتشرب بالماء.

’أراك غداً يا أميرة.‘ يعلم أنّه بات يستعمل اسمها تكراراً، لكنّه أحبّه: أحبّ لفظه. أميرة.

جون وأميرة.

تودّعه وتقول: ’شكراً لمسيرك معي.‘

فكّر جون: الشكر لكِ لمسيرك أنتِ معي.

4- تنجذب النساء للرجال الذين يحسنون الرعاية ويتحمّلون المسؤوليّة

في المساء يقنع سامية بالذهاب إلى السينما.

’مزاجك رائق،‘ تقول له حين توقّفا لتناول وجبة "مكدونالدز" في طريقهما إلى السينما. عادة لا يشتري من مكدونالدز، لادّعائه – ويعلم أنّ في ادّعائه مبالغة – أنّ أيّ محل لبيع السمك والبطاطا المقلية لديه هامبرغر أكبر وأفضل وبنصف سعر مكدونالدز.

’التقيت شخصاً هذا اليوم.‘

تبصق سامية نصف قطعة بطاطا. آداب المائدة تراجعت لديها منذ دخلت طور المراهقة. ’تعني شخصاً امرأة؟‘

يهزّ جون رأسه إيجاباً. فمه مليء بقطعة من "بيغ ماك" لكنّه لا يصدّق متى يبتلعها.

’اسمها أميرة.‘

’هل هي جميلة؟‘

’نعم،‘ يقول بافتخار. يقضم عضّة أخرى.

جلست سامية تبتسم في وجهه عبر الطاولة البلاستيكيّة المنخفضة. منذ أنْ تركتهما أمّها وهي تحاول تزويجه.

’خبّرني عنها. ما شكلها؟‘

’لطيفة.‘

’أعني كيف تبدو.‘

’حسن...‘ يقول ويرتشف عصير البرتقال متعمّداً بعض التأخير، ثمّ يتابع: ’شعرها بنّيّ، نحيلة، و—‘

’أطفال؟‘

’واحد، صبيّ.‘

’ما عمره؟‘ سامية صارت مؤخراً تهتمّ بالصبيان. لكنّ جون يستعمل كلمة "مهووسة" ليصف حالتها.

’غير متأكّد. سنة، أو أكثر بقليل.‘

تجعّد أنفها. ’ما عمر سميرة؟‘

’أميرة،‘ يصحح لها. ’لست أدري. ليس هذا نوع الأسئلة التي تطرحينها منذ الموعد الأوّل.‘ يستمتع بالفكرة الساخرة أنّ مسيرته مع أميرة هذا اليوم يمكن القول عنها إنّها "موعد"، على الرغم من سيرهما مبتعدين بطول أذرع ممتدّة (وذراعاه طويلتان بحقّ) عبر شارع لاربير.

تسأله سامية: ’هل هي تقريباً بعمرك؟‘

صاغت سامية سؤالها هذا بلباقة. كان من الممكن أنْ

تقول، أو بالأحرى من عادتها أنْ تقول، "كبيرة مثلك". بنظر سامية، كلّ من زاد عمره عن خمس وثلاثين سنة يصبح عجوزاً. لهذا ستتقبّل أميرة.

'إنّها أصغر منّي.'

'أصغر منك بكثير؟'

'نعم، أصغر منّي بكثير.' ويخطر له الآن أنّ أميرة ربّما كانت أقرب إلى عمر ابنته من عمره.

'متى أستطيع مقابلتها؟' تسأله سامية.

'أنا نفسي قابلتها للتوّ.'

'يعني؟'

'يعني عليك بالصبر.'

'لماذا لا ندعوها للسينما؟'

'لا أعتقد أنّها تريد لغالب أنْ يشاهد فيلم الـ"تيرمينايتر".

'غالب، اسم جميل. عندما يصبح لي أولاد ربّما أسمّي واحداً منهم بهذا الاسم.'

ما أجمل الفتاة في الرابعة عشرة من عمرها!

'بدأ الهمبرغر يبرد،' قال جون.

'إنه تشيزبرغر.' تقسم سامية بأصابعها قطعة من الخبز وتضعها في فمها. 'متى ستراها ثانية؟'

'غداً، سنقوم بنزهة.'

'هل بإمكاني المجيء؟'

'ستكونين في المدرسة.'

'لا لن أكون. غداً يوم كتابة التقارير – بلا تلاميذ، ألم تقرأ النشرة المدرسيّة التي أتت الأسبوع الماضي؟'

'لم أنظر في النشرات منذ شهر على الأقل.'

تدخل سامية إصبعها في كيس البطاطا المقليّة، وتسحبه لتلعق الملح من عليه.

'سأنتبه إلى غالب بينما أنتما الاثنان... كما تعلم.'

يتظاهر بأنّه لا يعلم. سيعالج قضيّة النشرات المدرسيّة المفقودة فيما بعد.

'لن تأتي معنا.'

'أرجوك يا بابا.' لا بدّ أنّ القضية تعني الكثير بالنسبة لها، لأنّها عادة تناديه باسمه جون. 'سأتصرّف بلباقة. لن أعبث أو أقوم بأيّ شيء سخيف.'

'أتحبين الكلام وفمك مليء؟'

تبتلع اللقمة بسرعة. 'سأكون ذخراً لك يا بابا. سترى – ما اسمها – ما أروع العمل الذي تقوم به بتربيتي؛ ستتشجع على زواجك فوراً.'

'لا زال الوقت باكراً للحديث عن الزواج،' قال جون وهو يفكّر بالأمر.

تبتسم سامية عن معرفة. 'أرى أنّك شذّبت شاربيك.'

'كانا بحاجة للتشذيب.'

'أفضل للتقبيل.'

قرّر غضّ النظر عمّا قالته. بينما رجع في ذهنه إلى ما قالته قبل قليل حول مهارته كوالد: حول الانطباع الذي ستتركه لدى أميرة. يدرك أنّ سامية على حقّ: النساء ينجذبن إلى الرجال الذين يحسنون الرعاية ويتحمّلون المسؤوليّة – رجال يصلحون ليكونوا آباء جيّدين لأولادهم. ويتصوّر أنّه سيتميّز على والد غالب، الذي نكث على الأقل ببعض مسؤوليّاته الأبويّة دون شك.

'حسن،' قال لها. 'بإمكانك المجيء إن أحسنت اختيار ما ترتدين من ثياب.'

5- النساء لا يحتجن الرجال (مثل) حاجة الرجال للنساء

'ما أجمل الحلَق على أذنيك،' قالت سامية.

'شكراً.' تستدير أميرة مبتسمة لسامية التي كانت تجلس في المقعد الخلفيّ للسيّارة. 'زوجان جديدان من الحلَق.'

لامَ جون، الذي كان يقود السيّارة، نفسه لعدم ملاحظتهما. يسترق النظر إلى الجانب. شعرها اليوم مفرود، ومدفوع لخلف أذنيها. يفضّله مرفوعاً كما رآها أوّل مرّة. يتساءل فيما إذا اشترت الحلَق بنفسها أم أنّهما هديّة من أحد. الخطيب؟ والد غالب؟ طرازهما الأسود والأبيض مألوف.

'هذا رمز ينغ يانغ أليس كذلك؟'

'إنّه ين يانغ يا بابا.'

اخرسي يا سامية. ينظر إلى أميرة. 'اللغة الصينيّة كانت دائماً أسوأ موادّي في المدرسة.'

يضيء وجهها. 'تعلمتَ الصينيّة؟'

'لا. كنت أمزح،' قال ذلك ثمّ أعاد التركيز على الطريق. ألف لعنة!

تسأل سامية: 'ما عمر غالب يا أمّورة؟' الطفل جانبها مربوط ضمن كرسيّه الخاصّ، الذي يشبه كبسولة الفضاء، المرتفع بما فيه الكفاية لتمكّنه من العبوس في وجه جون كلّما التقت عيونهما في مرآة الرؤية الخلفيّة.

'سنة ونصف الإثنين القادم.'

'له رموش طويلة رائعة الجمال.'

يحسد جون النساء (ويصنّف سامية امرأة لغرض هذه الأمور) لمقدرتهنّ التي لا تفتر بالإتيان بالقول المناسب في الوقت المناسب. الطفل بشع، وهذا واضح لكلّ من يرى. لكنّه يعترف بأنّه يحكم على غالب بقسوة: من الصعب النظر بعين الرأفة إلى من لا يحبّك. على كلّ حال، وفي طريقهم إلى النزهة، يقرّر أنْ يكسب ودّ

الطفل. يربح الطفل، فيربح الأمّ. صفقة كاملة.

حين وصلوا إلى مكان النزهة – منتزه صغير مجاور للحدائق النباتيّة الوطنيّة، حيث كان يلتقي أحياناً بلوسي خلال فرصة غدائها – يفكّ جون رباط غالب بنفسه، ويمسك بيده الصغيرة الدبقة حين عبر أربعتهم مرآب السيّارات المفروش بالبحص نحو المروج حيث مقاعد النزهة.

وفيما بعد، حين تعود سامية مع غالب من جولة خمس عشرة دقيقة أخذته فيها إلى قسم الأراجيح والألعاب بدافع الواجب، يضعه جون في حضنه، ويُفاجأ بأنّ غالب يرقد مستريحاً وينام خلال وقت قصير.

أميرة تتفاجأ أيضاً.

'لم يفعل هذا من قبل البتّة. عادة ليس له أيّ علاقة بالرجال.'

وتغمزه سامية التي كانت تجلس إلى جانب أميرة إلى الطاولة الخشبيّة الخشنة التي ما زالت تحتفظ ببقايا ما هطل من عصير البرتقال الذي كان يشربه غالب.

'والدي يحسن التصرف حقّاً مع الأطفال.'

'بإمكاني رؤية ذلك،' قالت أميرة.

'حتّى حين كانت أمّي تعيش معنا، كان يقوم بالأعمال المنزليّة كلّها والطبخ وما إلى ذلك. هو طبّاخ ماهر.'

لا تبالغي يا سامية.

'يجب أنْ تزورينا لتناول العشاء،' قالت سامية. ثمّ التفتت إليه: 'بابا، لماذا لا تدعو أميرة وغالب إلى العشاء هذا المساء. بإمكانك تحضير لازانيا كبيرة، ضعف الكميّة، وأنا سأحضّر زلابية بالقطر الذهبيّ لما بعد.'

يتذكّر مقت أميرة لروائح الطعام. حسناً، بإمكانه تحضير سلطة.

يقول: 'يمكن أنْ تكون لدى أميرة مشاريع أخرى، يا

سامية.' رجلٌ آخر تمضي الليلة معه.

'لا نخسر شيئاً بسؤالنا،' تصرّ سامية. 'ما رأيك يا أميرة؟ بابا يطهو أفضل لازانيا.'

تجيب: 'غالب وأنا لا نخرج كثيراً في المساء.'

'يمكن تناول العشاء باكراً، كما يمكنك يا بابا أنْ توصلهما إلى منزلهما قبل حلول الظلام.'

نعرف أنّ أميرة ليس لديها سيّارة.

'المشكلة أنّني يجب أن أحترس ممّا أتناول من طعام.'

وتبدأ سامية بالقول: 'تبدين نحيلة بما يكـــ' ثمّ تقاطع نفسها فجأة. يتلوّن وجهها وتقول: 'آسفة. لم أقصد— آه!'

تمسك أميرة بإصبع سامية وتقول لها إنّ القضية لا تستحقّ كلّ ذلك، وتدنو من إذنها وتهمس.

'حسن،' قالت سامية.

تقفان معاً.

'إلى أين؟' سأل جون.

ترمقه ابنته بنظرة متفحّصة وتقول له: 'مسائل نسائيّة.'

يراقبهما، تتجهان نحو المراحيض العامّة على بعد ثلاثين متراً. يفكّر كيف بدأتا فوراً التشارك في الأسرار. يشعر بالعزلة. خطر له، بعد مغادرة لوسي، أنّ النساء أكثر استقلاليّة من الرجال: لا يحتجن إلى الرجال— على الأقل ليس بالطريقة نفسها، ولا المقدار ذاته، الذي يحتاج فيهما الرجال إلى النساء.

واجه الحقيقة، يقول جون لنفسه، ليس لديّ ما أقدّمه لأميرة أكثر ممّا لديها الآن.

كلاهما، في حال ارتباطهما، سيخسر من معاش الضمان بادئ ذي بدء.

'أيّتها الشقيّة!' صرخات يتراجع صداها من موقع المراحيض. ينظر للأعلى فيرى هيئة سامية المنحنية تنطلق

كالسهم خارج المبنى، وتقفز إلى ملعب الأطفال. تظهر أميرة الآن في مدخل البناء. تهزّ رأسها لتتخلّص من الماء الذي يبللها. تصيح: 'سأنتقم منك لفعلتك هذه!' تخلع صندلها بهزّ قدميها وتركض وراء سامية.

يشاهدهما جون وهما تتسابقان في الملعب، منطلقتين بحريّة الأطفال. من الممتع المشاركة معهما. لكنّه يعلم أنّه لا مكان له بينهما، رجل في الأربعين، رجل، ضمن ألاعيبهما. على كلّ حال لا بدّ لأحدهم من العناية بـ غالب.

تتعب أميرة أوّلاً، فيتحوّل ركضها إلى مسير إلى أنْ تنطرح أرضاً جانب الأرجوحة. تعود سامية وتأخذ طريقاً دائريّة طويلة حول عدد من الأراجيح والألعاب. تمشي ببطء دون أنْ ترفع عينها الحذرة عن أميرة، في الوقت نفسه الذي تحاول أنْ تظهر فيه غير مبالية. تنتظرها أميرة إلى أنْ تمرّ أمامها، فتقطع ملء يدها من العشب وترميه باتجاهها عبثاً. تتضاحكان، وتسعلان، وتعطسان. وتبدو أميرة، التي ازهرّ لونها، وانشعث شعرها، أصغر ممّا يمكن أنْ تكون عليه. هي وسامية يمكن أنْ تكونا أختين.

أنا مجنون. يفكّر جون.

تقف سامية متّكئة بالقسم الأعلى من جسمها على الطرف المرتفع من "النوّاسة"، وتضغط عليه فينخفض ببطء إلى أنْ يصل إلى وضعه الأفقيّ، فتنهض أميرة وهي تثبّت قدميها لتحافظ على هذا الوضع، ثمّ تدعو سامية للصعود والأرجحة معها قائلة: 'دعينا نقوم بالصدمات'.

لم يسمع جون سابقاً بأنّ هذا هو اسم من أسماء هذه اللعبة، لكنّه عرف فوراً ماهيّتها، وأنّها اللعبة الخشنة نفسها التي كادت أنْ تقضي على شهر عسله، في ملعب مظلم في كانبيرا منذ زهاء ثماني عشرة سنة (أميرة كانت في الحضانة). يتذكّر كيف دار بسيّارته ليلاً في تلك المدينة الغريبة باحثاً عن طبيب أسنان ليصلح السن الأماميّ المكسور لزوجته الجديدة. بعدها، في

فندقهما، قالت له: 'كيف تفكّر بالجنس بعد كلّ الذي حدث؟'

استيقظ غالب. استدار بحيث انضغط وجهه على صدر جون. شعر جون بإلحاح الفم الصغير وهو يبحث خلال فتحة قميصه عن حلمة ثدي. 'آسف يا صديق،' قال وهو يرفعه بلطف. 'أُنظر، أنا رجل.'

يتذكّر أنّه حين رفضته لوسي لأوّل مرّة، إنما كان يُعاقَب على كسر سنّها. هذا ليس عدلاً كما يبدو. إذا كان لا بد من توزيع اللوم، لا شكّ أنّ الحادث كان غلطها بقدر ما كان غلطه هو. ولكنْ بالتدريج – وبعد سنين من الرفض المشابه – بدأ يميّز أنّ هذا لم يكن عقاباً على الإطلاق، وإنّما بكلّ بساطة جزء من المستحقّات التي يجب أنْ يدفعها المرء من أجل حبّ المرأة.

جَستين داث مدرس للكتابة الاحترافيّة في ولاية فيكتوريا الأستراليّة. له رواية وعدد من القصص القصيرة نشرت في عدد من دول العالم. كما كتب عدّة روايات للأطفال. الأصل الإنكليزيّ لقصّة "خمسة تعميمات عن المرأة والحبّ" نشر كما يلي.

The original English of *Five Generalisation about Women and Love*, by **Justin D'Ath**, was originally published in *Kalimat 1*, March 2000, Sydney.

جاين داونينغ

محلّات خان

لم تكن محلّات خان كأيّ متجر عاديّ، بل كانت كأنّها "علبة باندورا" بالنسبة للمدينة، يرتادها الناس في محاولة لاكتشاف السرّ الذي كانت توحي به، لكنّهم كانوا يغادرونها حاملين بعض المشتريات، أمّا فضولهم فما كان يُشبع ولا حتّى باختلاس نظرة إلى أعلى الدرج داخل المتجر.

تأسّست محلّات خان بعد الحرب، أولى الحروب العالميّة، والتي تشير إليها عائلة خان بكلمة "الحرب". وانتقلت هذه المؤسّسة إلى شارع "براون" قبل فترة الكساد الاقتصاديّ، واستمرّت هناك منذ ذلك الوقت، على الزاوية مقابل مركز الشرطة، الذي تأسّس بدوره إبّان الحرب الثانية. بقيت محلّات خان مفتوحة الأبواب خلال كلّ أزمة وطنيّة. تقدّمت العائلة في العمر، لكنّ الزبائن الحقيقيّين كانوا دائماً، وبقوا، من الناضجين على وجه العموم. عرف كلّ حفيد من أين كانت جدّته تتبضّع مِشدّها، ووالده مناديله الكبيرة المربّعة الشكل، واحدة لكلّ يوم من أيّام الأسبوع. الجميع كان يعلم عنوان محلّات خان بالضبط، لكنّ الجميع كان يعلم أقلّ بكثير ممّا أراد أنْ يعلم.

لم أكن أنا بالذات محصّنة ضد فضول البلدة ذاك. أتيت باكراً في يومي الأوّل، وتسمّرت أمام العتبة لأعطيهم انطباعاً جيّداً عنّي، لكنّ مدّة الانتظار الطويلة جعلتني أرتجف من البرد وأنا في انتظار السيّد "ويل" الذي سيأتي لفتح المحلّات. ترى كيف ستكون

في الداخل؟

وصل صاحب العمل مرتدياً الأسود؛ بذّته، صدرته، قبّعته المستديرة، عدا قبّة قميصه المنشّاة الناصعة البياض بدعائمها البلينيّة، والمنديل القرمزيّ يبرز من جيبه الصدريّ ليحتل زاوية في هذا العالم، وثمّة ظهور غير مقصود لطرف سرواله التحتيّ الطويل، يعلن عن وجوده لعالم يعرف هذه الحقيقة أصلاً. محلاّت خان لم تكن مُدفّأة أبداً— أو مكيّفة. ارتعدتُ من البرد داخل المتجر تماماً مثلما ارتعدّت خارجه. يا لخوفي وبردي!

نترة حادة واحدة لمفتاح كهربائيّ أشعلت المصابيح العارية التي سكبت ضوءها على مشهد لم يتغيّر منذ ستين عاماً، لتكشف لي كهفاً بزوايا مظلمة يتوارى وراء مناضد خشبيّة مصمتة، ومنحدرات من العلب التي ترتفع نحو السقف، ودَرَجاً مظلماً عصيّاً ومحظوراً بلوغه، ومستقبلي.

رفع السيّد ويل قبّعته عن رأسه عابس الوجه، ولاعب شاربيه لفترة، ثمّ رمى بين يديّ مجموعة من المشدّات النسائيّة. وقبل أنْ تختفي بذّته السوداء في ظلال الزوايا، دمدم أنّ "مونا" ستأتي لاحقاً.

تخيّلت أنّ اللون الأسود كان تكريماً للسيّد جون. مات السيّد جون بسبب تقدّم العمر، لا غير. مات أوّلاً وهو أصغر الأولاد، ودفن في المقبرة إلى جانب الوالدين اللذيْن غادرا حين كان أولادهما غاية في الصغر. ولربّما مات الوالد "سعيد" والوالده خان من كثرة العمل، أو لمجرّد أنّهما لم يقدرا على الاستمرار أكثر في التربة الجديدة، فالجذور المزدرعة أقلّ قدرة على التغذية.

يحكى أنّ السيّد جون كان أكثر الصبيان وسامة. كان لاعب كرة قدم، وعضو المجلس البلديّ، وهو الوجه الذي كنت أراه خارج المتجر، لكنّنا لم نتعرّف إلى بعضنا مباشرة. ولعلّ وفاته هي ما أتاح لي فرصة العمل في محلاّت خان، فكنت بالنسبة لهم يدَيْن إضافيّتين لا يمكن أنْ تحلاّ محلّ الأخ الحبيب الذي فقدوه.

قيل لي أنْ أرتدي الأسود في يومي الأوّل ذاك، وحذّروني من ارتداء البنطال مطلقاً، وحتّى لو أنّ هذه العادة صارت مقبولة في المجتمع، لكنْ لم يكن يسمح لموظّفات هذه المحلاّت بها، على الرغم من بيع أحسن أنواعها في قسم الملبوسات النسائيّة. وكنت أعلم أنّه كان عليّ تجنّب التنانير القصيرة، حتّى سوداء اللون منها. كانت خالتي إثيل لي بالمرصاد إزاء أفكاري الرومانسيّة، وهي التي وضّحت لي الأصول فيما يتعلّق بألبسة الحِداد. كانت طيلة عملها لدى محلاّت خان ترتدي الأسود، والأسود فقط على مدى ثلاثين عاماً، يوم كانت أستراليا بيضاء، ولم يكن يسمح للسود بالتصويت، لكنّ محلاّت خان صارت صرحاً أساساً من صروح البلدة.

خبّرتني إثيل عن أعراف محلاّت خان العديدة. العالم هناك كان مرتّباً ومصنّفاً بعناية، كلّ شيء له مكانه المناسب، وكلّ فرد كان يعلم ما هو المتوقّع منه. أتى الناس من مسافات كانت تقاس بالأميال، ثمّ صارت بالكيلومترات، لأنّهم كانوا يعلمون أنّهم سيجدون ما يبغون في تلك المحلاّت، بما في ذلك الخدمة الكريمة، والشعور بأنّ البضائع لا مثيل لها.

لم يذكر أحد شيئاً عن الواجبات، لكنّ الأبناء العوانس – السيّد ويل، والسيّد جون (كلمة أعزب ما كانت تبدو ملائمة في حالته) ومونا – بقوا هناك يقومون بكلّ ما يمليه الواجب المهنيّ عليهم. ابتدأت إثيل عملها لدى محلاّت خان عندما كانت في السادسة عشرة من العمر عام 1935، وهو عمري نفسه الذي بدأت فيه عملي لديهم. كانت هي ومونا من العمر نفسه، لكنّهما لم تكونا صديقتين أبداً. لم أتصوّر قطّ أنْ تتمكّن مونا من الحصول على أيّ صديق. كانت مونا كالخيال، وكانت العمود الفقريّ للمحلاّت. كان من الممكن بسهولة الاستنتاج أنّ مونا عانس، شوكة في حديقة ورود الأنوثة، لكنّ رموش عينيها كانت تصلح مادّة لدعاية المِسْكرة لما كانت عليه من جمال. كانت مونا ترتدي الأسود، عدا

أيّام الجمعة التي ترتدي فيها قميصاً أحمر بلون طائر الروزيلا، ولم ينبس أحد بكلمة ضدّها؛ القميص كان بضاعة كاسدة من بضائع المحلّ.

أجيال عديدة من النساء كانت لا تدع أحداً غير مونا يشرف على تجريب مشدّاتهنّ. وأثناء أيّامي الأخيرة في محلاّت خان، كنت كثيراً ما أقصد الهاتف طالبة ذلك المنزل عبر الشارع، داعية مونا لتحضر فتلبّي طلبات النساء اللاتي ما قبلن بأحد غيرها.

سخّانة كهربائيّة خلف الستار كانت تمدّ السيّدات بالدفء وهن يجرّبن مشدّاتهن من نوع "ليبرتي"، ورباط "ليدي روث" يُشدّ ويضبط فيضغط المشدّ على الجسم مجبراً إياه أنْ يتّخذ شكل جسم سيّدة أنيقة. لم تكن زبوناتنا من فرقة حرق الصدّارات النسائيّة، إنْ وجدت هذه الفرق خارج إطار السيرك الإعلاميّ.

عندما كانتا في السادسة عشرة، بدأت مونا وإثيل البيع من خلف المنضدة وتعاملتا بحذر مع تلك الأجسام التي فقدت رونقها: نواتج الحمل والأمومة، الجسم المشدود، والجسم المنفوخ، وذلك الناشف نهائيّاً، وكثيرات ممّن خسرن المعركة للسرطان فتركت الجراحة ندباً على أجسادهن، وقلّة مازلن يحتفظن بمقاييس الجمال الفينوسي، وكنّ يحضّرن ليوم عرسهنّ، كلهنّ توسّلن لتلك اللمسة السحريّة التي ستعيد تخليق أجسادهنّ، ولتكن الصديريّة من النوع الذي ينفخ، أو النوع المحشوّ، كلّ شيء يمكن تعديله ليناسب القياس، وكلّ شيء صار مناسباً على يديّ مونا.

كان لا بدّ لمونا، وهي في السادسة عشرة، ونظراً لطبيعة هذا العمل، أنْ تدرك ما سيؤول إليه جسمها في مستقبل الأيّام. أما إثيل، فغادرت العمل لتنجب الأطفال، ثمّ عادت، ثمّ غادرت من جديد. وها هي مونا في الثمانين من عمرها، ممّا يعني أنّها على علم وثيق بتقدّم الزمن.

كان واجبي الصباحيّ، لسنين تلت، الاعتناء بواجهات العرض: خمس نوافذ تتوزّع على ضلعي زاوية شارعي "بروون" و"فليت". خمس نوافذ يتمّ ترتيبها ترتيباً منفعيّاً وليس جماليّاً. لم تكن تلك العائلة ذات شخصيّة خلاّقة— سرّها وجاذبيّتها فطريان، وليسا نتيجة لتصوّرات خبير تسويق. في إحدى الواجهات كان عليّ العناية بجزمة من طراز "كيلفن" للمزارع، ولباس السباحة "سوتكس"، وشفرات "جيليت"، وأزرار "دريسويل" لتثبيت قبّات القمصان، والدعامات البلينيّة للقبّات، وكلّ لوازم الهندام الذكوريّ. أمّا العلاقة المباشرة مع الزبائن الرجال فكانت من ملكوت السيّد ويل في قسمه الخاصّ بذلك.

بعد ذلك يأتي دور شراشف الطاولة، والتشكيلة الكبيرة من المراييل، والثياب الخارجيّة (لم يُسمح بعرض ثياب داخليّة في الواجهات)، وأخيراً مجموعة القبّعات المعروضة، والتي يجب نفض الغبار عنها وإعادتها إلى موقعها نفسه بالنسبة لمراتب الدلال أو السلطة (وفق جنس من يرتديها). تهكّم بعض القوم في البلدة أنّ الواجهات لم تكن تتغيّر البتّة، وهكذا كان ظنّي في البداية— حول كلّ شيء في المتجر. كان أصدقائي يتساءلون هازئين، من يرتدي قبّعات هذه الأيّام؟ ليس بنسبة الأيّام الخوالي العظيمة نفسها، لكنّهم لو علموا أنّ مخزون هذه القبّعات العتيقة الطراز يتجدّد لدينا باستمرار، لكانت مفاجأتهم الكبرى. لم تجتذب هذه البضاعة كثيراً من الغبار، لأنّها كانت تنفذ بسبب الطلب عليها ممّن يشاركون في مراسم كثيرة مثل اجتماعات السباق والجنازات.

كان عدد القبّعات كثيراً يوم دفن السيّد جون. كما أنّ جزمات "كيلفن" لبّت الطلب في المقبرة الموحلة، والمطر يتساقط بعد مراسم الكنيسة. ولابدّ أنّ الحديث عن جرد المحلاّت قد ابتدأ مباشرة بعد ذلك.

تقوم المحلاّت التجاريّة عادة بالجرد السنويّ الذي كان

يستمرّ ليوم واحد حين يضعون في واجهاتهم لافتات حمر كبيرة كتب عليها أنّ المحلّ مغلق بسبب الجرد، ممّا يسبّب تذمّر الزبائن. أمّا في محلاّت خان، فاستمرّ الجرد حينها أسبوعاً كاملاً. ولم تتمكّن إثيل من تذكّر تقييم مماثل للمتلكات خلال كلّ فترة عملها. العائلة وحدها كانت تعلم ما يختفي وراء تلك الدرجات المانعة المنيعة. لكنْ ليس كلّ العائلة. بدأت العمل في أحد الأسابيع، وفي الأسبوع الذي تلاه بدأ الجرد حين أقحم أخ ثالث مصلحته في العمليّة كلّها.

لكلّ عائلة خروفها الأسود كما يقال. مثلاً ذهبت أختي إلى ملبورن، وتعاطت المخدّرات، وسكنت في أماكن أكثر وضاعة من الشوارع، وأصبحت تلك المخابرة الهاتفيّة التي تصيبك بالذعر في منتصف الليل هاجسنا الأكبر. أمّا في عائلة خان، فكانوا كلّهم خرافاً سود، بمعيارنا، نظراً لدكنة جلدهم وشعرهم، وكتمانهم أمورهم، وطقوسهم الدينيّة المختلفة (مسيحيّون، ولكنْ...)، وفوق كلّ ذلك، فشلهم في الزواج، والإنجاب، والعيش في الضواحي، أيْ القيام بالشيء الصحيح. أما خروفهم الأسود بحقّ فكان السيّد غوردن، لأنّه قام بكلّ ذلك. كان للسيّد غوردن متجر للأدوات الكهربائيّة لا يبعد كثيراً عن محلاّت خان، ولكنّ إحساساً حقيقيّاً بانشقاقه عن العائلة كان هو المسيطر. غرفة نومه في المنزل في شارع فليت كانت خالية، فمكانته في تلك الإمبراطوريّة تنازل عنها. جذبته الحياة بعيداً عنهم، منذ خمسين عاماً، مباشرة بعد مراسم عرسه في الكنيسة.

لم تكن إثيل فقط من خبّرني بذلك. كلّ من زاد عمره عن الخمسين كان يعلم تلك القصّة، أو على الأقل كان يعتقد أنّه يعلم.

ها قد عاد الآن السيّد غوردن ومارغريت، وبينهما ثلاثة عكاكيز. دفع الباب بعكّاز ذي كعب مطاطيّ ليفتحه لها، فدخلت ترفع جسمها الضخم، وتدرّجت فوق ألواح الأرض الخشبيّة لتستريح على كرسيّ مخصص للزبائن فقط. (كمساعدة في

المحلّ، لم يكن مسموحاً لي الجلوس على هذه الكراسي مطلقاً، كما كان عليّ الاستئذان للذهاب لقضاء حاجتي في المرحاض الخارجيّ خلف المحلّ.)

كانت مارغريت، ببنيتها المكتنزة، التي توحي بمظهر النساء في عصر الملكة فيكتوريا، ولكنْ أكثر زركشة، ترى كلّ شيء في العالم بعينيها البرّاقتين الفضوليّتين. قالت متنهّدة بمنتهى الرضا: 'آه، لم يتغيّر شيء هنا.'

'هذه هي مارغريت.' أشارت إليها إثيل في صورة، للفتيات اللاتي يظهرن لأوّل مرّة في مناسبة اجتماعيّة، كانت في مقدّم ألبوم صور للزفاف. ليس زفاف إثيل بالذات، بل مجموعة من الصور لأعراس صديقاتها. كانت إثيل وصيفة في عرس أكثر من صديقة، وخلافاً للخرافات الشائعة، لم يكن هذا هو السبب في إحباط فرص زواجها.

كانت الصور، المظهّرة بالأسود والأبيض، مثبّتة على الصفحات بواسطة زوايا ذهبيّة اللون. لكنّها قالت لي إنّ الصور تمثّل لحظات ذهبيّة مثبّتة في ذاكرتها. كانت إثيل تنسى أحياناً أنّني حفيدة ابنة أختها (لم أكن لأحصل على عملي لدى محلاّت خان دون تلك القرابة)، لكنّها لم تنس شيئاً من أيّام صباها. كنت أتوقّع أنْ ترمقني بارتباك إن سألتها عن أسماء الفتيات السبع عشرة في تلك الصورة، لكنّها شرعت تعدّد الاسم، واللقب، واللقب بعد الزواج، لكلّ الفتيات. سبع عشرة عذراء اتخذن مواضعهنّ في الصورة وفق صفّين مستقيمين، كلّ واحدة بردائها العذري الأبيض، متأكّدة أنّها في الصورة التالية ستكون واقفة إلى جانب شريك حياتها.

وقفت مارغريت الشابّة ممشوقة القامة إلى جانب أفضل صديقاتها التي تماثلها في الطول. لمعت عينا مارغريت. عينان محبوستان ضمن تفاعل كيميائيّ للضوء في مربع ورقيّ صغير دائم. أمّا عينا مونا فكانتا مسبلتين.

بعد الجرد، لم تجتمع العائلة مرّة أخرى إلاّ حين مات السيّد ويل فجأة. كان في التسعين من عمره، ولم يفوّت يوم عمل واحد.

رغم أنّني لم أتشكّ من الأمر أبداً، إلاّ أنّه لم يكن مسموحاً لي في عهده مسّ مسجّلة النقد: الآلة التي يسيطر بها على العمل. لم أكنْ موضع ثقة فيما يتعلّق بالإجراءات النقديّة، مهما كبرت أو صغرت، سواء بعت شرشف طاولة بعد لفّه في الورق الأسمر وحزمه بخيط، أو طولاً من الخام المنشّى لتستعمله الزوجة في صنع الملاءات والثياب الداخليّة، أم قبّعة، أم مشدّاً، أم دبّوساً للقبّعة، أم شبكة للشعر، أم واحداً من عشرات الكشتبانات، لم أكن موضع ثقة فيما يتعلّق بالمعاملات النقديّة. كنت أصرخ: 'صرافة، فكّة،' فينظر الزبون إليّ بالإحراج نفسه الذي كنت أشعر به، أو بالأحرى بشفقة، ونحن ننتظر قدوم السيّد ويل. كنت متأكّدة أنّه كان بإمكاني تعلّم استخدام السجلّ الوطنيّ الذي كان لا زال يعتمد الجنيهات والشلنات والبنسات، فها هي مونا أفلحت في ذلك بعد موت السيّد جون. أمّا بعد موت السيّد ويل، فاشترينا جهازاً كهربائيّاً. لم نعد بحاجة لتحويل السعر إلى المعيار الإمبراطوريّ الرسميّ، ولا الفكّة إلى النظام العشريّ ثانية. لم نعد نسمع الرنّة المعهودة، ولا قرعة إغلاق الدرج المفاجئة التي تنمّ عن انتهاء العمليّة. وتمّت إحالة السجلّ الوطنيّ إلى الطابق العلويّ، ليكون مع بقيّة ما يشكّل متحف الماضي الذي تمّ جرد نصف محتوياته.

لم يكتمل الجرد أبداً. بيوت العنكبوت التي تكاثرت على مدى الأيّام أدّت إلى تأجيل فحص كثير من العلب التي تمّ الكشف عن محتوياتها، وعدّها، وتصنيفها، وإغلاقها، ثمّ إعادتها إلى سطح الكومة. لم أفهم ما كان يدور من شجار، لا الأشياء التي قيلت، ولا تلك التي لم تقال. تكلّمت العائلة بإنكليزيّة لا لَكْنة فيها، مولودون جميعاً في المستشفى الواقعة على التلّ، التي أصبحت الآن فندقاً جميلاً من الدرجة الأولى، لكنّهم كانوا ينبسون بين كلماتهم بلغة

قديمة. لم تنبس مونا بحرف. بقيت يداها العظميّتان منشغلتان، تعدّ، وتعدّ، وتعدّ، ولسانها يطقطق حين كانت الأزرار تتجمّع في كومات متساوية، وتُعاد إلى جواريرها الصغيرة. كان ظهرها محنيّاً فوق الجوارب، المصنوعة من نايلون سوتيكس، التي تجعل من السيقان الفاتنة سيقاناً أكثر فتنة كما كان يقال، وجوارب من الحرير الخالص، بدرزة أو دون درزة، لائقة جميلة في كلا الحالين. ما كان يمكن وصف مونا على أنّها مهذارة؛ لكنْ يبدو أنّها الآن كانت تتبع نصيحة والدتي: إذا لم يكن بإمكانك قول شيء جميل، لا تقل شيئاً البتّة.

عندما مات السيّد ويل، أكبرهم، وزعيم قبيلتهم، كان للعائلة شعارها الذي أعلنت. قالوا، وكلّنا وافقنا: عندما يموت عجوز، تُغلق مكتبة.

تصرّف من بقي على قيد الحياة من عائلة خان وكأنّ الأمر ليس مجرّد صرح محليّ يتداعى، بل كأنّه حريق هائل، وزلزال جبّار يقضي على مكتبة الإسكندريّة العتيقة التي لا تضاهى. بكى السيّد غوردن علناً أثناء مراسم الدفن متّكئاً على ابنين لهما ملامح عمر الشريف. وقفت مونا ومارغريت جنباً إلى جنب قرب القبر، كالعادة لا تكلّم إحداهما الأخرى، ترتديان حلّتين سوداوين متماثلتين، كما كانتا بحلّتيهما البيضاوين في صورة السبع عشرة فتاة. حضرت المدينة كلّها لتلقي نظرة على مشهد حقبة من الزمن تذهب إلى غير رجعة. كانوا يرون مجرّد متجر، والحقّ يقال متجر مذهل، في طريقه إلى بيع محتوياته بأبخس الأسعار بسبب الإغلاق. أمّا بالنسبة إلى مونا، فكانت تلك نهاية العالم. استطاعت ضبط ذلك الجانب من يأسها بضراوة، لكنّه كان مرعباً لمن ينظر إليه.

حاولَتْ الإبقاء على محلّات خان مفتوحة. كابرت مونا على المحسوس وأنكرت ما لا بدّ منه، واستقبلت الباعة المسافرين بتجديد طلباتهم. حتّى أنّها لأوّل مرّة تفكّر في إدخال صنف

المرابيل المصنوعة من الفينيل، متغاضية عن حقيقة أنّ المرابيل القطنيّة هي دعامة أساس لكلّ الزبائن الذين كانوا يشعرون أنّهم بلا ثياب دون تلك المرابيل. كان الصنف المفضل هو "أدميرايشن"، وجاءت دعايته على الشكل التالي: "يصلح ارتداؤه حتّى الباب". حاولتُ إلقاء فكاهة حول ظهور النسوة على باب المتجر لايرتدين سوى المرابيل، لكنّ مونا لم تضحك. ربّما ضحكت مرّة واحدة فقط.

غاب عن المشهد أيضاً تلك الأغاني التي كانت تنطلق فجأة. صوت مونا كان جميلاً، نادراً ما يُستخدم، نفيساً حين كان يرجع صداه من على المناضد وهي تحرّك مقصّها الطويل فتحاً وإغلاقاً. الأغنية الوحيدة التي تستطيع أنْ تغنيها، في سنّها المتقدّم هذا، أصبحت صرير عظامها من البرد.

تابعت القيام بواجبها، وتابعتُ واجباتي. إذا لم يكن الزبون معروفاً لدينا، تبعته خطوة خطوة كما علّمني السيّد ويل في يومي الأوّل. لا خدمة ذاتيّة في محلاّت خان، ولا سرقة معروضات. ذات يوم كان الزبون الغريب من شركة سينمائيّة يريد شراء النماذج والمعروضات الأنيقة في الواجهات. ردّته مونا. المخزون للبيع فقط، وليس تجهيزات الواجهات. لا تهاود في هذا الأمر.

كلّما امتنعت مونا عن الكلام، كلّما ازددت شوقاً للمعرفة. لم يبق لها أيّ متعة في عملها، فلماذا لا تبوح بكلّ شيء؟

إثيل كانت تفيض بمكنوناتها. التخلّي عن الحاضر، والعودة أكثر إلى تلك الذكريات الذهبيّة، والفضيّة، والياقوتيّة لأيّام أفضل، حين كانت الأمّ فخورة بوليدها الجديد، أو المرأة تبكي في جنازة زوجها بعد الحرب العالميّة الثانية، أو المرأة التي تقبّل عشيقها، أو التي تسخّن الطعام في أوّل فرن كهربائيّ تشتري، تستقلّ الترام، تركض، ترقص بلا قيد أو شرط.

كنت أسألها عن عائلة خان، وكانت تجيب. كنت أسألها

عن نفسها، فماذا عساها تجيب؟ مونا العانس، التي تبيع الصبايا الجميلات زيت الخزامى وملابس داخليّة من الساتان، مونا التي لا ولد لها تحدّق إلى زوجة أخيها ترضع طفلها الأوّل، تحدّق والغيرة تملأ قلبها. مونا الشابة، الطويلة، السمراء، المستقيمة، الأنيقة، الضاحكة.

كانوا يضحكون في الطابق العلويّ، في أعلى الدرج بدرابزينه المنقوش، هنالك فوق المتجر، يضحكون وهم يستعملون غرفة المستودع كورشة عمل لإنهاء ثياب حفل تقديم الصبايا للمجتمع. سيأتين سويّاً: مونا، ومارغريت، وإثيل، وسيقدّمن لحاكم الولاية في قاعة التقانة، ولسوف يرقصن أطول ممّا رقصت سندريللا.

سارعت إثيل إلى الطابق الأرضي لتلبّي نداء السيّد جون للمساعدة، السيّد جون الوسيم، ربّما سيراقصها عشيّة يوم السبت. عادت إلى أعلى الدرج، بهدوء، في حلمها، وقفت على العتبة، رأت مونا ومارغريت، ملاكين بالأبيض يقفان قريباً منها. لم تدخل، ولم تغضّ الطرف. طوت مارغريت يد مونا اليسرى بيدها، وقرّبتها من شفتيها، وأعملت فيها تقبيلاً، كلّ إصبع بمفرده، قُبَلٌ كقبل الفراشات، توّاقة إلى مص الرحيق الحلو، لحظة وديعة، همسة، وتنهيدة. أعادت يد صديقتها إلى القوس المغمور بخطّ العنق بين ثدييها.

تنهّدت إثيل وقتها، وتنهّدت اليوم، معي هنا. قالت إنّهما جميلتان: مارغريت كما نعهدها، ومونا بالحمرة التي صبغت وجنتيها الشاحبتين عادة. كانت مونا رابطة الجأش، تحتوي المستقبل كلّه بقوّة الإرادة، وكأنّها برعم وردة، طبقات من البتلات الملتفّة على نفسها، مشدودة، ثمّ تتحرّر، على وشك التفتّح تحت الشمس المستيقظة. ابتسامة مارغريت المشرقة كالشمس وقعت على كلّ زاوية من زوايا الغرفة قبل أنْ تعيد مجموعة من الدبابيس إلى فمها وتشغل نفسها بحاشية ثوب مونا. دفعت إثيل نفسها عبر

جوّ الغرفة المكهرب.

لم أكن لأذكر هذا بالطبع، همست إثيل في كرسيّها. آه، هذا لم يحدث أبداً. يالغبائي، يالغبائي. مارغريت تزوّجت غوردن. أطال تقبيلها في الكنيسة فكبت الحشد ضحكاته.

استمرّت إثيل بسرد قصصها واحدة تلو الأخرى، دون توقّف، لكنّ الذاكرة انتقائيّة، وأنا لا أتذكر سوى تلك القصّة.

نظرتُ ثانية إلى صورة الحفل الراقص لتقديم الفتيات. لم يحو ثوب مونا على خط عنق مغمور. قطعة من القماش المزركش سترت بشرتها، وأحاطت برقبتها بإحكام. لم تستطع وضع عينيها بعين الكاميرا.

تفتح محلاّت خان أبوابها الآن يومين في الأسبوع، إلى أن يُباع المخزون بكامله. التجهيزات للبيع أيضاً.

تدهورت صحة مونا تدريجياً، فمن التأخّر في الحضور صباحاً إلى التغيّب في بعض الأيّام، وحتّى ملازمة السرير تماماً. باحت بأسرارها أخيراً، حديث لا نهاية له عن إمبراطوريّات وقوافل، وطرق حرير، وثروات، وأميرات، أميرات جميلات محبوسات في قلاع فخمة. كانت تلك قصص أحلامها الشبابيّة، القصص التي كانت تتلى وهي جاثمة أمام ركبة والدتها، تأسرها من جديد.

كانت لا زالت ربّة عملي، سواء في المتجر أو جانب سريرها بما كنت أقوم به من تمريض بسيط. وزّعت وقتي بين محلاّت خان والمنزل في شارع فليت، رقم 93، المنزل المختفي وراء الأغصان الكثيفة. لم تكن لتلك العائلة مروج مخضرّة أنيقة، وأشجار كاميليا مشوّهة بجزها وقصّها في أوقات الفراغ. الأشجار التي سبق زرعها في الماضي المبهم كانت من الأنواع المحلّيّة: كينا، كاليستمون (فرشاة القارورة)، واتل. نمت تلك الأشجار لتحجب المنزل عن العيون العابرة المتطفّلة.

لابدّ من أنْ أستطلع الأمور. كان عليّ أنْ أسأل أشياء

كثيرة، وأحمل الأجوبة معي إلى محلاّت خان. مثلاً ما معنى ذلك الرمز الذي يبدو عربيّاً على بطاقات الأسعار؟ كانت تلك شِفرة لتدوين أسعار الكلفة، ولكنْ هل كانت أيضاً نقطة وصل مع الماضي، تذكرة بالعالم القديم؟ كيف لي تفسيرها؟ علّمتني الشِفرة، لكنّها لم تقل لي ما أردت معرفته فعلاً.

أخيراً قالت: 'شكراً.' لم تقل شيئاً آخر، ورأسها يستند على كيس وسادة قطنيّ أبيض، وكأنّه من هيكل عظميّ، والشعر الشائب مرفوع مربوط، والرموش الداكنة ترتاح على خدّيها إلى الأبد. كانت برعم وردة ذابل، بقي على حاله دون أنْ يزهر.

أحبّ أنْ أعتقد أنّها كانت تشكرني لأنّني لم أسألها عن أشياء لا تستطيع الإجابة عنها.

ماتت إثيل في الأسبوع نفسه. مكتباتي أغلقت أبوابها. تحوّل التاريخ إلى أسطورة.

المخلصات من الزبائن كنّ يحضرن ليشترين المشدّات العتيقة الطراز التي فُقد الأمل من بيعها، وغيرها من مخلّفات عهد ولّى، أيّام فتح المحلاّت خلال اليومين في الأسبوع. يتساءلن بقلق عن مصدر البضائع المستقبليّ، وهنّ يلعبن بالمقصّ المربوط بإحكام إلى سطح المنضدة، ويفردن لفّة الورق الأسمر، ويلمسن كلّ الأشياء التي ما تجرأن على لمسها أمام أعين السيّد ويل، والسيّد جون، ومونا.

يسألن، ما الذي سيحدث الآن؟ يسألن، لماذا يجب إغلاق المحلّ؟ لا يصدّقن فعلاً أنّ المحلاّت ستغلق نهائيّاً، وهنّ يحدّقن إلى أعلى الدرج ويسألن، ماذا يوجد هناك، ألا نستطيع أنْ نرى، هذه المرّة فقط؟

يتدخّلن فيما لا يعنيهنّ لجمع المعلومات عن عائلة خان، ذلك النصب التذكاريّ للواجب. زاد انجذابهنّ لشيء يتسرب من بين أيديهنّ دون قدرتهنّ على التقاطه. يحاولن تحديده بالحقائق، ليحزنّ على ذهابه بطريقة أفضل. لكنّنا لن نعلم أبداً.

جاين داونينغ كاتبة قصّة قصيرة وشعر. أصدرت مجموعة من القصص القصيرة عام 1999، وأوّل رواية لها عام 2003. نشر الأصل الإنكليزيّ لـ"محلاّت خان" كما يلي.

Khans of Prune Street, by **Jane Downing**, was published in *Kalimat* 17, March 2004, Sydney.

إيفا ساليس

مُنيرَة والوَجبةُ العَامِرَة

بدأ يوم منيرة رديئاً. كانت توصل ابنتها بالسيّارة إلى المدرسة فتعرّضت لحادث سبّب لها انزعاجاً كبيراً. السيّارة ما عادت تصلح، وما عادت قابلة للتسجيل. سبق لها مخابرة زوجها وبكت. خابرت الشرطة وبكت. وصلت إلى المنزل مرتبكة، لأنّها بكت أمام سائق شاحنة القَطْر، ثمّ ترتّب عليها مخابرة ريّا وإلهام لتخبرهما أنّ الغداء الذي كانت تنظّمه قد ألغي.

'حادث! يا رب! يا إلهي! هل أنت بخير حبيبتي؟ والسيّارة؟ بإمكاننا أخذ سيّارتي. أعلم أنّه ليس لدي رخصة قيادة، ولكنّك تملكين واحدة. بإمكان أسامه أنْ يصطحبني إلى بيتك، ثمّ نذهب من هناك. أعلّم أنّ أسامة لم يتجاوز الثانية عشرة، لكنّه سائق ممتاز إذا ما وضعنا على المقعد وسادتين. حبيبتي، أنت بحاجة لتغيير الجوّ. سنبعث الحبور فيك. حبيبتي، سأراك خلال دقيقة.'

أنهت ريّا المكالمة. كانت مستميتة للخروج للغداء. جلست منيرة متعبة. بكت قليلاً. ثمّ سارعت إلى غرفة النوم، وارتدت أكثر ما استجدّ وأنعش من ثيابها، ووضعت بعض أحمر الشفاه والكحل، فرسمت خطّاً طويلاً تحت عينيها لتخفي نفسها وراء نمط مصريّ. سمعت السيّارة تقتحم الدرب صعوداً باندفاعات لا تدل على الخبرة، وحين تنكّرت أنّ أسامة لا يمكنه، في طريق صاعدة، سوى رؤية السماء، أكانت تحته وسائد أم لا، انتزعت

حقيبة يدها وهرعت خارجة، تلوّح بيديها بقلق. ’أوقفْ السيّارة على الطريق العامّ! على الطريق العامّ!‘ لم تكن متأكّدة كيف سيمكنها إخراج سيّارة غريبة من درب مدخل بيتها، خصوصاً قيادتها إلى الوراء.

ظهر لها فجأة وجه أسامة الصغير بابتسامة عريضة، يحدّق إليها من خلال زجاج سيارتهم "هولدن إتش دي برمبير" الجديدة. كان يقف على المكبح، وما كان يستطيع رفع يده عن المقود للتلويح. أمّا وجه ريّا المتورّد فبدت عليه نسخة أكبر حجماً من تعابير الوجه نفسها، مشوبة بالانتصار.

كرَّ أسامة السيّارة إلى الخلف عبر سلسلة من صيحات أمّه، فترنّحت السيّارة إلى أنْ استقرّت أخيراً على الطريق العامّ.

شعرت منيرة الآن بوجع رأسها يزداد في حدّته.

قبّلتها ريّا بسعادة، وهي تصرخ كلّ الوقت بحزن، ’يا مسكينة! الحمد لله أنّك بخير. شكراً لله. كان لا بدّ أنْ أطمئنّ بنفسي. جئت فوراً. كيف حالك؟ تبدين رائعة! أسرعي، حبيبتي، سنوصل أسامة للمنزل، ثمّ نحضر إلهام!‘

أقحمت منيرة نفسها في المقعد، حين كانت الشجاعة التي استمدّتها من طقمها الأنيق ذي البلطال الأحمر تُستنزف منها وهي تواجه آليّة غريبة عنها. طفوا ببطء عبر الطريق. بسم الله الرّحمن الرّحيم، ربّ سهّل أمرنا. لمست منيرة حقيبة يدها الحمراء على حُجرها للاطمئنان. ما نستها. كان هذا هو الأهم.

زحفوا بسرعة عشرين ميلاً في الساعة نحو منزل ريّا، ثمّ منزل إلهام. لم تكن منيرة بحاجة لإخبار إلهام بالقصّة، لأنّ ريّا أخبرتها القصّة دفعة واحدة كسيل لا ينقطع، وأضافت كلّ التفاصيل التي لم تخبرها إيّاها منيرة بعد. من العجيب أنّ قصّة ريّا كانت دقيقة.

’جاء مسرعاً بضجيج عبر تقاطع الطرق فلم تره، وماذا كان بإمكانها أنْ تفعل، حبيبتنا المسكينة، سوى أنْ تصطدم به. لم

ير مطلقاً، وكلّ إشارات المرور كانت حمراء، والسيّارة مكسّرة تماماً، لكنْ الحمد لله منيرة لم تصب بأذى مطلقاً. يتعاطى المخدّرات كثيراً!'

'يا ربّ! يا ربّ! الحمد لله أنّك بخير! اتركيها على التأمين. بإذن الله سيتدبرون الأمر. دعي الأمر لزوجك.'

انطلقن نحو مطعم "ذي فيذرز"، تتذمّرن وتواسي إحداهنّ الأخرى، فصار الجوّ أكثر لطفاً، وبدأت منيرة تقود السيّارة بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة. ولكنْ ما أنْ بدأ وجع رأسها بالانحسار، حتّى دبّ فيها رعب شائك من قاعدة عمودها الفقري حتّى نهايات شعر رأسها. هل وضعت أيّ نقود في حقيبة يدها الحمراء؟

بوقٌ دوّى وعجلات صرخت خلفها. تبعثر تركيزها، ولا زالت بصيرتها غائبة عن عينيها. ترجّحت السيّارة على الطريق حين كانت إلهام وريّا تصيحان 'بسم الله الرحمن الرحيم' بتناغم.

'يا منيرة!' زعقت ريّا، 'هل تريدين قتلنا؟' ثمّ صرخت دون أنْ تغيّر من درجة ارتفاع صوتها، 'العمّ سام! سام منصور يقطن هنا! توقّفي! لنر فيما إذا كانت عائدة في البيت!' لم تعرف منيرة ما تقول، لكنّ ذهنها كان في حالة سباق. كيف لي أنْ أدفع عنهنّ؟ يا للعار! كيف سأدفع من أجل غداء دعوتهنّ إليه!

توقّفت منيرة عند مدخل منزل العمّ سام. عائدة لم تكن هناك. سأل سام بفضول، 'أين تذهبن؟' 'إلى مطعم "ذي فيذرز" للغداء.' 'ليس لديّ ما أقوم به اليوم. ربّما أذهب معكنّ!' قال مبتهجاً. 'آه أهلاً بك!' قالت منيرة، صوتها المتملّق يطفو فوق رعبها الداخلي.

خرج العمّ سام باتجاه السيّارة. وتمّ تبادل السؤال عن صحة الأفراد والعائلة. وتوجّه مخاطباً منيرة: 'لا يمكنني ذلك يا منيرة،' قال بحياء. 'إنّه غداء سيّدات.' ضحكت منيرة، وصوتها يطفو في مكان ما فوق رأسها، مهذّباً رابط الجأش، 'عندها ستكون

أنت وردة بين الأشواك.'

فتحت ريّا وإلهام الباب، وأشارتا إليه بالدخول. استسلَم بسرعة. تخدّرت فروة رأس منيرة. العمّ سام يحبّ بطنه. على الأقل عائدة تأكل كما يأكل الطير.

حين استقرّوا حول الطاولة في المطعم كان ذهن منيرة مشغولاً. قرأت لائحة الطعام، وهي تتحدّث إلى إلهام قليلاً. 'أقسم لك يا إلهام، أنّني كدت أموت!' 'يا حبيبتي، يبدو أنّك تتقبلين الأمر بيسر. لو حدث هذا معي لمتُّ فعلاً.' أمّا ريّا فقالت، 'متّ! يا ربّ! الحمد لله أنّه سبق تحذيري بهاجس نفسيّ، وإلاّ كنت متّ اللحظة التي خبرتني فيها يا منيرة!' نظرت إليها منيرة وكأنّها لا تراها. 'ماذا تطلبين يا عزيزتي؟' سألتها بقلق، وهي تحسّ بأصابعها تنزف عرقاً فوق لائحة الطعام الأنيقة.

وجّهوا اهتمامهم نحو الطعام، وقد أبدى الجميع إعجابه بقابليّة منيرة على التركيز على الأشياء العاديّة بعد تجربة كهذه. اختارت منيرة أرخص بند على لائحة الطعام يمكن به إرضاء ضيوفها، وإشعارهم بأنّها تشاركهم الطعام! صحن صغير من سلطة قيصر. واستمعت برهبة لما طلبه الآخرون. طلبت إلهام "فيليه منيون" مع الخضار، وطلبت ريّا شريحة لحم "بورتر هاوس"، وطلب سام نصف بقرة!

أثناء انتظارهم، نهض سام وذهب إلى المرحاض. وذهبت إلهام إلى المرحاض النسائيّ. هسهست منيرة، 'يا ريّا، هل بحوزتك أيّ نقود؟ الحادث أرهقني، وأنا لم أتفقّد حوائجي، ولا أعرف ما أفعل، وطبعاً سأردّها لك فور عودتنا إلى المنزل!' توسّعت أحداق ريّا. احمر وجه منيرة كثيراً، ولكنّ اليأس دفعها لهذا الطلب. لم تقلّل من تحديقها. وبدا أنّ ريّا مكتئبة.

'يا عزيزتي منيرة، تعلمين أنّني لا أحمل النقود مطلقاً إلاّ إذا اضطررت لذلك! ليس لديّ ولا بنس واحد، أُنظري!' وقبل أنْ تتمكّن منيرة من إيقافها، أفرغت محتويات حقيبة يدها التي لا

تحوي سوى أقلام الحمرة والمناديل. سام كان في طريق عودته فدفعت منيرة الحقيبة من على الطاولة.

تناولوا الطعام، ومثّلت منيرة دور من يستمتع بغداء مُرضٍ طويل. اقتربت النهاية، وملأ الرعب قلبها فيما كانوا يلتقطون آخر اللقم بشوكاتهم المخطّطة. وبدا أنّ كلّ شيء ينتقل إلى النهاية الحتميّة لكابوس يمرّ على إيقاع ساعة بطيئة الثواني.

مالَ العمّ سام للخلف. 'يا إلهي!' قال والسعادة على وجهه. 'يالطيف! ذلك اللحم! أفضل شريحة ذقت! هذا طعام جنّات النعيم في السماء السابعة! كما تعلمون، لا يمكن أنْ أترك هكذا تجربة تمرّ دون أنْ أتفحّص كلّ خلل فيها. سأطلب مرّة ثانية! يا منيرة، تبدين جائعة. كما أنّك نحيلة جدّاً! ألاّ يعذّبك هذا الطعام؟ يجب أنْ تشاركيني.'

اعترضت منيرة. فهي شبعانة كما يمكن للشبعان أنْ يكون. أكلت جبالاً من الطعام. ولا يمكنها إدخال أيّ كسرة حتّى لو اعتمدت حياتها عليها.

'ريّا؟ إلهام؟ هيّا، شاركاني. لا يمكن أنْ آكل وحدي أمامكنّ!'

طلبوا. ريّا طلبت سلطة بعد أنْ رفستها منيرة من تحت الطاولة. وكان على منيرة أنْ تطلب بعض الخبز لإظهار المشاركة. وأدّت دورها في هذا المستوى الثاني لجهنّم الحمراء.

ماذا يحدث في المطاعم حين لا تستطيع الدفع؟ ما كان يمكنها التفكير في ذلك، ولا حتّى من باب الاحتمال، ولكنْ تساءلت فيما لو كانت ستبقى على حالها بعد أنْ يلحق بها عار اكتشاف أمرها. كان وجهها وكأنّه على موقد، ثمّ تصبّب عرقاً، فصار نديّاً، فشاحباً. تعجّبت كيف أنّهم ما رأوا عذابها. انساب صوتها كالنسيم العليل، يعميهم بحسنه عن مصدره: تلك الروح المتضوّرة كرباً.

سبّح سام ربّه بعد بَحْثِهِ في كشف أغوار الطعام. قال حقّاً إن هذا الطبّاخ من الجنّة، وهذه البقرة من الجنّة، وهذا

المطعم ليس من هذه الأرض. لكنّ الاختبار الحقّ هو في الحلوى.

طلبوا. وطلب سام لمنيرة، صادّاً كلّ محاولاتها لخطف اللائحة من بين يديه المعاندتين بطريقتها المرحة. فطيرة "كريب سوزيت". وضع الطبق الملتهب أمامها، فأكلت الشراب المصهور للطبقة التالية من العذاب. ما استطاعت تذوّقه. أداؤها كان معصوماً. ولضحكتها نبرة مثل رنين الماء، منعش، بارد، يجري في قنوات هندسة السعادة، وعمارات راحة البال. وأطلق العمّ سام فكاهات حول كونه محاطاً بحوريّات الجنّة، ويشرب خمر المنعمين الصافي. ضحكت إلهام وريّا، وصفّقتا بحبور، وهما ترشفان "الجيلاتي" والفاكهة المجفّفة. تبخّرت قطع الحلوى المتقنة من على الصحون. وبدا واضحاً لمنيرة أنّ هذه الوجبة كانت من أجمل وجبات الغداء. اتضح لها هذا وكأنّها كانت تسمع عن هذا الغداء أكثر ممّا كانت تتذوّقه. مطعم "فيذرز" كان فكرة ناجحة. اختيار ممتاز. امتلأ فمها بمذاق مرّ.

مال سام للخلف. 'أنا لا أصدّق هذا! فعلاً لا أصدّق هذا! أوّلاً الوجبة الرئيسة، وبعدها الحلوى! كيف يتقنون ذلك. هل رأيتم مثل هذا من قبل؟ لا بدّ من أنْ أطلب المزيد. لا يمكن إضاعة مثل هذه التجربة!'

رفست منيرة ريّا رفسة قوية تحت الطاولة، وهي تحلف في ذهنها أغلظ الأيمان، لاعنة والدتها. 'يوه! لا يمكنني!' قالت ريّا، كما لو أنّها في ألم. 'أنا ممتلئة تماماً!'

'هيّا، إلهام. لا تستحي!' وهكذا رافقته إلهام.

سرد العمّ عليهن فكاهات فيما كان الجميع ينتظر.

بدويان كانا في الصحراء ينتظران حلول الليل. تنهّد أحدهما بشوق، 'إيه، على حلويّات دمشق!' 'ما شكلها؟' قال الثاني. 'حلوة! حلوة جدّاً! وكأنّها من الجنّة. حلوة!' 'خبّرني أكثر!' 'العسل! السكّر! القطر! العطور! يا لطيف.' 'أنت محظوظ جدّاً! متى تذوّقتها؟' 'لم أذقها. لم أذهب قطّ إلى دمشق. لكنّ جمّال أبي

زارها، ورأى أحدهم يأكل تلك الحلوى.'

الجولة الثانية من الحلوى قُدّمت. النهاية صارت وشيكة، وأدرينالين منيرة كان يتدفّق. نظرت إليها ريّا نظرة المنعم عليه إلى المغضوب عليه: فضول، شفقة، ابتعاد. طلبت منيرة الحساب. وجلست تتكلّم ببعض السرعة، تتنفّس ببعض السرعة. تنتظر وقلبها يطرق متثاقلاً في صدرها. فكّرت بالمجرم الذي ينتظر، وهو يسمع الكلاب تقترب. فكّرت بالإغماء، أو إشهار أنّها حامل، أو إيجاد شيء مريع في القهوة. سُلّمت ورقة الحساب لها، قبضت على حقيبة يدها، وطارت بها إلى مغاسل السيّدات. وبمجرّد أنْ أُغلق الباب نظرت إلى الورقة. المسرّات واللذائذ التي استهلكت ذلك اليوم تمّ تفصيلها هنا الواحدة تلو الأخرى. وهناك في أسفل القائمة بخطّ يد صغير، المجموع. نظرت إلى المرآة. جدّدت حمرة شفتيها، وضبطت شعرها بيدها كنحّات يصنع تمثالاً، وتفحّصت في هيئتها. كانت شاحبة صارمة المظهر، العينان الداكنتان تشعّان وتحترقان. بدت فخورة يائسة، غادرتها حيويّة الشباب، وتلك النظرات المغناجة. بدت جليلة المظهر. بذلتها ذات البلطال أبانت تحت السترة الأنيقة فخذاً مستديراً أحمر. ثدياها مرتفعان فوق صدرها، كرتان جميلتان مرسومتان بخطّ الدرز الناعم الذي هبط إلى خصرها القرمزيّ. أحمر الشفاه والقماش في تناسق تام. وشعرها الأحمر البرّاق انتصب بموجات مصقولة، شعر ينساب فنيّاً من جبينها الناصع إلى الخلف، طيّةً فوق طيّة، في لون وافر الحَبْك. العقصات المثيرة فوق صدغيها لا زالت سليمة. ما عادت تتنعرق، ما عادت خائفة. في مكان ما في داخلها استمدّت الشجاعة لتواجه الخجل، والعار، والرعب. ما عادت تخشى ما ستقوله أو تفعله. آن الأوان.

توقّفت قليلاً، ثمّ، بعد أنْ قبلت بما ليس منه بد، وفي تأرجحها بين فضولها العارم وبين رغبتها الحمقاء في تأجيل التنفيذ للحظة جميلة واحدة، أفرغت حقيبة يدها على الرخام

لترى مقدار ما لديها من نقود. حقيبتها الحمراء كانت الأثيرة لديها لمدّة طويلة. تصطحبها معها من مكان لمكان. حقيبة لا شبه لها بحقيبة ريّا على الإطلاق! ما كانت أعجوبة يوم واحد مصنوعة من أحمر الشفاه والمناديل. حَوَتْ كهوفاً فيها ذخائر مطمورة، منسيّة منذ زمن طويل. تدفّقت البنسات والشلنات، ماء ينزل على أرض عطشى. عَدَّتها. إلى آخر نصف بنس، وكان لديها ما يكفي!

’يا منيرة هل تذكرين "ذي فيذرز"؟ إيه، الحلويات! الجنّة! يجب أنْ نذهب ثانية في يوم من الأيّام.‘

لكنّ منيرة لم تذهب إلى هناك مرّة أخرى.

إيفا ساليس (إيفا هورننغ) كاتبة وأكاديميّة في جامعة جنوب أستراليا. حصلت على جائزة "فوغل/أستراليان" لعام 1997 عن روايتها الأولى "هيام"، تبعها عدد من الأعمال والجوائز. نشر أصل قصّة "منيرة والوجبة العامرة" الإنكليزيّ تحت عنوان مختلف كما هو مبين أدناه.

Munira's Bad Day Out, by **Eva Sallis** (**Eva Hornung**), was published in *Heat* 9, 1998.

توماس شابكوت

القبّعة الحمراء

لم يكن يخشى عمّته مطلقاً. كلّ ما في الأمر أنّها كانت خفيفة التحرّك، وكان عليه إدراكها؛ لا مجال للتخاذل! وفي المرّات القليلة التي بات عندها، كانت تستيقظ باكراً جدّاً لدرجة الإزعاج. مع العلم أنّ استيقاظها المبكّر هذا لم يزعج عمّه أبداً. لاشيء يزعج العمّ "بات". لا زال مارك يذكر تماماً المرّة الأولى التي أيقظته فيها تحرّكات عمّته، ناهيك باضطرابه لوجوده في سرير غريب، وكيف تناهت إلى مسامعه أصوات خدْش ونبْش أتت مستمرّة من وراء النافذة الواهية، ذات الزجاج الهشّ العتيق.

وأخيراً غلبه شوقه العارم لمعرفة ما يجري. رفع رأسه وكتفيه، فرِحاً بالبيجاما الفلانيليت السميكة التي وجدتها العمّة أولغا له (على الأغلب واحدة من بيجامات العمّ بات)، ثمّ حدّق إلى خارج النافذة. كانت عمّته تحته تماماً، تزيل الأعشاب الضارّة من مسْكبة الحديقة المجانبة للمنزل— تزرع البتونيا، كما اتضح. كانت الساعة زهاء الخامسة صباحاً.

عندما سألها أثناء تناول الإفطار – بيض مسلوق مع شرائح خبز محمّص – لماذا سبق لها الاستيقاظ الباكر ذاك، ضحكت وغرزت أصابعها القويّة الطويلة في شعره الأشعث. 'بإمكاني التغلّب عليك أيّ يوم يا صاحبي. أفضل الأوقات الإبكار. اِسْبق الشمس، تلك هي الفكرة! هل تريد مشاركتي غداً؟ المسْكبة الأماميّة كلّها بحاجة للزرع.'

لا يمكن لأحد أنْ يسحبه من السرير بهذه السهولة غير العمّة أولغا. كان جاهزاً فعلاً، بكامل لباسه، يحوم في الشرفة الأماميّة الصغيرة، ينتظر مرورها مندفعة أمامه كالصّاروخ. رمت له أداة حفْر (التقطها بارتباك، ولكنّه استطاع منعها من الارتطام بالبلاط) وسارعت إلى العمل بلمح البصر. أمّا العمّ بات فكان كعادته يتسكّع في سريره بانتظار كوبه الصباحيّ عند الساعة السابعة.

كان للعمّة أولغا حضور دائم في أحاديثهم العائليّة. وكم كانت مفاجأة مارك كبيرة حين علّق والده عَرَضاً، وكأنّه يتابع قراءة عناوين جريدته الصباحيّة ذات ثلاثاء، دون أيّ تغيير بنبرة صوته، أنّ العمّة أولغا لابدّ أنْ تكون في هذه الدقيقة في طريقها إلى المطار في "ك. ل." وكان سؤال مارك الأوّل: 'أين تقع ك.ل.؟'، لكنّ هذا كان مجرّد تورية لاستيائه من أنّ أحداً لم يخبره.

سبق لمارك أنْ استخلص الجواب من مصرف ذاكرته حول برامج السياحة التلفازيّة، ومن وظيفة قام بها مؤخّراً، قبل أنْ تشرح له والدته أنّ ك.ل. ترمز إلى كوالالمبور، في ماليزيا، لكنّ شعوره بالإهانة علق به. 'كم ستكون مدّة رحلتها، وهل يرافقها العمّ بات؟' وكان يعلم أنّه يجب أنْ لا يضيف 'ولماذا لم يخبراني؟' كان هناك قبل أسبوعين فقط وساعد العمّة أولغا بقطف آخر ثمار البندورة، وتعليبها. كانت العمّة أولغا في قمّة هذرها ولغوها. الآن بإمكانه أنْ يحزر السبب.

كان العمّ بات في سيدني خلال الأسبوع الذي كانت فيه أولغا مسافرة، كما وضّح والد مارك وهو يبتسم ناظراً إلى والدته بواحدة من تلك البسمات التي بدأت تترك أثرها على مارك. شعر أنّه مهمّش. فهناك إشارات وتلميحات تملأ المكان، وهي إمّا جديدة أو أنّه لم يتنبّه إليها سابقاً. سبق لوالديه أنْ أشركاه في كلّ ما يدور بينهما. شجّعاه وهو طفل أنْ يبوح بمكنونات ذاته ويعبّر عن نفسه، وأنْ لا يترك شيئاً ثقيلاً على قلبه كما كان يقول والده.

والعمّة أولغا، بشكل خاصّ، كانت تنصت إليه ولم تكن عادة من يجرّه إلى جدل طويل حين يبغي مواصلة اهتماماته بألعابٍ ونشاطات يحبّها مثل "مونكي"، خصوصاً حين كان بعضها بدعة جديدة مثل "تريفيال بيرسوت". هذا كان من قبل.

قبل دروس القواعد، وقبل أنْ يسمع مصادفةً الإشارة إلى عبارة "ثرثارة" (مع أنّ العمّة أولغا هاجمت والده حين تفوّه بذلك؛ بقي يشعر بالألم). تغيّرت أشياء كثيرة في السنة الأخيرة. جنون: كلّما تقدّم في العمر، كلّما عامله والداه كطفل؛ حتّى كأنّهما لم يدركا التغييرات التي كانت تطرأ عليه.

كأنّ مارك لم يكن هذا الشيء أو ذاك، لا كبير ولا صغير. كان هو نفسه.

أقحم والده نفسه وفاجأه الأسبوع الماضي وهو في الحمّام يتفحّص الشعر تحت إبطه. 'موسى للحلاقة هديّة عيد ميلادك القادم، ما رأيك ياصبيّ؟' قال والده، لكنْ لا يمكن للمزاح مهما كثر إخفاء ذلّه. بدأ مارك بإقفال الأبواب. لو سمعت العمّة أولغا بذلك لجعلت منه مادّة فكاهيّة بامتياز، ولكان مارك غشي ضاحكاً.

أو تلك المرّة التي جرّته والدته حولها، وهي تحمل قماش الستائر الجديدة لغرفة الطعام بينما كانت تثني وتقيس، وفمها مليء بالدبابيس. شعر كأنّه مغفّل، خصوصاً أنّ الأمر استغرق وقتاً طويلاً. مكسوٌّ بقماش مزركش بالأزهار من رأسه حتى قدميه حين رمت عليه والدته الستارة ما قبل الأخيرة. قالت فيما بعد إنّها كانت تمزح. تمزح! حسناً، ها هي العمّة أولغا تندفع داخلة في تلك اللحظة، وبلمح البصر صرخت: 'إنه شيخ العرب، يا جينفر، أيّها الحصان الأسود! لماذا لم تخبريني أنّ عشيقك الشرقيّ يساعدك بهذه الشهامة؟'

قهقهت الامرأتان، لكنّ مارك لم يقهقه. خلّص نفسه من تحت الستائر الثقيلة واندفع، ليس باتجاه غرفته، وإنّما خارجاً

حيث وجد كرة القدم وبدأ يرفسها بشدّة لنحو نصف الساعة، متعمّداً إصابة حوض أزهار الأضاليا التي تحبّها أمّه. وأخيراً ذهبت العمّة أولغا إليه وغيّرت مزاجه؛ هدّدته بأن تصبغه بأحمر شفاهها— 'مع أنّك لا تحتاج إلى ذلك نظراً للونك الجميل،' قالت لمجرّد السخرية. رفس الكرة باتجاه بطنها تماماً لكنّها قفزت وبرشاقة تامّة حرفتها جانباً بحذائها. أعجبه ذلك كثيراً ولم يستطع إخفاء مشاعره تلك. ولهذا انتهى أمرهما في مشادّة حينما عانقته عناق الدبّ وبدأت تتظاهر بجلده. أحبّها أكثر من بقيّة أفراد عائلته.

لماذا تذهب خلسة إذن؟ وإلى ماليزيا؟ ماذا كانت تفعل هناك؟ كان بإمكانه إفادتها الكثير عن ماليزيا لو أنّها سألته. قام بمشروع حول مزارع المطّاط السنة الماضية؛ لا زال يحتفظ بدفتر وظيفته.

كما أنّه شاهد الفيلم التلفازيّ الوثائقيّ عن ولاية صباح. كم تمنّى لو أنّه سجّله على الفيديو لكنّك لا تفكّر بذلك في الوقت المناسب، مع أنّه تذكّر صور أولئك الفتيات الكالانتانيّات الجميلات النحيلات اللاتي جعلن أعمال الطرقات والقار والحصى تبدو سهلة للغاية. كان هناك، أيضاً، مقطع يريهن يستحممن تحت شلال مياه وهنّ عاريات الصدور. كان مشهداً يحبس الأنفاس، ومع أنّه استمر بضع لحظات، بقي عالقاً في مخيّلته منذ ذلك الوقت، فعلاً. والدته علّقت كيف أنّه من العار جعل تلك الفتيات يقمن بكلّ تلك الأعمال اليدويّة الشاقّة، وهي أعمال للرجال، ماذا جرى لعقولهم؟ أمّا والده فعلّق كيف أنّ شعب الملايو ينظر إلى شعب الكالانتان نظرة دونيّة، وأنّ المشكلة إقليميّة برمّتها. 'ربّما لأنّ جمال الكالانتانيّين خارق،' قالت والدته، ووافق مارك معها.

هل ستتوجه العمّة أولغا إلى صباح؟ لم يخبره أحد شيئاً. كان يمكن أنْ يحضّها على الذهاب إلى "كوتا كينابالو" إذا كانت ذاهبة في رحلة إلى ماليزيا. كان يمكن أنْ يخبرها عن

الكالانتانيّين. مزارع المطّاط الرئيسة موجودة في صباح، أيضاً. كان يمكن أنْ يحضّها على الذهاب إلى هناك.

عندما جاء التفسير، كان أنّ أولغا قامت بالرحلة نتيجة لنزوة مفاجئة. هكذا طبيعتها. استرعى انتباهها ترخيص على سعر بطاقة الطائرة على شركة الطيران الماليزيّة نظراً للأوضاع الاقتصاديّة، كما أنّها نجحت في بيع إحدى لوحاتها، الأولى خلال السنتين الماضيتين، ولهذا قرّرت البذخ على تلك الرحلة. العمّ بات كان يكره الطيران، كما أنّه كان مهووساً بـ"جرثومة" سنة 2000 وما شابه من أمور.

رحلتها كانت بتاريخ 99/9/9 وكان العمّ بات مقتنعاً أنّ كلّ الطائرات ستسقط من السماء في ذلك التاريخ. في الواقع، قال الوالد، هذا زاد من إعجاب العمّة أولغا بالفكرة. 'أختي كانت دائماً كذلك،' قال، 'ولدت يوم الجمعة بتاريخ الثالث عشر وأعتقد أنّ هذا ما جعلها تعتقد أنّها مخاوية للسحرة والعرّافين والوثنيّين. كانت تروّعني حتى العظم – إحم إحم – حينما كنت أصغر منك بقليل يا ماركوس.'

'مارك،' غمغم الاسم من خلال أنفاسه المتثاقلة استدراكاً.

وبالفعل تذكّر حفلة يوم الجمعة تاريخ الثالث عشر التي كانت مباشرة بعد عيد ميلاده الثالث عشر، السنة الماضية. سبق للعمّة أولغا أنْ أصرّت على حضوره، لوحده، دون أبويه، دون أصدقاء، فقط هو. وبمجرّد أنْ فتح باب المنزل نزلت عليه صواعق مسلسل "عائلة آدمز"، بما في ذلك بيوت العنكبوت، بيوت عنكبوت حقيقيّة كان عليه نوعاً ما أنْ يشقّ طريقه عبرها ليدخل البيت. يشعر أحياناً أنّ نسيج العنكبوت لا زال عالقاً على شعره. وفيما بعد، ذلك المساء، وبعد قوالب الحلوى المصبوغة بلون الدماء، والأسنان السوداء، والجمجمة التي ترتّب عليه أنْ يشرب منها شراباً أسود اللون، والعمّ بات الذي ارتدى زيّاً على شكل هيكل

عظميّ سمين بعظام مضيئة، وعندما اعتقد أنّ كلّ شيء شارف على نهايته، وذهب إلى الحمّام لينظّف أسنانه، أصرّت العمّة أولغا على أنْ يستحم.

وافق، وعندما فتح صنبور المياه خرج الماء منه بلون الدم. كيف أمكنهم القيام بكّل ذلك؟ سبق أنْ ضحك وصرخ مبتهجاً وأتى العمّ بات ليقهقه معه وأجبره على خلع بقيّة ثيابه ورماه في حوض الاستحمام الأحمر. تبيّن أنّ ماء الحوض مليء بالفقاعات التي ارتفعت وأزبدت مباشرة، مع أنّه شعر أنّ الماء كان زلقاً كالزيت يغزو بدنه كلّه. العمّة أولغا أتت أيضاً لتشارك في الضحك ممّا أسمته حمّام هوليوود الجنسيّ. كان كلّ شيء حميماً نوعاً ما، ولكنّه مربك، وكان خائفاً من أن يكشف عمّا كان جسمه يفعل تحت كلّ تلك الفقاعات. لم يكن كبعض الفتية في المدرسة الذين يتباهون بعرض أعضائهم داخل غرف تغيير الملابس. 'صلب كالحجر! كالحجر!' يتبجّحون ويضحكون. حينما ضحكت منه العمّة أولغا في الحمّام كان لابدّ له من المشاركة لكنّه كان يتمنّى لو تركاه لوحده. وعندما تركاه، لم يستمتع بذلك كما كان متصوّراً. برد الماء وتبدّدت الفقاعات وما بقي له سوى شعوره بالزيت يغطّي جسمه. العمّ بات كان آخر من ترك وأبدى اهتماماً مفرطاً بتركه منشفة كبيرة ليجفّف مارك جسمه بها، 'عندما تكون حاضراً.'

كانت تلك هي صدمة الأمسية الحقيقيّة. قفز مارك خارج الحوض وابتسم ابتسامة عريضة لسروره بحجم المنشفة، لكنّ فرحته تلاشت حين لفّ جسمه بها وبدأ يجفّف أعضاءه التناسليّة، قبل أن يكتشف أنّ نسيج العنكبوت يغطّي نصف مساحتها. كان هذا عندما علق به نسيج العنكبوت. ياله من أمر مريع!

سبق أنْ صرخ صرخة مدوّية (وانتبه لاحقاً أنّ عمّته وعمّه كانا خارج الباب مباشرة ينتظران تلك اللحظة تحديداً).

رمى المنشفة الكبيرة فوراً، بطبيعة الحال، وبدأ يفرك جسمه بشدّة بالمنشفة العاديّة المخطّطة بالأزرق.

’صبراً وستريان ما سأفعل بكما،‘ ناداهما، ’لسوف أضع العناكب في فراشكما!‘ لكنّ مجرّد التفكير بذلك، وإمكانيّة وجود العناكب في فراشه بالذات، كانا كفيلين بلجم طموحه فوراً. جفّف نفسه بسرعة، وارتدى ثيابه من جديد. لكنّه لم يستطع التخلّص من إحساسه بتلك النسج عالقة في جسده، في الأسفل، وحول كلّ أعضائه، خصوصاً خصيتيه. خلع سرواله مرّة أخرى وفرك من جديد بمنتهى العناية. كلاّ، لم يكن هناك ما هو ظاهر. بيد أنّه شعر وكأنّ الأمر كذلك. استغرق الأمر منه وقتاً طويلاً ليرتاح وينسى ذلك الإحساس.

قالا عنه إنّه مفسد للمتعة لذلك قرّر أنْ يعود إلى منزله تلك الليلة، لا أنْ يبيت عندهما. وعدته العمّة أولغا وهي جاثية على ركبتيها أنّه لن يكون هناك عناكب أو بيوتها في فراشه أو غرفة نومه. جلب له العمّ بات كأساً من شراب "ميلو" الساخن ووعد أن يجلس إلى جانبه على الفراش ويروي له قصّة مهدّئة للأعصاب، كما فعل مرّة حين كان مارك صبيّاً صغيراً. لن تدور القصّة حول الأشباح والوحوش، ستكون قصّة خياليّة، لكنّها قصّة للبالغين، ذلك أنّ مارك بالغ الآن، وأقرّ العمّ بات أنّه لاحظ ذلك وأبدى كلّ أسفه أنّه لم يدركه تماماّ. وقالت العمّة أولغا إنّها سترسمه، راقداً في السرير متدثّراً ورائعاً.

ارتاحت أعصابه.

تضمّنت القصّة شيئاً من السحر. جاءت من واحد من كتب العمّ بات حول أميرٍ وُلد بالغاً وكان يترتب عليه أنْ يتعلّم كيف يكون طفلاً، وهو ما لم يكنه أبداً. لم يصغر حجم الأمير فعلاً أو يخسر ما يميّز البالغين مثل شعر الجسم ورائحة ما تحت الإبطين، لكنّه أدرك أنّ الشيء الذي لم يكن يملكه منذ ولادته هو براءته. ولد يعلم كلّ شيء، وهذا ما جعله غير قادر على الحبّ، ولا

حتّى حبّ والديه، اللذين كانا عجوزين حين ولادته وتوفّيا بعدها بفترة وجيزة. كبر يعلم كلّ شيء دون أن يشعر بأيّ شيء لأنّه كان يعلم سلفاً كيف يكون الشعور بالأشياء. لكنّه في يوم من الأيّام شاهد تلك العذراء الداكنة البشرة تستحم تحت شلاّل في الغابة فوقع في الحبّ لأوّل مرّة، مع أنّه كان يعلم تماماً ماهيّة الحبّ معظم الوقت، ويعلم طبيعة العلاقة الجنسيّة، إدخال ما لديه بما لديها وكلّ هذه الأمور، لكنّه شاهد هذه الفتاة الجميلة تحت شلاّل الماء ولأوّل مرّة أحسّ أنّ الجنس هو مجرّد جزء بسيط من مشاعره. ما كان يحسّ به فعلاً هو أوّل خطوة من خطوات البراءة.

'عليك الاحتفاظ بذلك أطوّل مدّة ممكنة،' قال له عمّه، والعمّة أولغا، التي كانت تجلس أيضاً جانب السرير، أضافت، 'البراءة تعني أنّك لا تزال قادراً على الضحك.' كانت تربت على كتفي العمّ بات حين كان يروي قصّته حتّى أنّ مارك شعر لأوّل مرّة أنّ بينهما تقارباً يتعدّى مجرّد المزاح والمشاحنة والتمثيل. سامحهما على سخافاتهما يوم الجمعة الثالث عشر، وأدرك أنّه لم يكن فقط ضحيّة لمزاحهما القاسي، وإنّما كان متوقّعاً منه المشاركة فيه. بدا وكأنّهما كانا راغبين في إعادة اختراع براءتهما. ها! يالها من براءة! نسيج العنكبوت الدَبق ليس فكرة من أفكار البراءة لدى مارك.

سبق أنّه حين خرج من الحمّام وهو نصف مبلّل نتيجة سرعته في ارتداء ثيابه بعد منشفة النسيج العنكبوتيّ، تفجّرت عاطفة العمّة أولغا بما يشبه قلق الأمّ وأصرّت أنْ يجفّف نفسه تماماً حتى لا يصاب بالرشح. جرّدته من قميصه قبل أنْ يتمكّن من ذلك بنفسه ومسحت جسمه. وبينما كانت تفرك صدره وترفع ذراعيه همست كيف أنّه ينمو فعلم فوراً أنّها قد ترغب في فرك المنشفة بقوّة بين ردفيه وتمسح كلّ بقعة أماميّة غضّة، بيد أنّه سحب المنشفة من بين يديها، وقال ضاحكاً (أخيراً، حتّى لو أنّه بالضحك كان يخفي ارتباكه)، 'بإمكاني القيام بذلك بنفسي.' لكنّه

تركها تزرّر له قميصه من جديد. كان ذلك هو الوقت الذي ذهب فيه العمّ بات إلى المطبخ لإحضار الـ"ميلو".

تغيّرت الأمور فعلاً بعد هذا النوع الجديد من المودّة. بدأت زياراته للعمّة أولغا تقلّ، لكنّه حين كان يزورها الآن صار يشعر بالحريّة أكثر. كان الأمر كما لو أنّهما باحا له بسر مثير خاصّ. لا يمكن لوالديه تفهّم هذه المودّة التي تمّ العثور عليها حديثاً. لم تكن البراءة— بل التجربة، أو وعد التجربة.

لهذا كان سفر العمّة أولغا المفاجئ إلى ماليزيا قاسياً غريباً عليه. كان كأنّه هجوم مزّق تلك المودّة. حتّى ركْض العمّ بات باتجاه سيدني بدا على أنّه جزء من المؤامرة. لم يكن العمّ بات، في واقع الأمر، أكثر من ظلّ للعمّة أولغا، لكنّ روايته فتحت أبواباً كانت موصدة. كان يعلم مارك ماهيّة الأمر: تلك كانت المرّة الأولى التي يخبره أحدهم فيها أموراً تتعلّق بجسمه ومستقبل نموّه بطريقة مقنعة. هذا حَفِظَ البراءة واعتبر المعرفة أمراً مسلّماً به، ولم يجعلها سريّة أو معيبة ولو قليلاً.

سبق لوالد مارك أنْ تحدّث عن الجنس والعادة السريّة وما إلى ذلك، لكنّ الأولاد في المدرسة عرفوا عن هذه الأمور قبل ذلك بكثير، ولذلك لم تكن تلك أخباراً جديدة. أمّا شؤون النساء وحيضهن والجنين وألم الولادة، فأجاد والده شرحها له وكانت أكثر إلحاحاً، نوعاً ما، من الفيديو المدرسيّ. كانت كما لو أنّ والده يفضي بمشاعر حقيقيّة وأنّ مارك سأل عن ولادته هو وفيما لو تسببت لوالدته بالألم.

'كانت مؤلمة لنا جميعاً،' سبق لوالده أنْ قال، وهذا ما سبّب لهما انتكاساً. كانت نظرة إلى الأمور من زاوية جديدة. 'لكنّي أقول لك هذا يا بنيّ: كان الأمر يستأهل.' واحتضنه على غير عادة.

طيلة الأسبوع التالي، وحين كانت العمّة خارج البلاد، استخرج مارك وظيفته القديمة عن مزارع المطّاط في ولاية صباح. نسي أنّ هناك صورة لفتيات كلانتانيات يعملن على رقعة

من الطريق في الغابة الباسقة الأشجار. لم يسبق له أنْ انتبه إلى أنّ بعضهنّ ارتدين السارنغ بطريقة تكشف عن الثديين. كيف لم ينتبه إلى ذلك؟ حتّى معلّمته لم تعلّق على ذلك. أمّا الآن، وهو ينظر من جديد، فتبدو واضحة وضوح الشمس. استحضر عدسة مكبّرة ليتأكّد تماماً.

ثمّ عادت العمّة أولغا إلى منزلها. كلّ شيء كان كما كان. 'تمسح كلّ من كان في طريقها،' قال والده ضاحكاً، وأدرك مارك أنّ الأخ والأخت على درجة كبيرة من المودّة. أتاه هذا التفكير كضربة ملاكم تسدّد إلى وجهه، لأنّ العمّة أولغا ووالده شخصيّتان مختلفتان كثيراً كما بدا له أصلاً.

وعدته ببعض الصور عندما تتمّ الطباعة. أحضرت معها رباطاً من الباتيك المطبّع. وأحضرت تماثيل خشبيّة منقوشة وزوجين من دمى الظلال، كانت تنوي الاحتفاظ بهما لنفسها، مدهونين بالأحمر والذهبيّ، وبأذرع وأرجل طويلة المفاصل والوجه متطاول دون شفة عليا. فكّر مارك أنّ هذا هو النمط الذي تفضّله العمّة أولغا، يجمع بين التخويف والمهزلة. التمثال المذكر بدا وكأنه هجين بين عنكبوت وفراشة. قالت عنه إنه "وايانغ كوليت".

لكنّها أحضرت لمارك هديّة خاصّة. 'وجدتها في قرية صغيرة خارج كينابالو،' قالت، 'حيث كان هناك رجل قرية مجنون وأولئك الفتيات الكالانتانيّات رقيقات الأطراف اللاتي يحظين بتوقك الشديد، يا مارك، أيّها القرد الشهوانيّ الصغير. لكنّ هذه آلة موسيقيّة. أعتقد أنّها تسمّى "سيلاح".'

ناولته يقطينة صغيرة، بمصفار معلّق بها، وبضعة مزامير بمماسك للأصابع. 'عليك أنْ تنفخ حتى تملأ اليقطينة بما يكفي من الهواء وأكثر؛ ثمّ بإمكانك عزف أكثر من نوتة واحدة في الوقت نفسه، بهذه المزامير الصغيرة. لم أستطع أنا تدبير ذلك. لكنّني ما تمكّنت حتّى من العزف على آلة مزامير القربة.' جعلته

يجرّب. بعد المحاولة الثالثة أو الرابعة، استطاع إصدار عويل قصير. كان هذا كافياً لكليهما.

أخذها إلى المدرسة واكتشف أنّ أستاذ الموسيقا نفسه ما سبق له رؤية واحدة. لم يحاول مارك العزف عليها ثانية، لكنّه علّقها على جدار غرفة نومه، تذكار حقيقيّ. بعد عدّة أسابيع لاحظ عليها أمارات غزو الحشرات. العمّة أولغا لم تصرّحها للجمارك حين رجعت.

أصرّ والده على إتلافها فوراً. انتزعها من مارك وأخذها بعيداً ليحرقها، بنفسه.

حين ذهب ليخبر العمّة أولغا بهذه المأساة، شاهد لأوّل مرّة آخر لوحة لها. كانت صورة ذاتيّة.

سمّتها 'مرأة ترتدي قبّعة حمراء.' كانت تلك المرّة الأولى التي يلاحظ مارك فيها كم تشبه العمّة أولغا والده. والواقع أنّه حين دخل إلى مرسمها، عمليّاً غرفة الجلوس من ذلك المنزل الصغير، كانت متحمّسة لتريه اللوحة، مع أنّها عادة تخفي لوحاتها عن الأنظار أو تتلفها. إذا كانت اللوحات من خشب، كان معلوماً أنّها تتقدم عليها بالفأس. قالت إنّها لا تستطيع تحمّل كلفة القماش. أما لوحة اليوم فكانت على الورق.

'واو' قال مارك بإعجاب شديد، وعنى ذلك تماماً.

لكنّه ما استطاع اقتلاع الصورة من ذهنه: كانت رسم والده. القبّعة الحمراء الليّنة هي فقط ما دلّ على أنّها العمّة أولغا. متأكّد من أنّها قبّعتها. ميّزها بسهولة. لم يكن ذلك بالتنكّر الكافي. والعينان ظلّتا تحملقان به كأنّهما تعرفان أنّه يعرف. لم يلحظ عيني والده عمليّاً، لكنّ العينين عيناه. كانتا تتبعانه، وما أثار رعبه أنّ النظرة التي أكسبتها العمّة أولغا للّوحة كانت من نوع نظرتها هي مساء حفلة يوم الجمعة الثالث عشر. كانت النظرة التي توحي أنّها تريده أنْ يكبر. بل الأكثر، كانت تبدو أنّها تريده أن يخلع ملابسه حتّى تتمكن من لمس كلّ ناحية من جسمه. كان العمّ بات،

عندها، هو من قال ’بخٍ لهذا الرجل الذي تنمو إليه يا صبيّ.‘ لكنّ العمّة أولغا هي من جعلته يشعر فعلاً كيف تغيّر، بجسمه، بعقله. كانت وكأنّها نظرة حسد، بالإضافة لكونها نظرة تقييم. والده وعمّته كلاهما في اللوحة يتوقّع منه شيئاً، شيئاً لا يستطيع تقديمه.

أعطته لوحتها.

’ربّما رسمتها من أجلك،‘ قالت. ’لا أعلم— على كلّ حال هي لك.‘

شكرها، لكنّه كان توّاقاً للعودة إلى المنزل.

في الفم نظرات والده القاسية. العينان والفم كلّ يروي قصّة مختلفة.

بإمكانه الآن دراسة الصورة عن كثب لوحده في غرفته.

هل شؤون البالغين محيّرة دائماً، مليئة بالتلميحات المتناقضة والأكاذيب الحقيقيّة؟ مع أنّه أعجب باللوحة فور أن وقعت عيناه عليها، لكنّه غير متأكّد الآن. لم تكن صورة ذاتيّة للعمّة أولغا على الإطلاق. ما أوحت بعنفها ولا بنكاتها. لم يكن العمّ بات فيها، وصورتها الذاتيّة كان يجب أنْ تحوي حضور العمّ بات في مكان ما، بطريقة ما، حتى لو في خلفيّة الصورة.

لكنّه أيضاً افتكر بالعمّة أولغا في كوالالمبور أو في صباح، لوحدها. وعلم أنّها ستتلذّذ بتلك المعلومة. عندها ستكون هي كما ترغب أنْ تكون— دون قيود. كما في هذه اللوحة.

تلك انعكاسات والده. كيف يمكن أنْ يكون هذا؟ خطوط العينين، والفكّ، والخدّ، يمكن أنْ تكون له أو لها. يتحدّث الناس عن الصلات الوراثيّة، لكنّ النظرة إلى صورتها تركته مع شعور دَبق، مثل نسيج العنكبوت، كما لو أنّ ظلاً ما من ظلال والده كان معها تلك الليلة... أحاط تلك الحادثة بالكتمان. ولكن يحتمل أنّ والده علم بالأمر، رغم كلّ هذا. ربّما ضحك أيضاً. هل هذا ممكن؟ هل

كانت الطريقة التي ضحك فيها عمّه وعمّته معه نوعاً من الميثاق السريّ، وربما الوعد السريّ؟

لم يذكر لعمّته ذلك الانطباع الذي تركته فيه صورتها الذاتيّة. عوضاً عن ذلك سألها: 'هل سبق أنْ رسمت العمّ بات؟'

ضحكت. 'عمّك مخلوق شديد التملّص لدرجة أنّه لا يمكن أنْ يجلس ثابتاً من أجل لوحة.'

سحبت لوحة أخرى من مجموعة مكدّسة إلى الجدار. ظهرت فيها القبّعة الحمراء نفسها، ولكنْ تحت الوجه الغامض والجسم البدين القصير ظهر شيء يوحي بطريقة استرخاء عمّه فوق الأثاث، مع أنّ الجسم كان عارياً بلا شعر. الواقع، كان على شكل جسم طفل عملاق، بما في ذلك الأعضاء التناسليّة التي لم تتكوّن بعد. 'طبعاً، هو يكره هذه اللوحة. لكنّه رفض أنْ يجلس من أجل لوحاتي. لهذا قمت بثاني أفضل شيء ممكن، ألا وهو كيف يتخيّل باتريك نفسه أنْ يكون.' ثمّ أشارت إلى اللوحة الجديدة: 'هذه تصوّرني كما أريد أنْ يراني الناس. لا أحد بيننا صادق مع نفسه فعلاً. لكنّك تعلم ذلك، عزيزي ماركوس. أنت، بالذات، رأيت ما بداخلنا كلّنا. هل سامحتنا بعد؟'

'لم أسامحك على ذهابك خلسة إلى ماليزيا دون إعلامي.'

هكذا، باح بمكنوناته.

نظرت إليه العمّة ولكنّها لم تعد تبتسم الآن.

'كم تشبه والدك. تحبّ التملّك مع أنّك لازلت في هذا العمر. آه، يا ماركوس الصغير، إنّك تكبر، وتزداد شفقتي.' توّسع فمها عند ذلك. 'فكّرْ بكل الأشياء التي لا أنوي أنْ أخبرك عنها، ثمّ اسأل نفسك لماذا.'

لم ترد المتابعة أكثر. ربّما لم يكن أحد أكثر صدقاً معه ممّا كانت. وعرف أنّه لا يملك وسيلة التعامل مع هذا الأمر.

شيء ما صار عقبة بينهما، ولم يكن ذلك مجرّد الصدق. كان مثل العَرَق تحت إبطيه— شيء جديد يقتحم علاقتهما. عندما غادر، كانت المرّة الأولى التي لم يقبّلها فيها قبلة الوداع.

توماس شابكوت أكاديميّ، وشاعر، وروائيّ، وقاصّ، وكاتب مسرحيّ، ومحرّر. فاز بعدد من الجوائز والأوسمة على إنجازاته الأدبيّة.

نُشر النصّ الأصلي لهذه القصّة كما يلي.

The Red Hat, by **Thomas Shapcott**, was published in *Kalimat 21*, March 2005.

غراهام شيل

الشِحْنَة

'سرق رجل سيّارتي.'

أُعجب آبو بنفسه. أوّلاً، بسبب السيّارة. ثانياً، لأنّه استطاع أنْ ينطق هذه الجملة باللغة الإنكليزيّة، بطلاقة. غمره هذا التيه لدرجة أنّه لم يلحظ بادئ ذي بدء أنّ الرجل الذي يستمع إليه هو في الواقع من قبيلة شِمبو.

والآن انتبه للأمر. كان رجل الشرطة الشمبوانيّ ينقر بأصابعه على المنضدة التي تفصله عن آبو، ونظر للأعلى نحو الساعة المستديرة على الحائط. ثمّ نظر خارج النافذة حيث تألّق ضوء الشمس على الطريق والبحر. ثمّ نحو آبو.

'سرقوا سيّارتك، أليس كذلك؟'

'رجل سرق سيّارتي.'

نظر الشمبوانيّ ثانية نحو الساعة. وكان هناك شرطيّ آخر يجلس وراء مكتب، وأصابعه الغليظة تلطم أزرار آلة كاتبة. كان من سكان جزر الكركار.

اعتقد آبو أنّه لربّما كان من الأفضل له لو تكلّم مع الكركاريّ على أنْ يتكلّم مع الشمبوانيّ، على الرغم من أنّ سكان جزر الكركار ليسوا من عشيرة آبو.

'أوكي،' أدار الشمبوانيّ نظراته من الساعة نحو آبو. فتح بعنف دفتراً كبيراً ذا غلاف قاس، وسحب قلماً من خلال شعره المجدول بإحكام.

’أوكي – ماهو رقم التسجيل؟‘

بدأت موجة النشوة التي حملت آبو إلى قسم الشرطة تتبدّد. شعر أنّه كان يجب أنْ ينتظر حتّى ينصرف الشمبوانيّ ويصبح الكركاريّ خلف المكتب. نظر آبو ما وراء الشمبوانيّ الذي كان ينقر بقلمه على المنضدة، ما وراء النافذة نحو أشجار نخيل جوز الهند والمنجا المنتصبة بلا حراك في حرارة "مادانغ" التي خلت من الرياح تلك الظهيرة.

’التسجيل؟‘

(كلاك، جاء صوت الآلة الكاتبة. كلاك! – كلاك! – كلاك! – كلاك!) وبدا أنّ هذا الصوت يخرق رأس آبو. مثل السهام. سهام قبيلة شمبو التي سبق أنْ طردت والد جدّه وجدّه وأبيه، خارج النجود، أوّلاً نحو الهضاب الخفيضة، ثمّ نحو المستنقعات الموبوءة بالبعوض. هذه الهجرة الناتجة عن الهزيمة غيّرت الوجبة الأساس لقوم آبو من البطاطا الحلوة إلى ساغو المستنقعات.

’رقم التسجيل – ما هو؟‘

(كلاك،! - كلاك! – كلاك! – كلاك! – كلاك! – كلاك!)

خسر جدّ آبو رأسه على يد رجال قبيلة شمبو. ربّما كان جدّ هذا الشمبوانيّ، أو والد جدّه هو الذي قطعه.

’بابا! – هل ستعطيني رقم التسجيل؟‘

’السيّارة تحمل اسمي.‘

وبسرعة أضاف آبو، ’اسمي آبو: آ. ب. و. كان على مقدّمة السيّارة.‘

(كلاك،! - كلاك! – كلاك! – كلاك! – كلاك! – كلاك!)

قال الشمبوانيّ، عدوّ آبو: ’وهل هذا يجعلها سيّارتك؟‘

’اتصلت هاتفيّاً بيسوع فأرسل لي هذه السيّارة واسمي عليها.‘

(كلاك!)

’المسيـــــــــــــــح؟‘ سأل الشمبوانيّ.

سبق للكركاريّ أنْ توقّف عن طرق أزرار الآلة الكاتبة بأصابعه الغليظة. استدار في كرسيّه ونظر نحو آبو.

’اتصلت هاتفيّاً بيسوع...؟‘ سأله الكركاريّ بهدوء.

’وأرسل لك سيّارة تحمل اسمك...؟ هذا كلّ ما في الأمر؟‘

ابتسم آبو وأومأ برأسه موافقاً، وهو ينظر إلى الكركاريّ.

’لا بدّ أنّ دورك جاء للتعامل مع المجانين.‘

’بل أترك كلّ ذلك لك!‘ قال الكركاريّ.

من المعلوم أنّ رجال عشيرة الشمبو هم أشدّ سكان النجود عنفاً. وبدا هذا الشمبوانيّ بالتحديد على أنّه قادر على قطع رأس آبو فوراً.

’بـيـ ـ لطف،‘ قال الكركاريّ، بلطف.

أطبق الشمبوانيّ الدفتر الكبير بعنف.

’بلطف!‘ قال الكركاريّ دون لطف. على كمّه شريطان، بينما للشمبوانيّ شريط واحد.

استدار الكركاريّ في كرسيّه، وعاد للطرق على آلته الكاتبة— (كلاك،! - كلاك! – كلاك! – كلاك! – كلاك! – كلاك!)

’حسناً، أيّها المجنون –‘ (كلاك!)

’أيّ نوع من الرجال سرق سيّارتك؟‘

نظر الشمبوانيّ بغضب شديد نحو آبو ممّا جعله ينسى كلّ شيء حول عزمه على التحدّث بطلاقة، وباللغة الإنكليزيّة، فقال بركاكة: ’أسترالي رجل سرق سيّارة لي.‘

توقّف الكركاريّ عن الطرق بأصابعه الغليظة. واستدار ثانية في كرسيّه.

’تحاول توفير لغتك الإنكليزيّة، إيه؟ ...تكلّم بالإنكليزيّة. ببطء. لكنْ بقوّة.‘

قال الكركاريّ للشمبوانيّ: ’توقّف عن مناداته بالمجنون.‘

وبدا الشمبوانيّ وكأنّه سيقطع رأسي الرجلين معاً. كان أشدّ سواداً من الكركاريّ، وأكثر بدانة عند الرقبة والكتفين. لكنّ

الكركاريّ كان هو صاحب الشريطين.

'أوكي،' قال الشمبوانيّ 'خذني إلى ذلك الأستراليّ الذي سرق سيارتك.'

رفع طرفاً من المنضدة، وخرج مباشرة من الباب وتركه ينغلق مصطدماً بآبو الذي ركض لاحقاً به.

حين دفع آبو الباب ليفتحه، صدمته الحرارة والوهج من الشارع والبحر وكأنّهما ضربة ثانية. وبدا الشمبوانيّ وكأنّه طيف داكن يخطو خطوات واسعة عبر لهيب ساطع.

تصطّف أشجار المنجا على جانبي طرقات مادانغ، وتمتلئ ممرّاتها بالثمار الساقطة. وحين كان الشمبوانيّ يمشي كانت جزمته البوليسيّة تنتزع اللبّ من تلك الثمار. بينما خاضت أقدام آبو العارية، وانزلقت فوق الثمار المسحوقة حين كان يهرول محاولاً اللحاق.

'أوكي،' قال الشمبوانيّ واسع الخطوات. 'متى اتصلت هاتفيّاً بيسوع المسيح؟'

'منذ عيدي ميلاد سابقين.'

'وجرى بينك وبين يسوع حديث لطيف سريع؟'

'سمعني.'

'حقاً؟'

'وأرسل لي سيّارة واسمي عليها.'

'أيوه، أيوه. وماذا بعد ذلك؟'

'اراقب وأراقب وأراقب.'

'تراقب ماذا؟ أين؟'

'خلف مستودع شحنات شركة بيرنز فيليب. خارج بوابتين. واحدة تقول "ممنوع الدخول". والبوابة الأخرى تقول "قف".'

'إذاً راقبت السفن تفرغ حمولتها على الرصيف.'

'أراقب وأراقب وأراقب وأنا – '

’ – توقّف!‘

توقّف الشمبوانيّ. عينا آبو تكادان تنغلقان أمام الضوء المتوهج، ممّا جعله يصطدم بظهر الشمبوانيّ. وصلا إلى السوق. جلست امرأة على الأرض خلف صفّ من ثمار جوز الهند والبَبو. كانت تمضغ بزور الفَوْفل وهي ترضع طفلاً.

استدار الشمبوانيّ إلى الخلف بحيث واجه آبو تماماً.

’دعني أفهمك جيّداً: اتّصلت بيسوع هاتفيّاً منذ عيدي ميلاد...؟ وراقبت من الجهة المقابلة للرصيف – كم مرّة؟‘

’كلّ يوم.‘

’كلّ يوم من عيد الميلاد إلى الذي تلاه؟‘

’أكثر،‘ قال آبو. ’بدأتُ المراقبة منذ مدّة طويلة قبل عيد ميلاد واحد. والآن مضى وقت طويـــل جدّاً بعد عيد الميلاد التالي.‘

وحقّاً كان. فالشهر كان أكتوبر.

’كلّ يوم؟‘

شيء ما كان يخرج من وجه الشمبوانيّ.

’كلّ يوم.‘

بصقت المرأة التي في السوق كتلة كبيرة من عصير بزور الفَوْفل. تناثرت اللطخة القرمزيّة على قدمي آبو العاريتين. لكنّ آبو كان ينظر إلى وجه الشمبوانيّ.

’كلّ يوم...؟‘ خاطب الشمبوانيّ نفسه، ولم يخاطب آبو هذه المرّة. ’لمدّة سنتين – ربّما أكثر – كلّ...كلّ يوم...؟‘

ورأى آبو أنّ شيئاً ما سبق أنْ خرج من وجه الشمبوانيّ. الغضب خرج من وجهه.

وقف الشمبوانيّ حيث هو، وهزّ رأسه بحركات خفيفة. لم تظهر عليه أيّ ردة فعل حين نقلت سيّدة السوق الرضيع من ثدي إلى آخر، وبصقت كتلة أخرى من عصير بزور الفَوْفل، فتناثر الأحمر القرمزي فوق جزمته السوداء اللاّمعة.

’بابا – أيّ نوع من السيّارات هي؟‘

'تويوتا.'

'هذا ما طلبته من يسوع، إيه؟ تويوتا؟'

'قلت ليسوع: أرسل لي نيسان – السيّارة التي تعدو!'

'قلتَ إنّها تويوتا واسمك عليها.'

قال آبو: 'أسامح اليسوع. تنتابني أفكار سيّئة: ربّما يسوع لن يرسل لي سيّارة. يسوع يعاقبني – يرسل لي تويوتا. أوكي، أسامحه. لن تعتريني الأفكار السيّئة ثانية.'

بدأ آبو الآن بالاندفاع للأمام، متخطّياً بائعي بزور الفَوْفل وهم يجلسون القرفصاء بين نساء أمامهنّ أكياس مصنوعة من الحبال، تنتشر على الأرض، ورجال بمنحوتات تستند على المناضد، نساء وأطفال يحملون قضباناً من الموز، وبطيخ، وبَبْو، وساغو، وسمك مدخّن، وجدائل من تبغ الأحراج، ورزماً من الجير والملح، وبائع الثلج المُنَكَّه بصندوقه المربّع الشكل على دواليب درّاجة. قاد آبو المسيرة عبر السوق وأمام مخزن "ستيم شيبس"، وانعطف خلف مستودع "بيرنز فيليب". كان يمرّ أمام سياج من الشبك تعلوه أسلاك شائكة، حين لحق به الشمبوانيّ.

'من الأفضل أنْ أسير أنا في المقدّمة،' قال الشمبوانيّ.

صفوف عديدة من السيّارات انتظمت خلف السياج ذي الأسلاك الشائكة. لكنْ لا أثر لسيّارة آبو.

اجتاز الشمبوانيّ محطّة الوقود، ودخل إلى المكتب حيث جلس رجل من مادانغ بملابس العمل تحت لافتة كتب عليها "قطع غيار".

'هل غراهام هنا؟'

قال المادانغيّ: 'على الهاتف.'

'سننتظر،' قال الشمبوانيّ.

كان آبو يقف جانب النافذة. نظر خارج النافذة وبدأ يؤشّر ويؤشّر ويؤشّر. وقفز بين قدم وأخرى بحركة راقصة.

'السيّارة لي!'

اقترب الشمبوانيّ من آبو ووضع يده على كتفه.

'الإنكليزيّة بابا...الإنكليزيّة...بحزم وهدوء.'

'سيّارتي!'

في الممرّ سيّارة "تويوتا لاندكروزر" حمراء بنّيّة لامعة نقرأ على لوحتها: آ. ب. و. 956.

ونسي آبو في خضمّ لهفته ما يجب أنْ يتقيّد به بالنسبة للّغة الإنكليزيّة، وأنْ يحاول التكلّم بهدوء.

'رجل ينتمي لأستراليا سرق سيّارة تنتمي لي!'

'طوني!' جاء صوت من خلفهما. 'هل تريد مقابلتي؟'

استدار آبو. رأى صاحب البشرة البيضاء يقف هناك فأشار إليه بإصبعه بعنف.

'هو! هو الذي ينتمي لأستراليا – '

'اهدأ بابا،' قال الشمبوانيّ. 'اصمت. وتجمّد. أوكي؟'

'آمل أنّها ليست بمشكلة؟' قال صاحب البشرة البيضاء.

'مشكلة؟' قال الشمبوانيّ. 'نعم: مشكلة. هذا الرجل يقول إنّك سرقت سيّارته. تلك السيّارة في الخارج.'

كان صاحب البشرة البيضاء رجلاً طويلاً جدّاً ووقف ينظر إلى قدمي آبو. وانتقلت نظرته للأعلى على طول ساقي آبو العاريتين، إلى البنطال القصير البنّيّ المتسخ، ثمّ نحو القميص المتمزّق الذي كان أبيض اللون في يوم من الأيّام، ثمّ وقعت نظرته على النَّدَب البشع الذي خلّفه عجوز من قرية آبو حين استعمل منجله لقطع سهم شائك، ثمّ نحو لحية آبو وتلافيف شعره السَبْط الطويل.

قهقه صاحب البشرة البيضاء: 'دعك من هذا الهراء!'

'إلى مكتبك، أليس كذلك؟' قال الشمبوانيّ.

'طبعاً،' قال صاحب البشرة البيضاء. 'طبعاً يا طوني!'

وضع ذراعه حول كتف الشمبوانيّ وكأنّه والشمبوانيّ من القبيلة نفسها، واتجها نحو الباب.

أوقف الشمبوانيّ تحركهما إلى الأمام.

’كلانا،‘ قال الشمبوانيّ.

رفع صاحب البشرة البيضاء ذراعه عن كتف الشمبوانيّ واستدار إلى حيث ما زال يقف آبو جانب النافذة.

’اسمه على السيّارة!‘

نظر صاحب البشرة البيضاء إلى الشمبوانيّ، ثمّ إلى آبو، ثمّ ثانية نحو الشمبوانيّ. أمسك بالباب مفتوحاً وأشار إلى آبو بالدخول.

كشف الباب عن مكتب بمنضدة عليها هاتفان. أوراق منثورة على المنضدة، ودفاتر وبيانات على الرفوف. كرسيّ على جانب من جوانب المنضدة، وكرسيّ آخر على جانبها المقابل.

’سأحضر كرسيّاً آخر،‘ قال صاحب البشرة البيضاء.

حين أحضر الكرسيّ راقب آبو الطريقة التي جلس وفقها الشمبوانيّ، ثمّ جلس على شاكلته، واضعاً يداً على كلّ ركبة. مال صاحب البشرة البيضاء نحوهما من الجانب المقابل للمنضدة ومرفقاه فوق الأوراق، وإحدى يديه مكوّبة تحت ذقنه.

’لنسمع ما لديك،‘ قال صاحب البشرة البيضاء.

’طَلَبَ سيّارة،‘ قال الشمبوانيّ. ’تماماً مثلما تفعلون: على الهاتف!‘

’ممّن؟‘

’يسوع!‘

غطّى صاحب البشرة البيضاء عينيه باليد التي لا تدعم ذقنه.

’يا...سوووع!‘

’هنالك سجّل طلبيّته.‘

’طوني،‘ قال صاحب البشرة البيضاء، ’السنة الماضية مرّة، وهذه السنة مرتان، تعرّضنا للسرقة. وفي كلا الحالين غادرتنا أجهزة الهاتف!‘

'كلّ مكان عمل في مادانغ تعرّضت هواتفه للسرقة،' قال الشمبوانيّ. 'هل تعلم لماذا؟'

'طبعاً، طبعاً – يهاتفون المسيح القدير ويطلبون إليه أنْ يرسل طائرة من السماء محملة بالكوكاكولا أو البيرة أو آلات التسجيل أو المحركات أو –'

'أو سيّارة— ،' قال الشمبوانيّ.

'تماماً،' قال صاحب البشرة البيضاء. 'أو سيّارة.'

'لكنّه يعلم أنّ السيّارة تأتي على ظهر المراكب، وليس مباشرة من السماء بل من –'

' – سيدني!' قال آبو.

رفع صاحب البشرة البيضاء يده عن عينيه وحدّق إلى آبو.

'طبعاً تصلنا الشحنات من سيدني، وأحياناً من نيوكاسل.'

'ثمّ يراقب من تحت شجرة المنجا المقابلة لرصيف بيرنز فيليب. كلّ يوم. طوال اليوم...لمدّة سنتين.'

'مدّة ماذا؟'

'سنتان. أكثر من سنتين.'

غطّى صاحب البشرة البيضاء عينيه ثانية بيده.

'يا عيني!'

'ثمّ في يوم من الأيّام. بعد أكثر من سنتين من المراقبة، شاهد سيّارة تنزل إلى الرصيف. تحمل اسمه عليها.'

'دفعت ثمن تلك السيّارة!'

'لم تكن نقوداً!' قال آبو. 'لا تدفع أيّ نقود لذلك الرجل في مكاتب بيرنز فيليب.'

'يا للعنة فعلاً دفعت ثمنها هذا الصباح!'

'بهدوء،' قال الشمبوانيّ. 'بيـ ـ هو ـ دووء.'

'ثلاث دفعات.' قال صاحب البشرة البيضاء. 'الأولى سعر

المصنع؛ الثانية، الشحن؛ الثالثة، الرسوم.'

'لا نقود،' قال آبو. 'لا تعطيه نقوداً. تكتب اسمك على قطعة من الورق.'

'طبعاً،' قال صاحب البشرة البيضاء. 'طبعاً أدفع بالشيكات. ماذا تتوقّع- آخذ معي حمولة سيّارة من العملة؟'

'لا نقود،' قال آبو. 'أنت لا تدفع أيّ نقود.'

'حسناً،' قال صاحب البشرة البيضاء. 'حسن! حسن! – كتبت اسمي على قطعة من الورق!'

ابتسم آبو. ابتسم للشمبوانيّ. ابتسم لصاحب البشرة البيضاء.

'استطيع أنْ أكتب اسمي.'

'مد آبو يده فوق المنضدة وأخذ قلماً. وأمسك بالقلم وكأنّه سكّين، وهو كأنّه يطعن الورق به. استغرق دقيقة، وربّما أكثر، ليكتب كلّ حرف؛ وحين انتهى، غطّت الحروف الثلاثة كلّ الصفحة. قال مفاخراً: 'اسمي، على قطعة من الورق.'

أشرق وجهه بنشوة الانتصار. لم يتكلّم الشمبوانيّ أو صاحب البشرة البيضاء طيلة الفترة التي استغرقته في كتابة اسمه. أشرق آبو أمام الشمبوانيّ، وأمام صاحب البشرة البيضاء.

لكنّ صاحب البشرة البيضاء لم ينظر إلى الورقة التي دفعها آبو باتجاهه. كان يغطّي عينيه بكلتي يديه. ولم ينظر الشمبوانيّ أيضاً. كان ينظر إلى صاحب البشرة البيضاء.

'حسن يا غراهام،' قال الشمبوانيّ. 'هل ستخبره؟'

'طبعاً!'

دفع صاحب البشرة البيضاء بكرسيّه للخلف وانتصب على قدميه: 'بالطبع – سأخبره!'

وثب عبر الغرفة. وما استوقف عجالته سوى الحائط ذي الرفوف التي تحمل الدفاتر. وقف هناك، ظهره نحو آبو والشمبوانيّ. بعد برهة، ضرب بقبضته الدفاتر.

’مسألة صعبة، أليس كذلك؟‘ قال صاحب البشرة البيضاء، للشمبوانيّ على ما بدا.

استدار وعاد إلى المنضدة وجلس. وضع رأسه بين يديه.

’يالها من مسألة كثيرة...كثيرة التعقيد.‘

’نعم،‘ قال الشمبوانيّ.

مال صاحب البشرة البيضاء للأمام ليستطيع الوصول إلى الجيب الخلفيّ لبنطاله. سحب محفظته وأخذ منها كلّ الأوراق النقديّة وأمسكها عبر المنضدة باتجاه آبو.

’أُنظر، خذ هذه و... ‘

انتصب الشمبوانيّ الآن على قدميه وعادت الشراسة إلى وجهه. رأى صاحب البشرة البيضاء تلك النظرة في وجهه، ورآها آبو. ربما كانت النظرة نفسها التي رمى بها والد جدّ الشمبواني جدّ آبو، في تلك اللحظة قبل أنْ يقطع رأسه.

أرجع صاحب البشرة البيضاء النقود إلى داخل محفظته، والمحفظة إلى داخل جيبه.

’ماذا تتوقّعني أنْ أفعل؟ أعطيه السيّارة؟‘

نعم! – فكّر آبو. نعم! - ، نعم! – نعم! – نعم! – أعطني السيّارة.

صاحب البشرة البيضاء والشمبوانيّ يحدّق واحدهما إلى الآخر، وانتظر آبو الشمبوانيّ ليقول: نعم. أعطه السيّارة.

لكنّ الشمبوانيّ وضع كلتي يديه بلطف على كتفي آبو. وقال برقّة. ’بابا، تعال معي خارجاً.‘

وثب آبو على قدميه، والإشراقة ما فارقت وجهه. صديقه الشمبوانيّ يأخذه إلى سيّارته.

بيد أنّ الشمبوانيّ أخذه عبر الشارع إلى الجانب الآخر حيث شجرة المنجا. صار حذاء الشمبوانيّ الأسود اللماع ملطّخاً بعصير بزور الفَوْفل، وبدأ يرفس ثمار منجا مخدوشة أو مسحوقة، ثمّ جلس الشمبوانيّ وأشار نحو الأرض بقربه.

اختفى وهج الضوء من على الطريق، لكنّ الحرارة بقيت. والشمس غطتها الغيوم الداكنة منذرة باحتمال حدوث عاصفة رعديّة.

جلس آبو والشمبوانيّ معاً على الممرّ تحت شجرة المنجا، وكأنّهما في شارع في القرية، وليس في مادانغ.

'حين كنت صغيراً،' قال الشمبوانيّ، 'ما سبق لوالدي أنْ وقعت عينه على صاحب بشرة بيضاء؛ رأيت الطائرات تمرّ، وسمعنا عن كلّ الشحنات التي تحملها هذه الطائرات لذوي البشرة البيضاء.'

'كانت لدينا حكاية. في الحكاية، كان للربّ العظيم في السموات ابنان: صبيّ ببشرة سوداء، وصبيّ ببشرة بيضاء. هذا الربّ الوالد في السماء، أعطى كلّ ابن من ابنيه كتاباً. وكلّ كتاب حوى كلّ ما يمكن معرفته عن العالم. وذكر الكتاب كيف يجب على الابنين أنْ يحتفلا بابيهما الربّ، حتّى يسرّ باحتفالهما به. ثمّ يعطيهما شحنة.

لكنّ الابن صاحب البشرة السوداء، ماكان بقارئ. رمى بالكتاب جانباً. احتفى بأبيه الربّ على طريقته الخاصّة. على طريقة ابن الأحراش. بالرقص والغناء وضرب الطبول وبدهن جسمه ووضع الريش على رأسه.

غضب بابا الربّ في السماء – لأنّ الابن ذا البشرة السوداء لم يحتف به كما هو مكتوب في الكتاب.

أما شقيقه صاحب البشرة البيضاء – فكان بإمكانه القراءة. احتفى بربّه الأب وفق طريقة الكتاب، ممّا سرّ أباه. ولهذا أعطى بابا الربّ الشحنة كلّها للأخ ذي البشرة البيضاء.'

أومأ آبو برأسه وابتسم...أومأ برأسه وابتسم. كان بإمكانه رؤية الجانب الآخر من الطريق، والسيّارة التي تحمل اسمه، حين كان الشمبوانيّ يقصّ عليه القصّة.

'ثمّ أتى صاحب بشرة بيضاء إلى قريتنا، أوّل أبيض رأته

القرية. كان مبشّراً. أخبرنا أنّ البيض والسود أخوة. وكان يحمل كتاباً. والكتاب حوى كلّ ما يمكن أنْ نعرفه عن العالم، وكيف نحتفي بابينا الربّ. أعطى المبشر الكتاب لأبي. لكنّ أبي ما كان بقارئ، وإنّما كان على علم بقصّة الشقيقين. لم يرم بالكتاب جانباً. لا. حفر أسفل شجرة جوز الهند ودفن الكتاب هناك، تحت شجرة جوز الهند. بعد ذلك أخذ يجلس كلّ يوم أمام شجرة جوز الهند من نهاية الموسم الجافّ وحتّى نهاية الموسم الجافّ التالي. كان ينتظر أنْ تنمو النقود على الشجرة، فيستطيع بعدها شراء كلّ الشحنات التي تجلبها الطائرات إلى ذوي البشرة البيضاء.'

لم يكن آبو أكثر سعادة ممّا كان عليه في تلك اللحظة. صديقه الشمبوانيّ يخبره هذه القصّة عن والده الحكيم. ثمّ سيقوم بإعطائه سيّارته.

'كم؟' سأله آبو.

'ماذا؟'

'نقود كثيرة، كثيرة – أليس كذلك؟ الربّ أعطى والدك كثيراً من النقود؟'

رأى آبو ما يشبه الغضب على وجه الشمبوانيّ. فعرف آبو أنّ والد الشمبوانيّ ليست لديه أيّ نقود. وتساءل عن سبب ذلك، على الرغم من اعتقاده من أنّه ليس من التهذيب أنْ يسأل سؤالاً كهذا، فلربّما اقترف والد الشمبوانيّ شرّاً ما. أو لربّما كان كاثوليكيّاً. المبشر في قرية آبو لوثريّ، وقال إنّ كلّ الكاثوليك مصيرهم الجحيم. وهي تحت روما. أمّا اللوثريّون فيذهبون إلى الجنّة، وهي فوق مدينة سيدني: رجل من قرية آبو أخبره ذلك. هنالك طريق من الجنّة إلى سيدني، وكلّ الشحنات المصنوعة في الجنّة تأتي عبر هذه الطريق إلى مراكب في سيدني. المراكب تحمل الشحنات إلى غينيا الجديدة. الصناديق التي تحمل الشحنات تحمل اسماءً على وجهها الخارجي. الأسماء أسماء رجال من ذوي البشرة السوداء. لكنّ السود لا يستطيعون الذهاب إلى الرصيف بسبب البوّابات التي

تقول قف وممنوع الدخول. البيض يذهبون هناك. البيض محتالون. يحوّلون الأسماء المطبوعة على الصناديق إلى أسماء بيض. لكنّ يسوع أشدّ حيلة حتّى من ذوي البشرة البيضاء. أرسل السيّارة التي تحمل اسم آبو.

وقف الشمبوانيّ ينظر للأسفل نحو آبو.

'بابا – ألديك أحد من عشيرتك هنا في مادانغ؟'

وانتظر الشمبوانيّ آبو حتّى وقف ثمّ انطلقا معاً. تهزّم الرعد وهدر وبصق برقاً عبر السماء، برق قرمزيّ كلون عصير بزور الفَوْفل. قاد الشمبوانيّ آبو إلى واحد من عشيرته يعيش في منزل شبيه بمنازل البيض، عدا أنّه أصغر، وليست حوله أسلاك شائكة أو فيه كلب. ذهبوا خلف المنزل.

باسوري، واحد من عشيرة آبو، كان يكدّس جوز الهند.

سأله الشمبوانيّ: 'هل هذا الرجل من عشيرتك؟'

قال باسوري: 'نعم، هل يتسبّب لكم بالمشاكل؟'

'لا مشاكل. فقط ظروف سيئة. وقد تسوء أكثر.'

أشار باسوري بإصبعه نحو صدغه وقام بحركة دائرية.

'صاحبنا مجنون.'

كان آبو ينظر إلى الشمبوانيّ، ورأى كلّ شراسته تندفع إلى وجهه.

'ما هو بمجنون!' انفجر صوت الشمبوانيّ راعداً. 'لا تدعوه بذلك!'

باسوري، من جماعة آبو، رجل شجاع. شجاعة عظيمة. لم يهرب من الشمبوانيّ.

'إنه مجرّد...'

الغضب يندفع من خارج الشمبوانيّ بنفس السرعة التي اندفع فيها داخله.

'مجرّد...عقله...مجرّد أنّه اتخذ اتجاهاً خاطئاً.'

رأى آبو الآن أنّ الخوف يغطّي وجه باسوري. رجل

عشيرته بدأ الآن يتراجع الخطى، بعيداً عن الشمبوانيّ. ورأى آبو السبب: يمكن لرجل بشجاعة عظيمة أنْ يواجه شمبوانيّاً شرساً – ولكنْ أيّ رجل يمكنه مواجهة شمبوانيّ يبكي؟

هطلت قطرات مطر كبيرة من السماء. لكنّ الدموع هي التي كانت تجري على وجه الشمبوانيّ.

'اعتن به.' قال الشمبوانيّ. 'اعتن به جيّداً.'

غادر الشمبوانيّ، وانتقى باسوري جوزة هند من الكومة المرتّبة، وقاد آبو من ذراعه إلى أسفل المنزل.

هطلت الأمطار سيولاً عظيمة من السماء، فيما كان باسوري يشقّ بمنجلٍ قشرة جوزة الهند محدثاً فيها فتحة، ثمّ يعطي الجوزة لآبو. ترك آبو تحت المنزل، ثمّ هرع على الدرج إلى المنزل.

شرب آبو من جوزة الهند. وفي تلك اللحظة، ومع انسياب الحليب الأبيض الحلو إلى جسم آبو، انساب التفكير القاتم السيء إلى عقله: لن يحصل على سيّارته. خُدِعَ. خدعه ذوو البشرة البيضاء. خدعه يسوع. البيض ويسوع خدعوه فلن يحصل على سيّارته. ثمّ تذكر آبو صورة أراه إيّاها أحد المبشّرين، وعلم لماذا تمّ خداعه. يسوع صاحب بشرة بيضاء! هذا هو سبب الخديعة التي منعته من الحصول على سيّارته. ولكنْ في يوم من الأيّام – في يوم مجيد – يوم أعظم من يوم الميلاد أو الفصح – سيبعث من بين الأموات رجل ذو بشرة سوداء، وسيكون للسود يسوعهم الخاصّ. وهذا اليسوع الأسود سيحمل منجلاً عظيماً فيشق البوابات التي تقول قف وممنوع الدخول، ويفتح الصناديق التي تحتجز الشحنات، ويقطع الأيدي التي تغيّر الأسماء على الصناديق، وتكتب الأسماء على قصاصات الورق، ويقطع الأذرع، يقطع الأرجل، يقطع كلّ أولئك الذين احتالوا على الأخوة السود. ويقطع رأس يسوع الأبيض.

'مجنون! بابا آبو – أنت يا مجنون مجنون!'

نظر آبو للأعلى ورأى زوجة باسوري تقف أعلى الدرج. كانت تؤشّر عليه وتزعق.

رأى أنّه لم يعد تحت المنزل. كان يقف تحت المطر المنهار سيولاً، ويداه تمسكان بمقبض المنجل. وحوله جوزات هند مسحوقة ومشقوقة. كومة جوز الهند المرتّبة صارت هباءً منثوراً. ومن بين الجوز المشقوق المجروح، انفرج اللحم الأبيض. تدفّق الأبيض على شفرة المنجل، وتناثر على رجلي آبو. حمل المطر المنهار سيولاً، جداول بيض، من جوز الهند المشقوق ليشكّل بحيرة من البياض وقف آبو فيها.

سبق لباسوري أنْ خرج من الباب ودفع نفسه أمام زوجته التي كانت تزعق لخسارتهما جوز الهند. نزل على الدرج، عبر المطر نحو آبو.

بلطف كبير، أخذ المنجل من كلتي يدي آبو.

بلطف كبير، كبير، قال: 'تعال إلى الداخل، بابا. تعال إلى الداخل.'

غراهام شيل كاتب من ولاية فيكتوريا الأستراليّة يعيش في ملبورن. ربحت قصّة "الشحنة" جائزة ولاية فيكتوريا احتفالاً بالذكرى المئويّة الأستراليّة الثانية. سبق نشرها في مجلّة القصّة القصيرة الأستراليّة، وفي الولايات المتحدة في مجلّة *"شورت ستوري إنترناشونال"* . ترجمت القصّة إلى المندرين ونشرت في مجموعة صينيّة حول القصّة القصيرة الأستراليّة.

Kago, by **Graham Sheil**, was published in *Australian Short Stories 22*, 1988 and in *Short Story International*, USA.

جون غريفين

قصّة نيليكان

اعتدنا أنْ نتسكّع أحياناً عند كرسيّ الاعتراف بعد ظهر أيّام السبت، ننصت إلى الهمسات، نتفكّر في أمر الخطايا، متسائلين ونحن نسمع صوت المونسينيور يرتفع بين الحين والآخر، وضجيج مصراع نافذته الذي كان يضربه بغضب فينغلق بسرعة حين كان ينهي الجلسة مع من كانت خطيئته من العيار الثقيل. حاولنا تفسير ملامح النادمين حين كانوا يُطلَقون من الكرسيّ. بيد أنّ أحداً منّا ما كان ليتصوّر أنّ ما فعلته السيّدة نيليكان بين سبت وسبت يستحقّ عشر دقائق، إحدى عشرة، اثنتي عشرة دقيقة من وقت الاعتراف ـ رقمها القياسيّ كان أربع عشرة دقيقة ـ بينما كانت أعمالنا المشينة من سبّ، ونظر لما تحت التنانير، وسرقة الحلوى لا تأخذ أكثر من دقيقة واحدة، أو في أشدّ الحالات دقيقتين. كان صوتها يتحوّل إلى همس خفيض من الإقرار والندم، أمّا المونسينيور فما كان يرفع صوته أبداً، وحين كانت تغادر الشبّاك، بعينين طارفتين إزاء ضوء كنيسة عصر يوم السبت، غير قادرة على رؤيتنا في الظلال، كان يعتري وجهها تعبيرٌ ما كنّا نراه في أيّ وقت آخر. أو لربّما كان الذي اكتشفْتُه بعد عدّة سنوات هو الذي ساعدني على إعادة بناء ذاكرة معيّنة.

ذكرتُ أنّها كانت تبدو حزينة عادة، مع أنّني الآن أعتبر هذا الحكم ساذجاً. الذي انتاب وجهها خلال الأسبوع العاديّ، وهي تنتظر الحليب، وترسم لأمّي القواعد حول البيض الذي اشتريناه

منها، هو الأحاسيس نفسها التي صوّرتها لي ذاكرتي السمعيّة حول صوتها: نوع من المرارة، والدناءة، والكراهية البدائيّة للآخرين. زَجَرَتْ، وحملقت، وحدّدت القوانين، وحاولت التحكّم بحياة "فيل" (فيليب) و"بيل" (وليام)، شقيقيها التوأمين المشاكسَيْن. ما أعطت شيئاً لأحد، ولا حتّى كلمةً طيبةً، أو ابتسامة أبداً.

بعد الاعتراف، لمسنا شيئاً في عينيها، وهيئة فمها: نوع من اللين، خيالُ أيّامٍ مضت مرَّ عبر وجهها، عبر الخطوط البنّيّة والكُلَف الشمسيّة. مهما كانت القصّة التي قدّمتها للمونسينيور، ما قيل لها بالمقابل طرّاها لفترة. حاولنا أنْ نحزر سبب التغيير.

نيليكان، امرأة نحيلة في السبعينيّات من عمرها، رثّة الثياب، ترتدي ما هو منقّط، وموّرد، ومرقّع، وفوقه مرْيَلة من خيش أكياس السكّر، لها حافّة من عُقَدٍ وقِطَعٍ من القماش نفسه. ويضاف إلى ذلك قلنسوة من قماش كيس السكّر في الأيّام الحارّة.

حين كنّا نقصد سدّ البلدة لالتقاط الإربيان، كنّا نسلك طريقنا عبر مسكنها فنوفّر بذلك مسافة زهاء مائتي متر. هناك فتحة في السياج الشجري المحيط بالمنزل، وفتحة أخرى في السور خلف المرحاض الخارجيّ. كان ذلك مقامرة وتحدّياً. إنْ تمّ العثور علينا، سُحبنا من آذاننا إلى كومة حطبها، وأُجبرنا على العمل في خدمتها كالعبيد، نقطّع الأخشاب ونشطّر الحطب. لكنّ أكبر التحدّي الذي كان نصراً لنا على كلّ ما عداه، هو سباقنا في فنائها حين كنّا نراها تذهب إلى المرحاض. كانت تراقبنا من خلال ثقب في الجدار، فتسرع أحياناً في قضاء حاجتها لتمسك بنا. أمّا انتصاراتنا الأثيرة فكانت حين كنّا نقترب ما فيه الكفاية من المرحاض فنرمي الحجارة على حديده المغلفن. وألذّ الأوقات كانت حين كنّا نلتقط القضبان، ونبدأ في سحبها الواحد تلو الآخر فوق الحديد، مع ما تعطيه من صوت راعد. كانت تشكونا إلى أهلنا، ولكنّنا بالطبع أنكرنا كلّ ذلك، دون أنْ يصدّقنا أحد.

قام بيل و فيل بحفر حفرة المرحاض بناء على طلبها،

وكان من المتوقّع أنْ تقوم بوظيفتها لسنوات، لكنّها بدأت بالانهيار بعد هطول أمطار غزيرة. لذلك كان هناك خطر دائم في إمكانيّة انزلاقنا إلى تلك الهاوية المعطّرة تحتنا. عرّض فيل و بيل من أبعاد الرقعة التي بُني المرحاض عليها فصارت آمنة لمن يستعملها، وغطّيا فتحة السياج بقطعة حديديّة. تخلّينا عن الذهاب من تلك الطريق.

لكنّ نيليكان ما تخلّت عنا، ولا توقّفت عن انتقاد خطايانا الماضية، والسعي بالعقاب لنا. فهزئنا منها بأهزوجة: 'أفعلها لا أفعلها، فيل يفعلها. أفعلها لا أفعلها، بيل يفعلها. فلم لا تفعلها نيللي؟ نيللي تفعلها.'

كان فيل و بيل من عائلة دمبسي؛ وظننا أنّ نيليكان أيضاً دمبسيّة، لأنّه ما أخبرنا أحد أنّها كانت متزوّجة سابقاً. حين اتضح لي أمر زواجها السابق، وأردت معرفة المزيد حول هذا الأمر الغريب، كان معظم من عرف عنها ميّتاً، أمّا أولئك الذين بإمكانهم إفادتي فما سبق أن سُمح لهم قطّ معرفة هذه الأمور.

كانت تربطنا بالدمبسيّين قرابة غير مباشرة. إحدى أخواتهم كانت جدّة أمّي، ماتت بتسمّم دمها بعد بضعة أيّام من ولادة جدّي. نيليكان ووالدتها قامتا عمليّاً بتربية جدّي إلى أنْ أتى اليوم الذي نضج فيه عوده وصار بالإمكان إرساله للعمل. ولهذا اتخذت لنفسها نوعاً من الهيمنة الأموميّة على والديّ، وبدا أنّهما تحمّلاها على مضض.

حروبها معي، ومع أصدقائي كانت نسخة وحشيّة عن الحروب التي خاضتها بالضراوة نفسها، ولكنْ بتهذيب أكبر، مع والديّ حين كانت تضع شروطها لعلاقاتها التجاريّة معهما. كانت تلك علاقة ما استطاعت والدتي فيها أنْ تحصل على ما تريد، ولا استطاع والدي أنْ يجد مخرجاً يلتفّ بواسطته حول تلك القواعد التي تفرضها.

قاعدة الحليب. كانت نيليكان تشتري الحليب من والدي

كلّ يوم. كان بإمكانها أنْ ترى من فنائها متى كنت أعود بالأبقار من المشاع إلى المنزل. وقرّرت بنفسها أيّاً من الأبقار ستزوّدها بالحليب. وما كانت تسمح لوالدي أنْ يجمع الحليب من أكثر من بقرة في الإناء نفسه إلاّ حتّى تملأ نيليكان إناءها، وتدفع له أربعة دراهم ونصف الدرهم. أمّا إذا كنّا نحلب بقرة واحدة، فيسقط في يدها، وتفقد الخَيار، لكنّها ما كانت لتقبل أنْ يخلط والدي بين الحليب المفروز وغير المفروز ويبيعها ذلك. كانت تبغي الحليب كامل الدسم، فقط، وكانت تحصل على قشدتها الخاصّة بغلي الحليب.

لأنّ نيليكان ما كانت تثق بوالدي، كانت تحصل على ما تريد تماماً بتواجدها في المكان المناسب في الوقت المناسب. فحين كان يبدأ الحَلْب، كانت نيليكان تصل وتقف بصمت تراقب، وآنيتها بيدها، ودراهمها في جيب مريلتها. كانت تقف قريبة جدّاً لدرجة أنّني أذكر أنّ والدي حذّرها عدّة مرّات أنّ البقرة جفولٌ وربّما ترفسها. لكنّها ما رفست قطّ، ولا حتّى حين كنت أقوم، وأنا في مأمن الجانب الآخر من البقرة، برمي الغصينات والحصى وكتل الوحل لتحريض البقرة على إساءة التصرّف. أردت أنْ تحصل نيليكان على بعض ما تستحقّه من العقاب العادل.

قاعدة البَيْض. بوجود ثلاثة أطفال ولدوا خلال خمس سنوات، وحديقة خضار بحاجة للعناية، ومع تطلّعاتها في إمكانيّة المساعدة في المتجر، لأنّ والدي كانت لديه مزرعة تحتاج لإشرافه، ادّعت والدتي لعدّة سنوات أنّها ما ملكت الوقت للصناعة المنزليّة التقليديّة الأخرى المتواجدة في البلدان الريفيّة: تربية الدجاج. ما كان لدينا سوى دجاجة من نوع اللّجرن، عجوز بيضاء، تخربش طريقها حول الفناء. ملكيّة دجاجة واحدة ما كانت لتؤهّلنا كمربي دجاج، لذلك كانت أمّي تشتري ما نحتاجه من البيض.

استغلت نيليكان صلة القرابة ففرضت كلّ ما تتوجبه هذه الصلة على أمّي بإصرارها على أنْ تقوم هي بتزويدنا بالبيض.

كان لديها عدد وفير من الدجاج الأحمر القويّ المكتنز اللحم، وكان لديها دائماً أكثر ممّا تحتاج من البيض. ما كان لدى أيّ أحد آخر في البلدة دجاجاً كدجاجها. وكان الأخوان بيل وفيل يبيعان الفائض لـ"غوركي" الخبّاز في بلدة "جيربووا".

ما سُمح لأحد أنْ يشتري البيض من نيليكان سوى أمّي التي اشترته تحت شروط صارمة. وما كان يُسمح لأمّي أنْ تضع بيض نيليكان تحت دجاجتها الوحيدة، لأنّ نيليكان ما كانت لتتقبل لسلالتها المميّزة من الدواجن أنْ تصبح مشاعاً. ولذلك حين كان البيض يُسلّم، كان هناك طقسان متّبعان. الأوّل عرضٌ أسبوعي لذنوبي وذنوب أصدقائي، كما كان على والدتي أنْ تفصح عن بالغ أسفها لذلك، وأنْ تعد بأنّها ستجعلنا نصلح من أنفسنا. بعد إتمام ذلك يجري تسليم البيض، ويتمّ الدفع (رفضت نيليكان أيّ عرض للمقايضة). ومرّة كلّ يوم، حين كانت تأتي وقت الحلْب، كانت تتفقد دجاجتنا لتطمئنّ أنّها تسرح في الفناء، وليست محجوزة في علبة تحتضن تحتها كنوز نيليكان.

قاعدة نيليكان حول الجنس ليس لها علاقة بعائلتنا، وإنّما فقط بأخويها. ولقد ركّبنا مجموعة القواعد هذه بأنفسنا عموماً، ووسّعناها، وتفكّرنا بها، وأخيراً أصبحنا نصدّقها. وحسب ما تراءى لنا، كانت لهذه القواعد علاقة برحلة بيل وفيل كلّ أسبوعين إلى جيربووا. القاعدة الرئيسة كما بدت لنا: إذا لم تستطع إيقافها قنّنها. إذا لم تستطع سترها، قدّم عذراً مهذّباً.

كنّا نعلم الكثير عن الجنس؛ معظم معلوماتنا كانت مغلوطة كما اتضح لنا فيما بعد، وكثير منها كان استنتاجاً حصلنا عليه من مراقبتنا للخراف، والخيل، والكلاب، والدواجن. الأناس العاديّون في البلدة كان لهم أطفال، ولكنْ ما بدا لنا أنّه كان يجري بينهم ما يمكن أنْ نسميه جنساً؛ لكنّ المخضرمين مثل بيل وفيل هما اللذان كانا يتعاطيان الجنس، عن طريق إجراءٍ طويل الأمد علمنا عنه بالتنصّت في أماكن مناسبة. اجْلِس على المقعد خارج

الحانة وتنصّت. اذْهَب للتدخين خلف مَبْوَلة الرجال، واستمع لما يقوله واحدهم للآخر، وهم يروون عطش الحصان ـ هكذا جمعنا أجزاء المعلومات عن حياة بيل وفيل ديمبسي السحريّة.

كان علينا أنْ نستنبط ما هي بائعة الهوى، لأنّ بيل وفيل عاشرا بائعة هوى في جيربووا، واستمرّا في زيارتها على الرغم من تقدمهما في العمر. بائعة هوى واحدة يشتركان بها، ودائماً شاركا بها. وحتّى في ذلك الوقت، ما كان يمكن أنْ تجد في جيربووا أكثر من بائعة هوى واحدة، أو أنْ يحتاج الأمر لأكثر من واحدة. كنّا نعلم ما شكل قالب حلوى الهوى: قطع حلوى صغيرة بالهلام والقِشدة لها أجنحة قصيرة، أو قطعاً دسمة مستديرة محاطة بحوافّ وزوائد. تلك أنواع من الحلوى كان الكلّ يجلبها معه من أعياد الفريز التي كان يحيها المسيحيّون المنهجيّون كلّ نوفمبر. ربّما كان لامرأةِ هواهما ثديان مثل فطائر الحلوى المنتفخة، ولربّما كانت ليّنة ولذيذة مثل قالب الحلوى الإسفنجيّ المليء بالكريمة. ما كانت هذه الأفكار أفكار المذهب المنهجيّ.

قبل تقاعدهما وإحالتهما على المعاش، عمل فيل وبيل لدى مصلحة السكك الحديديّة. عاملان عاديّان مسؤولان عن صيانة خطوط السكّة الحديديّة بين بلدتنا وجيربووا، يتفحصان الخطوط كلّ يوم على حافلة صغيرة تتحرك بقوّة اليد. كان فيل يعمل من يوم الإثنين إلى الجمعة، وبيل من الجمعة إلى الثلاثاء. ومع انتهاء العمل يوم الجمعة، كان فيل يظلّ في جيربووا، ويعيد بيل الحافلة إلى البلدة لوحده، ثمّ يعود لإحضار فيل للعمل ثانية صباح يوم الإثنين. عشيّة الثلاثاء كان بيل يبقى مع بائعة الهوى في جيربووا حتّى صباح يوم الجمعة. كان لكلّ واحد منهما ثلاثة أيّام مع بائعة الهوى، وفي اليوم السابع كانت ترتاح.

وهكذا ترك كلّ واحد منهما ثياب عمله وأسبوع عمله في بلدتنا، وترك أفضل ثيابه وبائعة الهوى المشتركة في جيربووا. وكانت نيليكان مدبّرة منزلهما، وسيّدة حياتهما بقيّة الأسبوع، حتّى

سنة تقاعدهما. عندها خطّطا للذهاب إلى جيربووا ليكونا مع فتاتهما، لكنّ بائعة الهوى فضّلت تدابير البعد، ورفضت أنْ يكونا إلى جانبها بشكل دائم. لكنْ بدون حافلة السكة الحديديّة، وبانخفاض خدمات القطارات، صار الوصول إليها مشكلة سرعان ما تمّ حلّها عندما اشترت نيليكان، من نقودها الخاصّة، سيّارة فورد موديل "آي" ووضعت لهما شروطها. وهكذا اقتصرت مغازلات فيل وبيل على يوم واحد كلّ أسبوعين لكلّ منهما، حين كان يأخذ بيض نيليكان إلى جيربووا.

'أذكرها بعيون الطفولة، وأتذكّر شقيقيها اللذين لا يعرفان الربّ' (الوصف هو للمونسينيور يتحدّث إلى والدي). أنهيت الصف السابع في مدرستنا ذات المدرّس الواحد، وأرسلوني إلى القسم الداخليّ في كلّيّة المدينة. كنت أرجع إلى المنزل ثلاث مرات فقط كلّ سنة أثناء العطل الدراسيّة.

وفي السنة الثانية من غيابي، رجعت أثناء عطلة أيّار ليقال لي: 'نيليكان ماتت الأسبوع الماضي. العجوز المسكينة.' وما تحدّث أحد بأيّ شيء آخر حول هذا الموضوع. بعد ذلك ببرهة قصيرة باع والديّ مزرعتهما ودكّانهما وانتقلا إلى المدينة. وبعد ذلك بكثير سمعنا أنّ بيل مات ثمّ لحقه فيل بعد شهرين.

عندما كنت في الخامسة والعشرين، ومتزوّجاً، أخذت زوجتي لأريها الريف العجيب البائس الذي ترعرعت فيه، وقمنا بزيارة مقبرة البلدة. هنالك كانوا، والدي ووالدتي، وعبر الممرّ من جهتهما قبور الدمبسيّين، بشواهد صغيرة. فيليب ليونارد ديمبسي 1872-1954. ليرقد بسلام. ويليام جايمس ديمبسي 1872-1954. ليرقد بسلام. إيلين مود خان 1870-1949. زوجة زمان خان. لترقد بسلام.

نيليكان؟ نيللي خان! الاسم الذي سبق أنْ سمعته كلّ طفولتي لم يكن الاسم الذي أراه الآن!

لدي القليل ممّا يمكن أنْ أقوله عن الدمبسيّين الأوائل،

الذين قدموا من "دينغل" في "غيلتاخت"، ووصلوا إلى ولاية جنوب أستراليا يتكلمون لغة غيليّة أيرلنديّة فيما بينهم، وإنكليزيّة مكسّرة مع الآخرين. أولادهم ـ والدة جدي أغنس، ونيللي، وفيل، وبيل ـ ولدوا في الشمال، في البلدة التي ماتوا فيها، وترعرعوا يتكلّمون الإنكليزيّة بلكنة أيرلنديّة. وأكثر أهل البلدة كان كذلك، فكنّا في معظمنا من سلالة أيرلنديّة، عدا الألمان هناك في "منبارا هيلز"، الذين ما اختلطوا مع الآخرين. وغرباء آخرون كانوا يحضرون إلى بلدتنا بين الحين والآخر.

أتذكرُ زيارة الغجر، عائلة من خمسة أو ستّة، تكوّمت في سيّارة قديمة، مرّت ببلدتنا عدّة مرات في السنة التي سبقت الحرب. دكّان والدي كان متجراً عاماً ـ فالذي لم يعرضه مع البقالة حفظه جملةً في مستودع مجاور. كانت لديه قاعدة يتّبعها بالنسبة للغجر: إنْ سألوه عن شيء لديه في المستودع، قال لهم إنّه لسوء الحظ نفذ. ما من شيء كان ليقنع والدي بترك الدكّان دون إشراف.

حين أتذكّر الغجر، تأتي إلى مخيّلتي كلّ تلك الصور التي كدّستها من مشاهدة الأفلام السينمائيّة، وليس من زيارات الغجر الحقيقيّة لبلدتنا الصغيرة المليئة بالغبار على مفترق الطرق في منطقة "ويلوكرا بلاين". بيد أنّ ذكرى واحدة تستدعي التأمّل. ذات مرّة تسلّق صبيّ غجريّ، عمره يقارب عمري، سياج نبات الأفَسِنْتين واكتشف أعشاش الدجاج، فملأ كيساً بالبيض، ثمّ أمسكت به نيليكان. قفزت عليه من غطاء مرحاضها، وضربته بالسوط حول أذنيه حين صاح للنجدة. حين حضرت والدته، سيّدة نحيلة شائبة، كانت نيليكان تجرّ الصبيّ نحو الدكّان، وكانت هناك مواجهة صامتة غاضبة لدقيقة أو اثنتين، بعدها تركت نيليكان الصبيّ، وقدّمت للغجريّة كيس البيض. راقبت ذلك يحدث. وما سبق لي أنْ رأيت الشفقة على وجه نيليكان من قبل، إذا كانت الشفقة هي ما رأيت.

الذين يقولون إنّ أستراليا كانت أحاديّة الثقافة قبل عام

1950 مخطئون. معظم سكان بلدتنا كان، وهنا أستعمل ألفاظاً تعلّمتها في ما تأخّر من سنوات حياتي، من خلفيّات غير ناطقة بالإنكليزيّة. ماعدا مجتمع صغير من المسيحيّين على المذهب المنهجيّ، وهؤلاء كرهوا معظمنا معظم الوقت. ومجموعة أصغر تنتمي إلى الكنيسة الإنكليزيّة، وكلّ أفرادها إما من عائلة لوكاس أو هندرسون. واللوكاسيّون والهندرسيّون ما كرهوا أو حتّى أحسّوا بوجود الأيرلنديّين والألمان. لكنّ اسم نيليكان الحقيقيّ كان إيلين خان، و"خان" اسم معروف في ولاية جنوب أستراليا، في شمالها البعيد، في تلك القواعد القاحلة البائسة حيث عاش رجال الجِمال الأفغان، وبنوا مساجدهم وماتوا إمّا بدون أطفال، أو تزوّجوا من نساء أبوريجينيّات. وقليل منهم حظي بزوجة أوروبيّة.

مرّة واحدة فقط، في أواخر 1941، وصل الجِمال والباعة المتجوّلون إلى مفترق طرقنا، واشترى والدي مغاسل للوجه، ومناشف، وقطن، وإبر، وشرائط أحذية، وجوارب، وقماش، كلّ ذلك من أجل دكّانه.

ثلاثة جمال ورجلان، ظهرت من خلال السراب الحراريّ على الطريق، صور تتشكّل وتنهار ثانية حتّى أصبحت قريبة ما فيه الكفاية ليستطيع واحدنا أنْ يصيح: ‘جِمال!‘ ‘إنّهم الأفغان‘، قالت أمّي، ‘وابتَعِدْ عن الجِمال‘، قال أبي، وتأرجحنا على سور فناء المبيعات لنراقب الرجال بألبستهم التي اتخذت لون الأكياس وهم يفرغون حمولتهم حتّى يتفحّصها والدي. قضمت الجِمال العشب الطري، وشذّبت براعم شجرة الفلفل، واستندت على مضخة البنزين تحك نفسها، وجثت، ثمّ نهضت ثانية بناء على أوامر بلغة ما سبق لنا سماعها أبداً.

غادر الرجلان وجِمالهما، وحين ذابوا في الأفق الشماليّ، كتلة بُنّيّة سريعة تتسرب عبر غيمة حراريّة فوق طريق "مانبورا"، جاءت نيليكان من خلف سياجها ووقفت جانب والدي بالقرب من المضخّة التي كان يتفقّدها عسى أنْ أصابها ضرر. ‘سألَتني ما

اسمهم،' سمعته يخبر أمّي تلك الليلة. 'ولكنّهم لم يخبروني. على كلّ حال، كانا شابّين فتيّين.'

كان ذلك السابع من ديسمبر 1941، أو نحو ذلك، وكنّا في حالة حرب مع اليابان في اليوم التالي، أو نحو ذلك. أمضيت مع أصدقائي السنتين التاليتين في مراقبة قطارات الجنود تحمل الأمريكيّين شمالاً وجنوباً، من وإلى مقاطعة أستراليا الشماليّة. الآن أقول لأولادي، أحبّ أنْ أفكّر بأنّني رأيت أمّة قديمة تختفي إلى الغيمة الحراريّة، حين أصبح آخر قطار حمل الجِمال إلى "ويلوكرا بلاين" مجرّد ذكرى.

الأفغانيّان، الشابّان اللذان حدّثهما والدي، لا بدّ أنّهما اكتشفا عند وصولهما إلى منزلهما في "غانتاون" أنّه تمّ استدعاؤهما لخدمة العلم، مثل معظم الأستراليّين الشبّان الآخرين. فإذا كان لقبهما "خان"، فهو اسم شائع في منطقة أقصى الشمال، كما أنّ اسم خان يظهر في وثائق حروبنا هنا وهناك. واحد من الأستراليّين الذين أُسروا في سنغافورة كان من عائلة خان.

لنلصق القطع سويّاً عسى أنْ نحلّ لغز نيليكان: شفقة غير متوقعة تجاه عائلة غجريّة جائعة؛ سؤال على مفترق الطرق في الغبار، ونظرة إلى البعد حيث تلاشى أفغانيّان وثلاثة جمال. ذكريات من أشدّ ما يحتضنه ذهني غموضاً، والواقع أنّها ذكريات كانت منسيّة إلى أنْ فوجئت برؤية اسم إيلين خان على شاهدة قبر في مقبرة طفولتي.

يا للعجب. والأشدّ عجباً أنّ والدي، حين أسأله، يخبرني فقط أنّها كانت متزوجة من أفغانيّ. لا يعلم أيّ شيء آخر، ولا حتّى اسمه، الذي صرت أنا الآن على الأقل أعرفه: "زمان خان". أمّي، خالتي ماغي ـ لا تعرفان شيئاً.

أسافر إلى "كريستال برووك" لأسأل جدّي "بب"، في التسعين من عمره تقريباً، ولا زال متّقد الذهن، لكنّي أحسّ

بانسداده حين أسأله أنْ يخبرني عن زواج نيللي "خان". 'لا أعلم،' يقول. وحين أخبره أنّني أحاول إكمال شجرة العائلة، لا أستفيد شيئاً. فموضوع نيللي خان، موضوع لا يريد بب أنْ يتوسّع فيه، مع العلم أنّه أكثر الرجال ثرثرة في المنطقة الشماليّة الوسطى.

وحاولت معه ثانية في زيارتي التي تلت. 'بب لا يمكن أنْ يعرف كلّ شيء حول هذا الموضوع،' تقول لي خالتي ماغي. لا بدّ أنْ أكتشف الأمر بنفسي.

هكذا أَكتَشِفُ كيف أنّ والديَّ وإخوتهما وأخواتهما كرّسوا كلّ حيواتهم ليعرفوا عن زمان خان، وكيف تزوّجت نيليكان، لكنّ جيل أجدادي رصّ صفوفه واعتصم بالصمت. الكاثوليك الأيرلنديّون في الأحراش ما تزوّجوا، وما رقصوا أو شربوا مع البروتستانتيّين حين كان أجدادي شباباً. والزواج من أفغانيّ كان فضيحة عظيمة، والجيل الحكيم المحافظ لا يفشي فضائحه، بل يخيط شفتيه، وينمّي حالة فقدان ذاكرة عامّة، ويتظاهر بأنّ شيئاً لم يحدث.

وبعد ذلك بب، الذي كنت سأتملّق له لأحصل منه على القصّة، قرر إصلاح سقف منزله بعد أنْ نزعت حديدَه ريحٌ شديدة، فوقع من على السلم وكسر ساقاً. أصابته حمّى، في مستشفى "كريستال برووك"، ما عرف أحد ما هي، ودفن في الهضبة المشرفة على البلدة. بعد الجنازة، وخلال أكل السندويش وحلوى اللامنغتون، سألت الجميع عن معلوماته عن نيللي خان، ولم أستفد شيئاً.

الأحراش في القرن الماضي، ومع طليعة القرن العشرين، كانت مليئة بالعازبين الذين ما كانت تتوفّر لهم النساء القابلات بالزواج. كيف لم تتمكّن نيليكان من إيجاد زوج كاثوليكيّ أيرلنديّ؟ ما نوع الوحدة، أو ذلك الحبّ العاصف الذي قادها للزواج من رجل من غانتاونز؟

كثير من الأسئلة، ولا أجوبة. هل عاشت معه طويلاً؟ هل

سافرت معه أحياناً؟ لماذا افترقا؟ هل كان لهما أولاد؟ هل من أبناء وأحفاد لها بين "الخانيّين" الموجودين حاليّاً في "أوودناداتا"، أو "بورت أوغوستا"، أو "أليس سبرينغز"؟ أم هل مات، مرمياً من على ظهر جمل انطلق فجأةً، وترك ليتفسّخ في صيف قائظ، بعد أنْ نادى زوجته وربّه مستغيثاً بلهجة طغيان تلك الأرض المنبسطة؟

أم هل، أتذكّر ذلك الوجه الصارم المليء بالخطوط والبقع من الشمس واستنتج أنّ هذا غير معقول، هل عاشا معاً دون مراسيم زواج، دون ورق وتوقيع، دون وثيقة وشهود؟ هل كانت له مجرّد بائعة الهوى التي نصبها في بيته مؤقّتاً، في ظلال أشجار النخيل وعلى مرأى من المسجد التنكيّ— المرأة التي كان يعود لمنزله إليها مع جِماله بين الحين والآخر؟

أكان حبّاً على هذا المقدار، وخطيئة بهذا الحجم، حتّى تخبرها، مرّة تلو المرّة، سبتاً بعد سبت، للمونسينيور خلف الستار الأرجوانيّ الصغير لكرسيّ الاعتراف، ولم يصرخ في وجهها لأنّه اكتشف في قصّتها سحراً، والتزاماً، وشجاعة من نوع خاصّ؟ هل أخبرته مراراً وتكراراً حتّى تتعايش ثانية مع كلّ ما كان يمكن أنْ تكون عاشته مع زمان خان؟

ليتني كنت أعلم سرّ تلك الحياة، لكنّ جيلها المغلق أبقى عليها في الحفظ والصون. أتذكّر فقط تلك النعومة التي ظهرت عبر وجهها البيّن حين خرجت، طارفة العين من كرسيّ الاعتراف، متجهة نحو ضياء عصر يوم السبت.

جون غريفين (1935-2012) شاعر وقاصّ أستراليّ وله مسرحيّات إذاعيّة. "قصّة نيليكان" مستوحاة من زواج شقيقة جدة والدته لأفغانيّ. الأصل الإنكليزيّ لهذه القصّة نشر كما يلي.

The Story of Nellycan, by **John Griffin**, was published in *Quadrant* No. 343, January-february 1998.

ماري غولدينغ

السَلَف

’عيد ميلادك سعيد يا بابا،‘ خاطبْتُه من غرفة النوم وأنغام الفرقة الموسيقيّة الأيرلنديّة المفضّلة لديه تعلو بالنَدْب السلتيّ الذي يفعل فعل التنويم المغناطيسيّ. دارت كلمات الأغاني الحزينة في ذهني:

هل صدّقت فعلاً أنّ هذه الحرب ستنهي الحروب؟
لنعترف أنّ العذاب، والأسى، والمجد، والعار،
والقتل، والموت، راحت كلّها هدراً.
كلّ شيء يتكرّر مع الشاب "ويلي مكبرايد"
ويتكرّر ويتكرّر ويتكرّر ويتكرّر.

صرختُ: ’يا بابا، هل علينا أنْ نسمع هذه المآسي منذ الصباح الباكر— إنّه عيد ميلادك بحقّ السماء.‘

أجابني صارخاً وهو يرفع صوت الغناء: ’مشكلتك أنّك دائماً تجدين ما تتفلسفين به، هذه هي مشكلتك.‘

يبدو أنّ تلك الأصوات المحزنة من موطنه الأصليّ كانت تريحه منذ أنْ بدأ السرطان الأسود يتلف جسمه. شعرت بغصّة في حلقي حين كنت أجهّز حقيبة سفري.

فتحت نافذتي لأستقبل ذلك الصباح الأخير من زيارتي، وشعرت بنسيم الصباح المنعش على وجهي. رائحة الياسمين القويّة كانت تدل على نهار ربيعيّ جميل من نهارات تسمانيا، لكنّ

جبل ولينغتون كان مدعاة للتأمل— الغيوم منخفضة.

دقّت ساعة الحائط القديمة معلنة تمام الثامنة. قلت في نفسي وكأنّني أخاطبه: 'أعجب كيف أنّك تتحمّل هذه الساعة التي لا ترحم يا بابا!' كانت بالتأكيد تذكّره دون شفقة بمرور الساعات، والأيّام. أم هل كانت مدعاة للسلوى؟ لا زال هنا، والوقت لم يخنه— ربّما كانت تلك هي المسألة.

نزلتُ عبر الممرّ المظلم، واجتزت خزانة الكتب الطويلة الضيّقة المملوءة بكلّ ما جمعه من كتب في حياته. سلسلة ممّا اشتراه من معارض الكتب المدرسيّة، ومحلاّت التعاونيّات، والبيوت. كُتبٌ عن مختلف المواضيع؛ الأبوريجونيّون في تسمانيا، السهم العريض، قصّة حياة، شعر دبليو بي ييتس. كما كانت لديه طبعات أولى مثل كتاب مارتن كاش رجل الأدغال في أرض فان ديمان 1843-1844.

'أنا رجل علّم نفسَه بنفسه، كما تعلمون.' كان يقول لنا عادة حين كنّا نجلس جميعاً حول طاولة المطبخ نستمع إلى ما كانت والدتي تصف أنّه 'تطريز والدكم'.

من الممتع أنْ أفكّر الآن كيف كان يكدّس أهمّ كتبه في السقف، لأنّه كان قلقاً أنّ دائرة الضرائب ستسائله عن أرباح رأسماله من الكشك الذي كان يبيع منه الكتب في السوق المحلّيّة كلّ يوم سبت.

يجلس والدي الآن إلى الطاولة البلاستيكيّة الصغيرة الموصولة بكرسيّه المتحرك، والراحة جليّة على وجهه عندما كانت شمس الصباح تتدفّق نحوه من خلال النافذة المرقّطة بقطرات المطر. ردّد مرّة أمامي: أينما تذهبين تتركين وراءك شيئاً من حضورك— نوعاً من الظل.

بطريقة أو بأخرى، لم يقلّل مرضه من شأنه، بل أعطاه صفة روحيّة زئبقيّة، فكانت الأرواح تحلّ فيه، وتصبغه بصفاتها، وما تلبث أنْ تغادره. للحظة تجد أنّه الملك لير، أو أنّه شاعر ميّت،

أو شبح عيد ميلاد مضى، أو ذلك الفتى العائد من الحرب لتوّه في الصورة على خزانة الأطباق.

أمّا في ذلك اليوم فكان جندياً من أفراد جيش التحرير الأيرلنديّ، وعلى رأسه، الأصلع الآن، قبّعة زيتونيّة اللون سميكة الحبكة، يلبس قُفّازات جلديّة مبطّنة بالفراء، وجزمة تغطّي قدميه اللتين لا حراك فيهما. عاد اللون الحيويّ إلى جانبي خدّيه بعد نقل الدم يوم أمس. كم كانت بشرته نقيّة، مفعمة، لا خطوط فيها حين كانت صحته جيدة.

قلت له: 'لا تبدو أصفر اللون هذا الصباح يا بابا.'

أجابني وآثار ابتسامة ملتوية على وجهه: 'ها ها، صينيّ لم يذهب إلى الصين قطّ، ولكنّني كنت في إيطاليا أثناء الحرب. الإيطاليّون قلوبهم دافئة، لكنّهم ليسوا شجعاناً. لا أحبّ اليونانيّين. اليونانيّون يخطّطون ويتآمرون باستمرار. ها! إحذري يونانيّ يقدّم لك هديّة.'

كان والدي يجلس في المكان نفسه عند طاولة المطبخ حينما اتصل بنا ابنه المحبوب "جيم" من مدينة سيدني. لم يكن قادراً على الحضور للمشاركة في عيد ميلاد والده، فثمّة ما طرأ، ولن يستطيع إحضار أولاده.

قال له والدي: 'أفهم ذلك يا بنيّ فأنت رجل أعمال، قم بما يجب أنْ تقوم به.' لكنّ دموعه كانت تنهمر فوق القارورة التي كانت في حضنه. جلسنا دون أنْ ننبس بكلمة لمدّة طويلة تلك الليلة، ولربّما كان لسان حال والدي يردّد: 'عقدة البطولة، هذا ما يعاني منه الولد – عقدة البطولة – يظنّ نفسه أنّه "الأمل الأبيض العظيم" وأنّ عليه صناعة ثروته على أرض القارّة ويعود إلى جزيرتنا لينقذنا جميعاً.'

'مرحباً، مرحباً، صباح الخير.' صوت أختي "فران" التي وصلت تنادي من المدخل، وهي امرأة دائمة العزيمة.

'عيد ميلاد سعيد يا بابا.' قالت وهي تنحني لتقبّل وجنته.

’أحضرت لك كعكة.‘ قالت وهي تكشف عن أسنانها المثاليّة، ثمّ تابعت: ’يا بابا، طلب مني جيم أنْ أجلب لك بعض الويسكي، لكنّي لا أعتقد أنّ بإمكانك شربه، ولذلك أحضرت بديلاً.‘

قدّمَت له علبة هائلة الحجم من سمك السلمون التسمانيّ المـُدخّن. وقفت، وقامتها فوق والدي، وهي تحمل شريحة السلمون وكأنّها ربحتها في مسابقة. تبسّم والدي قليلاً الآن.

’ويا بابا، طلب جيم أنْ أحضر لك بطاقة خاصّة، بطاقة تحوي صورة بحر أو مركب. أحضرت هذه لأنّ كلماتها جميلة. هلمّ وافتحها يا بابا.‘

تناول البطاقة وفتحها بتوءدة.

’آه! لا.‘ قال وعيناه تطفحان بالدموع وهو يرمي بالبطاقة على الطاولة، وأوراق من فئة المئة دولار تتطاير منها. وللحظات قليلة راقبت وجهه يميل إلى الغضب ثمّ الأسى— شيء لا يمكن وصفه.

ثمّ، وللحظة رأيته - الرجل في الصورة الأسود والأبيض على خزانة الأطباق – والد طفولتي، الشابّ الذي عاد لتوّه من الحرب في بذّة التسريح، وحشاً عومل بوحشيّة، بعينين غاضبتين مشتعلتين ونصف ابتسامة ملتوية. تركنا بالسرعة نفسها التي أتى بها.

’هذا من صبيّك يا بابا،‘ قالت له فران وهي تلتقط الأوراق النقديّة وترتبها بيديها البيضاوين، وأظافرها المطليّة بعناية. ضربت برزمة النقود على الطاولة بإصرار ينمّ عن عظمة أخينا.

’ما كان يجب أنْ يفعل هذا من أجلي.‘ كانت الدموع تنساب على وجهه المكفهر.

’هذا هو انطباعه عنك. هذا ما فعله ولدك من أجلك. عدّ النقود يا بابا.‘ حملها، وكانت تزيد عن ألف وخمسمائة دولار.

كان والدي في الحلم طفلاً صغيراً يركض حافي القدمين

على شاطئ من الحصى. قالت له الروح إنّه سوف يؤذي نفسه إنْ لم يغطّي قدميه بشيء.

ضحكت فران ضحكة عريضة في وجهي. الانتصار يشعّ من عينيها العسليّتين. جيم سيكون مسروراً منها. مسّدت يد أبي.

تركتُ الغرفة، ووضعت رزمة صغيرة من الجوارب الحمر على المـِزينة إلى جانب لوحة فران المرسومة بالفحم، وهي عبارة عن تركيب مماثل للوحة السيّدة والطفل، ولكنْ يحمل والدي هنا كلبه الصغير إلى صدره، ويُظهر نصف ابتسامته الملتوية، وعينيه التواقتين كعيني مهاجر. كانت أختي فران تتصوّر نفسها فنّانة.

حقيبتي في صندوق السيّارة. لا حاجة لإلقاء تحيّة الوداع. أُغلق باب سيّارة الأجرة الصفراء بصوت كئيب مكتوم. المقعد الفينيليّ كان بارداً، وصدرت عن السيّارة الرائحة القويّة التي خلّفتها الليلة السابقة. اختفى الأمل بيوم ربيعيّ. غطّى الثلج الجبل الآن وتجمّعت الغيوم حول السفح. حلّقت الأرواح الهائمة على انخفاض وغنّت بهدوء مع النسيم:

هل قرعوا الطبول ببطء، هل عزفوا الناي بهدوء؟
هل أطلقت البنادق رصاصها فوقك حين أنزلوك؟
هل عزفت الفرقة "آخر المعسكرات" مجتمعة؟
هل عزفت المزامير "أزهار الغابة"؟

ماري غولدينغ من مواليد بريطانيا، هاجرت إلى أستراليا مع والديها في الخمسينيّات من القرن العشرين حين كانت طفلة. نشر الأصل الإنكليزيّ لقصّة "السلف" كما يلي.

Forbear, by **Mary Goulding**, was published in *Kalimat* 15, 2003, Sydney.

كارولين فان لانغنبيرغ

أكابر... من "ردفيرن" إلى "وريغتون"

تتظاهر لين مكريدي، الأنيقة، أنّها تقرأ كتاباً يدعى "المفيد في البراري والقفار"، فيما تجلس على مقعد طويل في القطار.

واامرأة شامخة الطول، وقفت أمام مجموعة من أولاد المدرسة يسعلون، ويطلقون أصواتاً كالشخير تارة وتارة كالصهيل، وأجملهم يطلق فكاهة من فكاهات الطعام المبتذلة. 'اسلخوا بيضَتيَّ الشوكولاتيّتين،' صار يدعو الآخرين، الذين بدأوا يعبسون ويمسكون جوانبهم بطريقة تدل على ألم مبالغ فيه، شفاههم الملائكيّة تتجعد، وكأنّها لتقشر الجزر، وتقضم السلامي، وتسلخ الموز، وتدلّك الليمون، وتمرغ أنفها في البرتقال، وتلوّح بضلع الكرفس. يا لها من وفرة في المحاصيل. فعلى طول المسافة من ضاحية ردفرن إلى ضاحية وريغتون، ينطق، هؤلاء الأعزّاء على قلوب والداتهم المتعدّدات، بكلامهم البذيء الأحمق الذي قد يكون مسليّاً بعض الشيء، ليختلط مع الرائحة الوافرة المنطلقة من أجسامهم التي كانت تتعرّق على الصِرج الصوفي السميك لستراتهم المدرسيّة.

ترفع لين مكريدي كتابها المفتوح وتخفضه. تخفض جفنها، وتحاول إظهار عدم الاكتراث، وتمهّد معطفاً رمادياً

مطروحاً فوق محفظتها وحقيبتها الليليّة. تكره حمل الأمتعة الكثيرة، وترغب لو أنّها تسافر بوزن أخفّ، لكنّ يبدو أنّ عطلة نهاية الأسبوع مع عشيقتها الجديدة، فاي هيندرمارش، ستكون باردة برد الشتاء.

شمس قاسية تشوي عربة القطار. لين تغلي داخل بذلتها.

صبيّان هادئان يجلسان قبالتها. واحد يتنشّق ويسعل. يظهر وكأنّه بحاجة لفراش طريّ وشراب ساخن. الآخر يلفّ يده حول فمه. لا يشارك في السفاهة، يقهقه، عيناه الثابتتان تقيسان مستويات في الارتباك كلّما نظر إلى المرأة التي أخفت الجزء السفليّ من وجهها خلف دفّتي كتاب، امرأة يمكن أنْ تكون من عمر والدته، أو عمّته المفضّلة، أو عضواً محتشماً من أبرشيّة الجوار.

ترى لين من فوق كتابها أنّ هؤلاء الصبيان صبيان كنيسة، صبيان من مدرسة تابعة لكنيسة. تحدّق إلى الصبيان يتضاحكون ضحكاتهم المكتومة حول الموادّ الغذائيّة التي لها في خيالهم شَبه بالأشياء التي يفعلها البالغون لأعضائهم التناسليّة أو بها. الربّ في اعتقادهم قد يكون صانعهم، لكنّ الموادّ الغذائيّة تشكل عقبة أمام حمايته المثلى لهم فيها. الضحك المكتوم ينفجر فجأة إلى ضحك صريح. مجرّد ذكر "السلامي" يجعلهم يضحكون.

تساءلت لين، حين كانت تقلب صفحة من صفحات القصّة، متى يكتشف هؤلاء الصبيان الأعزاء حقيقة الأجسام. الأجسام. ليس شيئاً عابراً كرمز لجسم المسيح. بل أجساماً فاسدة دافئة لينة العريكة حقيقيّة.

تتصبّب عرقاً. الصبيان منتنون.

الشمس تزيد من بخار الحافلة الحامية.

متى يستعيض الصبيان بالأجسام عن الخضار؟

يسرع القطار على الخطّ ماراً بناصيات مليئة بنساء حائمات فوق أكياس ورضّع، وفوق أكياس، وحقائب، وأطفال، وعربات أطفال، وحقائب، وأمّهات مسنّات واهنات، وحقائب، وحقائب. رجال، أيضاً، رجال تطقطق عضلاتهم، وتتألّق أوشمتهم بلونها الأزرق فوق جلدهم الذي يبدو كلوح أصفر من الورق المقوّى. أصحاب موقف— سراويلهم "جينز" ممزّقة، ذقونهم لم تحلق منذ أيّام، قبضاتهم كلمة حادّة، أو اثنتين، تعارك الفراغ أمام وجوههم. يثنون ركبهم ليشغلوا الفراغ على المنصّات المصنوعة من الآجر القديم. ورجال آخرون، أيضاً، مناقضون، بطونهم تتدلّى فوق أحزمة سراويل بذلاتهم الرياضيّة الرخيصة. أجسامهم أورام تحت كنزات أكريليّة غليظة. هذه الحجوم لا تترك مجالاً لوجود ذقون تربّى عليها لحى قصيرة خشنة.

الصبيان في القطار، صبيان ببذلات رسميّة، وصبيان ببذلات رسميّة لمدرسة خاصّة، ذلك النوع من الصبيان ذوي الوجوه النظيفة الذين يتّصفون في بعض الحالات بحسن السلوك والتهذيب الباعث للبهجة، يضاعفون الآن جهدهم في إطلاق فكاهاتهم. يثنون، بهمهماتهم الساخرة، وصهيلهم، على أسوأ فكاهاتهم وأشدّها بذاءة وقذارة وخداعاً، لأن هؤلاء الصبيان لا ينوون الملهاة. ولربما كانوا يتعلّمون بعناية الربّ أصول اللعبة. لعبة الأجسام بلا كتب.

هل يتفهّمون دفء الأجسام؟

تقع عينا لين للحظة عابرة على أمّ تتحدث إلى طفلها المشرق الوجه وكأنّهما لوحة منقوشة على حجر كريم.

"المفيد في البراري والقفار" يجثم في حجرها، كتاب بحوافّ حادّة المظهر لكنْ ليس إلى حدّ الخشونة، لمؤلّفته مارغريت آتوود، كاتبة كنديّة مشهورة لتحفّظها. تحدّق لين باطّراد إلى الأسيجة الخشبيّة المتاخمة لخطّ السكّة الحديديّة. بيوت من الآجرّ الأحمر بسقوف خفيضة تنحسر وراءها، شبابيك تتراجع بلا

تعبير، بلا انعكاس. أشجار أوكاليبتوس طويلة تشكّل حلقة حول ملعب رياضيّ. بعض الرسوم العابثة مرشوش على سياج عال من الحديد المغلفن ينطق عن قليل من الفنّ وكثير من اليأس. لا وجود لحدائق مزدهرة، ولا بساتين مثمرة، ولا من وشيع سميك يشكّل حدوداً. الحقيقة، غابت الزخرفات تماماً. وترفع لين قصّتها حول البراري والقفار لتضعها بينها وبين الضواحي القاحلة.

الولد الصغير، الوسيم، ذو الجمال المنبسط الملامح، الخليط بين الماليزيّ والإنجليزيّ، يضحك ويضحك. يرفع ركبتاه، ويرمي برأسه إلى الخلف، ويصيح مبتهجاً، كلوا كرتيّ الشوكولاتيّتين!

اصمت، اخرس، اسكت.

في الزاوية القاصية من خطّ رؤيةٍ آخر، تتقوّس امرأة ظهرها، ترفع ذراعاً طويلة، وبعينين ثابتتين، تتسلل عبر الغرفة لتطبع شفتين حمراوين على بوز أحمر الشفتين، ثمّ تتدلّى الأجفان، عين واحدة تطرف، الفم يدمدم، ارفعي صوت الموسيقا، اخفضي النور، ويحمر وجه لين. محشورة انحشار قدم امرأة صينية. أم أنّها الدمية البطنيّة؟

ارفعي صوت الموسيقا، اخفضي النور، من قال هذا؟

يطرق قلبها من حلقها إلى فرجها، لهثة من نار تمزّقها، وتشعر بحرارة شديدة وهي ترتدي بذلتها الشتويّة الجديدة، لا يبصر أحدهم من خلالها سرّ تلك الزاوية التي ما كانت فيها هي هي تماما.

إن لم تكن هي هي، من هي؟ مارلين مونرو؟ ماريان فيثغول؟

عندما همست فاي هيندرمارش عبر خطّ الهاتف، ارفعي صوت الموسيقا، اخفضي النور، ضحكت لين بشكل كتيم. غريس جونز لا تضحك على هذا الشكل. على كل حال، هي سوداء ولين

زهريّة، وقهقهة لين سانجة، وعبارة فاي الأولى التي تعمّدت إغواءها جعلتها سخيفة وخجولة. ولربّما شابه فمها فم ميشيل بفايفر عندما قامت بدور الزوجة المطيعة في فيلم "علاقات خطيرة"، ووافقت لين على لقائها في الكوخ الذي تملكه فاي في مصيف لورا. لكنْ كان لا بدّ لها أوّلاً أنْ تعرّج بمحطّة ورينغتون.

لين تتوقّع مرور ساعات قبل لقاء فاي، وفي خلال هذا التوقّع كانت تسمع أصوات الصبيان وهمهمة القطار الخفيضة، وتكتشف أنّ عينيها وقعت على نسيج قماش معطفها، يدها عليه، الجلد رقيق وسمته الشمس، والخاتم يومض على إصبعها المتوسّط. وفيما تراقب لين الخاتم يتألّق، تفكّر في أنّها لم ترد أبداً أن تكون كاثلين تيرنر، وتفضّل فكرة تقديم القهوة للتحرّي الطلابيّ في مسلسل توين بيكس.

تقف لين مكريدي. يلتوي صبيّ في مقعده ليدعها تمرّ. ركبتاه تُبرزان نقطتان عظيمتان عبر بلطاله. تيم النحيل أو جايمس الهيكليّ، هذا، ليس فازيلي. فازيلي صبيّ بدين. الصبيان الآخرون، بعد أنْ تكشّفت تفاهة عقولهم، يلطّخون اسمه بالفازلين.

تسحب لين حقائبها من المقعد الطويل، تعلّق معطفها فوق كوعها.

استمر الصبيان الآخرون ببذاءاتهم الطعاميّة دون انقطاع، تتكسّر الفكاهات الغذائيّة على أسنانهم بدون صعوبة، ساعة من الزمن بين المدينة والسهول، رغم وجوههم اللطيفة: التفّاحات مصقولة، الكرزات مقضومة، كُل كرتيَّ الشوكولاتيّتين.

تشقّ لين طريقها بصعوبة وهي تحمل حقائبها. عريضة جداً. حقائبها تجعلها عريضة جداً بالنسبة لعرض الممشى.

(اللعنه!)

ابتسامة ارتباك تحرّر شفتيها. تحمرّ وجنتاها، وتعبس فوق حقائبها لتتجنّب التقاء نظرها بأيّ سخط قد يموج بين صحبها من الركّاب الصبيان.

لين تتعرّق.

هل سيحاولون معها؟

من وحشة قلبها، سبق للين أنْ كتبت لفاي: "أنْ تكتب رسالة إلى صديق هو مثل أنْ ترسل نداء عبر رؤوس الأشجار إلى شخص لا يتغيّر إلى الأبد يفتح غطاء علبة البريد بعد أنْ يرحل الساعي. في مدينتي الكبيرة البريّة، شارع مقسم بحركة المرور مثلما يحرث النهر في المُستَراد، أنقل مكالماتي، وأنا التي لا تتغيّر، أسترق النظر عبر الشقّ لأرى إذا كان هناك مغلّفٌ معلّمٌ بالأسود بخطّكِ المبهم."

يقف فازيلي ليوفّر للين الفسحة الكافية. وترى أنّ عينيه عسليّتان. لا ترى إشارةَ مكرٍ لدى أيّ من الصبيان.

الصبيّ مهذّب جداً. تعتقد لين أنّه يتلطّف معها.

تشعر الآن بحبّ فاي هانيدرمارش.

في قصّة "المفيد في البراري والقفار" يحصل الصبيان على الإثارة باختلاس النظر من خلال الشجيرات إلى مجموعة من الشابات اللاتي يعرضن أجسامهنّ العارية للشمس الحامية التي سقطت على أكتاف بيّضتها فترة الشتاء الناصعة الطويلة. وحدّق الصبيان إلى النساء العاريات اللواتي عرفن أنّهن كنّ تحت المراقبة. لكنّ هؤلاء النسوة ما جعلن أنفسهنّ جميلات بالزعيق ومدّ أيديهن فوق صدورهن وشعرهن. أهملن الصبيان. قفزن ورششن وشربن أشعّة الشمس.

كانت تعرف بعض الكنديّين الذين أحبوا البراري الأستراليّة. الحرش، بريّة صفراء، فصولها توصف على أنّها "ماطرة"، "جافّة"، "تتفتح أزهار الأقاقيا"، "حين تفرّخ الأسماك"، و"حين يعشّش الذعرة"، رحبّت بهم. هؤلاء الكنديّون أحبّوا المشي في دروب تلك الأحراج ليستحموا عراة في بحيراتٍ تحت الأفاريز الصخريّة وأشجار الأوكاليبتوس المترنّحة المليئة بأغاني الطيور. سمعوها كَسُكوْن. ورأوا أنّ السكون أصفر اللون.

أصفر، معجون بالخمريّ، وأخضر قاتم ورقيق. سردوا الألوان. ذهلوا بهذه الألوان. مختلفة تماماً عن الأبيض الأثيريّ، والرماديّ المخيف، والأزرق القطبيّ للبراري الكنديّة. وهذا دليل كاف لها أنّ البراري يمكن أنْ تتكوّن بشكل مختلف، لكنّ الصبيان صبيان في كلّ مكان في العالم، يختلفون فقط بكثافة فعلهم.

تتشوّق لين أنْ تكون على القمر.

صِبيان يتجمّعون حول باب القطار.

حقائب لين تنجرّ إلى ذراعيها. ومعطف بذلتها يتداخل بشكل غير مريح.

على عكس أولئك الذين كانوا داخل المقصورة، هؤلاء الصبيان يقفون بهدوء، وينتظرون الوصول إلى محطّاتهم بصبر. تتقف خلفهم وتراقب القطار ينزلق ماراً ببناء إسمنتي ثمّ يقف. صبي يتنحّى جانباً ليعطيها مجالاً في الوصول إلى الباب المفتوح. وتحسّ لين أنّه ينظر إليها من رأسها إلى أخمص قدميها. صوته متوتّر بالدهشة حين يقول من خلال أنفاسه، "ورينغتون؟ فقط الأكابر ينزلون في ورينغتون!"

رجفة تسري في عظامها.

تطأ بقدميها المنصّة. نعلا حذاء يضربان على الإسمنت، وتسرع الخطى نحو بوّابة الخروج وعبرها.

يقف الرجفان.

تكاد تذوب، لين مكريدي تحيك نغماً ـ أكابر أنا. من ردفرن إلى ورينغتون، أكابر! وكعباها يدرجان فوق الحصى المبعثر.

كارولين فان لانغنبيرغ قاصة وشاعرة وأديبة تعيش قرب سيدني.

From Redfern to Werrington, I have been a Dude, by **Carolyn van Langenberg**. An earlier English version of this story was published in *Australian Short Stories* No. 49.

فيونا م. كارول

الميراث

كانت جين راوية قصص. وفي أوقات ملأت فيها الرياح والجليد الأجواء، كانت نار الفحم المتّقدة في المنزل تشعل أيّام شتائها التي كانت تأتي أحياناً دون سابق إنذار، فتحضّر فنجانين من القهوة الفوريّة مع الحليب الساخن، وتجرّ كرسيّها لتبدأ. وترسم بالكلمات صوراً لـ"إلزبيث"، حول النشأة في مدينة صناعيّة في لانكشير، مع أخ عذّبها، وأخت ذات عينين أجنبيّتين تلفّظت بالسباب منذ لحظة تعلّمها النطق. وتعيد إحياء ذكرى جوارب سود تسبّب الحكّة، وخرزات سبحة، وشعر طويل لدرجة تمكّنها من الجلوس عليه، أثقل رأسها بالألم، حتّى قصّته لها أمّها بنفسها، بحجّة آلام الرأس، وبكيت جين على تلك اللفائف الحمر الكثيفة التي تبعثرت على أرض المطبخ. 'حسناً،' قالت والدتها، بعد كنس الخصل، 'ماذا تؤثرين، الشعر الطويل أم وجع الرأس؟'

تنحدر إلزبيث من سلالة مديدة من الحلاّقين المعالجين، إذ شاعت فكرة قوّة الشعر في الإتقال على العقل، والتدخّل في السلوك، والتسبّب بالمرض والسعال والعطش، ونشر الجراثيم، والموت، حين يُترك ليصبح رطباً في أوقات معيّنة من الشهر. كما يمكن للشعر أنْ يقود بسهولة للتفاهة والانهماك في الكوارث الرومانسيّة، وما علينا سوى تذكر شمشون، أو رابونزيل لهذا الغرض.

كانت إلزبيث تطلب إلى جين أنْ تخبرها عن حكاية

اليوم الذي قصّت فيه جدّتها كاثي شعرها فبكى جدّها. أحياناً كانت جين تقول 'ليس الآن،' وتهزّ رأسها وكأنّ في أذنيها ماء قبل أنْ تحمل الفنجانين، وتأخذهما إلى المطبخ فتغسلهما تحت الصنبور. كان هذا يؤشّر على أنّ القصص انتهت لذلك اليوم. في أيّام أخرى كانت تنظر خارجاً عبر النافذة، نحو منزل آخر، تستحضر في ذهنها والدتها كاثي، وشعرها الأشقر الموشّح باحمرار ثمار الفريز، المتدلّي تموّجاً نحو القسم المستدقّ من ظهرها حين سرّحته قبل المضيّ إلى فراشها ليلاً، واليوم الذي عادت فيه من عند الحلاّقة بعد أنْ تركت لديها، من شعرها، ما يكفي لاستعماله كشعر مستعار. زالت الكعكة من تحت قبّعتها، وحلّت محلّها عقصة كالحة الأبعاد. بكى زوجها ولم يكلّمها لمدّة ثلاثة أيّام، عدا أنْ ينظر إليها ثمّ يشيح بنظره عنها قائلاً: 'آه يا كاثي، ماذا فعلوا بشعرك؟'

تتذكّر إلزبيث جدّها إلى يومنا هذا. تتذكّر الطريقة التي انبعثت وفقها رائحة التبغ ومياه القناة من جسمه. والطريقة التي كان يعتمدها في زلق شعره للخلف، وإلى الجوانب حتّى لا تحرّكه الرياح، وخصل الشعر الأبيض المعاندة التي كانت تنمو مثل الطحالب داخل أذنيه. وتتخيّل دموعاً تسلك دروباً على وجهه الصارم، وتتساءل فيما لو كان لكلّ هذا أيّ أساس من الصّحة، وإنْ حصل فعلاً فما معنى ذلك، وإنْ لم يحصل، فما معنى ذلك أيضاً؟

أنا في متاهة هنا. أسأل إلزبيث إذا كانت ترغب في فنجان قهوة، وأقف، أذهب إلى المطبخ. حين أقدّم لها القهوة تبتسم، وتقول 'شكراً'. تتناول الفنجان الساخن بين يديها وكأنّها تدلّل سرّاً، وتداري مقوّماته مرّة بعد أخرى. ثمّ تضعه على الطاولة، حيث يبرد ببطء. أقول لها 'قهوتك تبرد.' وتقول لي 'آه، إنّني آسفة،' وتبدو ملامح الاعتذار عليها، أو تبدو وكأنّها لُسِعَت.

أبقت كلّ من جين وإلزبيث شعرهما قصيراً... محصوراً، كما كانت جين تصفه. وبدت إلزبيث متناقضة مع نفسها أثناء

دروس الباليه. توسّلت إلى والدتها أنْ تترك شعرها ينمو طويلاً أسوة ببقيّة الفتيات، وأنْ تجعله على شكل ذيل الفرس، فتصنع منه كعكة في شبكة وشريط بلون أزرق مَلَكِيّ. 'لا.' كانت جين حازمة في قولها: 'الشعر الطويل صعب التدبير. يلبّد العقل، ويتلبّد، يتساقط في الطعام، ويجذب القمل.' شعر الزبيث طويل الآن، لكنّ علاقتها به محفوفة بتناقض المشاعر.

صار تصرّف الزبيث مصدراً للقلق، فها هي تقف دقيقة بعد دقيقة أمام المرآة تتفحّص شعرها. أتقصّه، أم تشذّبه، أم تلّفه، أم لا؟ تتفحّص نهاياته المتشعّبة وتقصّها أحياناً بمقص الأظافر، وأحياناً تحرقها بنهاية سجارتها، وأحياناً تقضمها بأسنانها الأماميّة. صارت 'كبيرة على الشعر الطويل.' (أحقّاً هي؟) 'تبدو النساء فوق الثلاثين كالساحرات حين تكون شعورهن طويلة.' (أتبدو هي كذلك؟)

أحياناً تصنع من شعرها جديلة واحدة تضرب فوق سلسلة ظهرها وتتأرجح حول عنقها إذا استدارت بسرعة. تسألني فيما إذا كانت هيئتها معقولة، وأقول لها 'نعم.' 'تبدين بحالة لا بأس بها. تبدين أنيقة حين يكون شعرك مرفوعاً عن وجهك كذلك.' فتنتشر ابتسامة صغيرة متألّقة من فمها إلى خديّها. ثمّ لا تصدّقني فيذوي سرورها. تقول لي أحياناً إنّها ترغب في ضفر شعرها على طريقة "هايدي"، أو تلفّه للأعلى على شكل شنيون، لكنّها تقول إنّها مقيّدة اليدين. كانت تراودها التهيّؤات العاديّة حول أنْ تصبح شقراء أثيرة، لكنّها تتذكّر نصيحة جين فيما يتعلّق بمارلين مونرو والمآزق المناقبيّة التي يجلبها البيروكسيد، بالإضافة إلى المرأة التي انقلب لون شعرها للأخضر بعد دخولها حمّامات السباحة، قلنسوة أم بلا قلنسوة. 'يجب أنْ تتركي شعرك كما أراده الله والطبيعة.' كان رأي جين حول لون الشعر.

'ولكنْ، ولكنْ، ولكنّ – تحاول الزبيث إقناع والدتها أنّ نيّة الله والطبيعة أنْ يكون الشعر طويلاً، وإلاّ لما نما الشعر، لكنّ جين

تبادر قائلة: 'لا تجادليني يا إلزبيث، ولا تردّي عليّ برأي مخالف. لن أسمح لك بتطويل شعرك، وانتهى الأمر!'

حلمت إلزبيث في بعض الأوقات بأمّ أخرى. أمّ يمكنها أنْ تريح رأسها في حضنها. أمّ تغطّيها في السرير ليلاً، بملاءات ناعمة كالغيوم، وتوقظها صباحاً وهي تنحني عليها، وتقبّلها، وترفع الشعر عن عينيها، فتدغدغ الخصل الحمر خدّي إلزبيث. تستيقظ من هذه الأحلام وهي تشعر بالدفء وبعض الرطوبة.

تفكّر بارتداء قبّعة. لديها قبّعة، ناعمة وسوداء ومصنوعة في إيطاليا. لا ترتديها فتخرج بها لأنّها، كما تقول، لا تدري ما تفعل بشعرها تحتها، أتتركه مسترسلاً، أم تربطه، أم تحشوه داخل القبّعة، أم لا؟ عرفتها في بعض المناسبات ترتدي قبّعتها، حين تقوم بالتنظيف بالمكنسة الكهربائيّة، أو حين تقطّع البصل وهي تغنّي "نغنّي تحت المطر،" وتلك مناسبات خاصّة مفعمة بالحيويّة النادرة. وبصورة عامّة كانت تترك شعرها كما هو، وما كان يبقى على حاله من لحظة لأخرى، بل يقع على وجهها، ما يجعلها تدخل يدها فيه عادة، فترفعه للخلف من على جبينها، وتدسّه خلف أذنها.

شعر إلزبيث! مصدر لا متناه للتأمّل، والأمل، والرهبة. أو هكذا يبدو الأمر. يبدو أنّ في شعرها يكمن السبب الجذري لكثير من الويلات التي لا تنحصر فقط في فروة الرأس، بل تمتدّ من حاجبيها إلى أصابع قدميها، مع تراكم الوقت. لولب نازل من الذعر، وما يرافقه من نشاط. ويلات ابنة معاندة. تتنهّد إلزبيث أحياناً، وتتساءل بصوت مرتفع فيما لو جاءت كلّ تلك المسافة من نصف الكرة الأرضيّة إلى نصفها الآخر حتّى تترك شعرها يطول، دون أنْ تواجه عبوس التأنيب الحادّ في وجه جين.

تنتف إلزبيث يوميّاً الشعيرات التي تبدو أنّها تشوّه التضاريس الملساء للجلد المحيط بعينيها وفوق أنفها. أمّا الشعر النامي فوق قمّة شفتها، وعلى طول خطّ خدّها، فهو أكثر إزعاجاً وعسراً، لأنّه يشكّك في هويّة الشخص.

في أيّام البحبوحة، كانت إلزبيث تزدرد ارتباكها وتذهب إلى اختصاصيّة تجميل تشجّعها على التمدّد على أريكة عليها غطاء سرير زهريّ اللون، خلفها ستائر ورديّة مغلقة في وجه العالم.

خلف الستائر، تمسّد المتخصّصة بالمعالجة رؤوس أصابعها على الفراغ الواقع بين أنف إلزبيث وشفتها العليا، وعلى طول خطّ فمها، نزولاً نحو فكّها حيث تستشعر الشعيرات المزعجة تبرز عبر سطح الجلد، وتدمدم بتعاطف حول مسألة التغييرات الهرمونيّة. عندها ترقد إلزبيث دون حراك، تتنفّس الهواء الخامد الغنيّ بعطر الزيوت المهدّئة، وتسمح لموسيقا العصر الجديد، المنبعثة في الغرفة، أنْ تستحوذ عليها، حين كان الشمع الساخن يطبق على وجهها. وحين يَبْرد يُنزع بعنف، في الاتجاه المعاكس لنموّ الشعر، فيكشف عن وفرة متصلّبة من الشعر.

في أيّام التوفير، كانت إلزبيث تزيل الشعر بنفسها. بادئ ذي بدئ كانت استراتيجيّتها تتضمن قطع شرائح من الشمع البارد إلى مستطيلات صغيرة، وتضغط نزولاً في اتجاه نمو الشعر ثمّ تنزعها بعنف عن البشرة، تاركة إيّاها حمراء دبقة. يمكنني أنْ أضيف أنّها كانت تسرق شرائح الشمع البارد تحت وميض أضواء نيون محلاّت "هاريس سكارف"، لعلّ خوفها من احتمال إلقاء القبض عليها، وبصمات الأصابع، والتشهير بها، وإدانتها لا يقارن مع خوفها من كثرة الشعر لديها.

جرّبت الكهرباء للقضاء على جذور الشعر، لكنّها تركت هذه العمليّة فيما بعد. عمليّة مؤلمة، شديدة البطء، كثيرة الكلفة. وصار من عادتها حمل ملقاط صغير دائماً. تحتفظ بملقاط في خزانة الحمّام، في حقيبة يدها، في درج السكاكين، في جيبها، وفي علبة سيّارتها. يمكن رؤيتها عادة داخل سيّارتها على الطريق الخاصّة بمنزلها، أو أمام إشارة مرور حمراء، ومرآة الرؤية الخلفيّة تنحرف للأسفل، ووجهها مائل للأعلى، وهي تنتف

الشعر، وتستمع إلى الإذاعة الوطنيّة بذهن غائب.

في الحمّام، يبثّ وجهها المجنون بالقلق التكثّف على سطح المرآة، وهي تعمل ببطء نحو حافّة الجلد، متجنبة تلك اللطخ التي لا وضوح فيها على الزجاج، شادّة جلدها فوق عظمها لتنزع شعرة أخرى، وأخرى، شعرة شاردة. شعرات لا تلين، كما هي الأعشاب والديدان الألفيّة.

وتبقى رقبتها منطقة حرّة نسبيّاً من المشاكل، ولكنْ بسرعة يعود جسمها ليصبح كالإبط، بما في ذلك حلمتاها وخصرها وساقاها، والآن، يقدّم مركز "روبي لايت لإزالة الشعر باللايزر" بعض الأمل لأصحاب الشعر القاسي الغزير. وهذا يعني 'لا تبييض،' و 'لا نتف.' لكنّ المشكلة في هذه التقانة الجديدة أنّ أشعّة اللايزر لا يمكنها كشف الشعر الأشقر، ولذلك لا يمكنها إزالة شعر داكن غير موجود.

تبهت إلزبيث لمجرّد التفكير بهذا الاحتمال. 'يمكنك حلق الشعرات،' تقول الممرّضة في العيادة الطبيّة اللازريّة وتضيف: 'ما أريده فعلاً هو الجُذامة.' مجرّد ذكر كلمة "جذامة" يبعث القشعريرة في جلد إلزبيث والدبق في عقلها، ويرسل رؤوس أصابعها نحو وجهها.

تضع احياناً مستحضرات لاذعة على جسمها، مصمّمة أنْ تذيب الشعر وتحافظ على الجلد. تذيب بعض الشعر، لكنّها تترك بعض الجلد أجرد مزرقّاً. وكقاعدة عامّة، كلّما كان المستحضر مرتفع الثمن كلّما زاد عدد الشعرات الذائبة، ولكنْ أبداً ليس كلّها، وفي كلّ حال يركس الجلد – مجرّد الوخز الخفيف يتسبب بالانتشار السافر للبقع القرمزيّة.

لا يمكن التنبؤ بالنموّ من جديد، مع أنّه من السليم لإلزبيث أنْ تعتبر أنّه خلال ستّة أسابيع من إزالة الشعر، سيعاود الشعر انبعاثه بإصرار فيطغى على أنوثتها، ويدفعها لمسّ ذقنها بأصابعها بعصبيّة. واحياناً تدخل إلزبيث فترات استراحة، تاركة

ذلك المعطف ينمو مزدهراً، وفق مقتضيات طقس لا يفهمه أحد سواها.

ما كان ترف الكريمات المزيلة للشعر متوافراً في حمّام جين. بل كان هناك موسى حلاقة، وصابون من فحم القطران، وحجر الخَفّاف، وليفة. في الصيف، كانت جين تحلق تحت ذراعيها وعلى طول ساقيها، حتّى ركبتيها. ومع مجيء وذهاب الصيف، بدأت جين بحلاقة وجهها. كان عمر إلزبيث ثلاث عشرة سنة حين لاحظت لأوّل مرّة الهُلب الأسود يؤشّر من تحت سطح وجه أمّها، ينخلط مع رائحة التبغ وعطر أيفون قائلاً أنا أمّك. وبدأ تقبيلها قبلة ما قبل النوم يولّد لديها شعوراً متزايداً بعدم الارتياح.

ذات يوم حضرت إلزبيث إلى المنزل لتجد جين ملتفّة على نفسها أسفل الدرج. اللعاب الأبيض سال من زاوية فمها على السجّادة الذاوية. لم تستطع جين أنْ تغذّي نفسها لمدّة أربعة أسابيع بعد عودتها من المستشفى، ولم تتكلّم، ولكنْ فقط تضوّرت، أو كشّرت، أو جلست ملتوية صامتة. إطعامها أمر، وتحميمها أمر آخر. أوقات حميمة بائسة، لم تستطع إلزبيث فيها أنْ تحمل الموسى باتجاه شارب أمّها، وكان على جين أنْ ترضى بالصدمة التي يتلقّاها الزوّار المتأسّفين.

أفضت إليّ إلزبيث بهذه الأمور، وحقيقة أنّ أحد عشّاقها طلب إليها مرّة أنْ تحلق شعر عانتها. كان في ذلك الوقت يحضّر لشهادة الدكتوراه في الهندسة الإلكترونيّة، لكنّها لسبب ما لم تستطع القيام بذلك. بعد ذلك، وهما في الفراش، نزع باسنانه شعرة من حلمة ثديها. بقيت عزباء بعد ذلك لفترة طويلة.

اليوم أجد إلزبيث مستغرقة في الحمّام. غُثاء من زيت الأيلنغ مبقّع بذرّات سود يستقر على سطح الماء. يخرج شعرها في عُصابة متمغّطة على شكل أفاعٍ سود تلتف حول كتفيها وتنزلق نحو البلل. تسحب شفرة تتّصل بموسى نسائيّ، على طول سطح ربلة ساقها الداخليّة وإلى ركبتها. يقطر التكاثف على جدران

الحمّام، وتتساقط دموعٌ من الماء، نقطة نقطة، من الصنبور البارد.

’تلقّيت مكالمة من إنكلترة.‘ تقول لي. تتحدّث ببطء، وكأنّها تتدرّب على لغة جديدة. ’أصيبت جين بجلطة جديدة.‘ تقول لي إنّ جين ماتت.

يوم آخر. تمشي إلزبيث في القاعة وهي تحمل أكياساً بنّيّة من الورق المكرّر في كلتي يديها. كانت تتبضّع. وهي تضع الأكياس على طاولة المطبخ، تخرج بعض المانجا المستوردة من كوينزلاند، هليون، زيتون، زجاجة شيراز، ورداء من الحرير الأزرق الباهت اشترته، كما حدّثتني، من محلّ لثياب عتيقة الطراز في الطرف الشرقيّ من المدينة.

تنزع قبّعتها وتنسى، للحظة، أنّ طولاً بمقدار أربع وعشرين بوصة من شعرها سبق أنْ كُنس من على أرض استقبلت قصّتها، وأنّها كانت بيدها تحاول الوصول للأعلى لتسحب من داخل ياقتها شيئاً لم يعد هناك. قَصّة واحدة حوّلتها إلى بوصة من الشعر بلون الشمس.

لاحقاً، على ضوء الشموع، حين كنّا نشرب نخب جين، بدت إلزبيث ملائكيّة الهيئة.

فيونا م. كارول كاتبة وشاعرة تعيش في أديلايد، أستراليا. نشر الأصل الإنكليزيّ لقصّة "الميراث" كما يلي.

The Inheritance, by **Fiona M. Carroll**, was published in *Meanjin 2*, 2000.

ماريسا كانو

رايموندو

عيناه أوّل ما وقعت عليهما عيناي. عيناه الواسعتان بلا حدود. بركتان عميقتان بُنّيّتان، طاف الحزن فيهما كستار راكد. سبق أنْ لمحته من طرف عيني حين كان يقف في الرتل الذي تقدّم فيه كلّ زبون على حدة. صغير الجسم، لكنّه متناسق الهيئة بأطراف ناعمة صبغتها أشعّة الشمس، مشدودة نتيجة لتمارين رياضيّة متخصّصة. لم أر وجهه إلاّ حين وصل إلى منضدتي فرفعه إلى مستوى وجهي. حدّقت إليه فترة تزيد عن المعتاد: وجهٌ أنيق بملامح جنوب-أمريكيّة أخّاذة. غرقتُ في مياه عينيه الموحلة.

سلّمني استمارة السِمة المؤقّتة. ثمّ قال: 'هذه من فضلك،' بلهجة خفيفة لم تخف جهله بالإنكليزيّة، ولا عدم إمكانيّته مواصلة الحديث.

'*هابلا إسبانيول؟*' غامرت وسألته.

'*سي.*' أجابني بلهفة. '*أوستيد تا هبين؟*'

نعم، أتكلّم الأسبانيّة أيضاً، قلت له. ابتسم، ثمّ ابتسم ابتسامة عريضة كادت أنْ تمحي الحزن الذي خيّم على نظراته. وصل صاحبنا المتعطّش للحديث إلى واحة منشودة، وغاص في الكلام معي، أنا التي لم تكن مهمّتي سوى استلام استمارته، وإعلامه أنّ عليه انتظار جواب غير مؤكّد سيأتيه خلال برهة غير محدّدة.

علمت خلال ثوانٍ أنّه قادم من كولومبيا ويبغي اللجوء.

سمة الزيارة التي حصل عليها تقترب من الانتهاء، والنقود التي لديه توشك على النفاذ، لذلك كان يحتاج إلى تمديد إقامته قانونيّاً إلى أنْ يحسم أمر لجوئه، ويحتاج إلى إذن عمل، وبطاقة للرعاية الصحيّة تفيده في حال مرضه.

بدت علائم عدم الارتياح على المراجعين الآخرين الذين كانوا ينتظرون دورهم، لأنّني أمضيت وقتاً أطول بقليل معه بالذات. كان لا بدّ أنْ اختصر المسألة. 'آسفة لا أستطيع التحدّث إليك هنا، هنالك من ينتظر دوره!' اضمحل البريق المفاجئ في عينيه، فوجدت نفسي أضيف 'ولكنْ يمكننا أنْ نلتقي فيما بعد، حين أنهي عملي، بعد زهاء الساعة، خارج هذا المبنى. إذا لم تكن مشغولاً هذا العصر طبعاً!' أضفت عبارتي الأخيرة كي لا يعتقد أنّني أفرض نفسي على خططه.

قَبل عرضي مباشرة.

هكذا تمّ لقائي مع "رايموندو كارديناس خيمنيس". كان في المكان والزمان المحدّديْن، ينتظرني لأخرج إلى عالم البشر الواقعيّ، وليس عالم الملفّات والأوراق. تصافحنا وقدّمنا نفسينا بشكل لائق. قال لي إنّ أصدقاءه القلائل هنا يدعونه "راي" للسهولة. صافحني بحرارة وقوّة، فشعرت بقشعريرة تتصاعد في عظامي. كان جديداً على هذا الجانب من المدينة، فتولّيت أخذه إلى ركني المفضل، مقهى هادئ، مقاعده مريحة، يبعد قليلاً عن مكان عملي.

رايموندو لطيف اللسان، تتجلّى فيه صفات الرجل المهذّب المتكلّم. طلبت فنجانين من القهوة السادة مع خشيتي أنْ يكون طعمها ليس بمقام ما هو معتاد عليه في بلده. لكنّه، لحسن الحظ، شرب القهوة دون شكوى.

بدأنا الحديث ببساطة، لكنّه سرعان ما أخذ مساراً أكثر جِدّة، وبالتحديد أسئلتي فيما يتعلّق بأسباب وجوده في أستراليا، وهذه الورطة التي وجد نفسه فيها. بدا لي حين واجهته بهذه

الأسئلة أنّه تردّد بادئ الأمر، ثمّ ما لبث أنْ صب اعترافاً صريحاً.

أصبت بالذهول حين أعلمني أنّه لوطيّ. أوّل ما تبادر لذهني سؤال "كليشه": لماذا يكون الفتيان الجميلون لوطيّين؟ يا للخسارة! ثمّ تمالكت نفسي، مصمّمة على تفريغ رأسي من هذه الثرثرة التي لا معنى لها. ما كان لي أنْ أسمح لنفسي التغاضي عن جوعه للفهم، ولا التعالي عن الصدق الذي ينصّب من عينيه. وأحسست للحظة بالميّزة التي أنا فيها: ها أنا هذه مع رجل يمكن الائتمان للحديث إليه ولوجودي معه، فلا خوف من نيّات خفيّة، أو رغبة جنسيّة، أو إمكانيّة الارتباك. ضمن هذه الظروف، شعرت برغبة كبيرة في كسب رضاه، فأصبحت كلّي آذاناً صاغية، وقلباً مفتوحاً.

'اضطهدوني،' قال لي. 'هكذا هي حال أمثالي في بلدي، والبلدان التي تجاورها.' ربّما هي تلك العواطف الأسبانيّة التي تتحكّم فينا. 'نحن اللوطيّون غير مرغوب فينا، بل مكروهون. مكروهون حتّى الموت.' عيناه، بئران عميقان كدت أنْ أقع فيهما، ظلّتا ترمقان عينيّ حتّى وصل إلى آخر كلماته، فأنقذني من الغرق.

'اللوطيّون مكروهون في أيّ مكان تذهب إليه يا رايموندو، لا زال العالم بحاجة لمزيد من الثقافة حتّى يقبل هذا الوضع.'

رفع وجهه ويده ليوقفني عن إنهاء جملتي، ووقعت أصابعه الناعمة بهدوء فوق أصابعي، بجوار الفنجان، فأرسلت لمسته الخفيفة تيّاراً داخل عروقي. 'نعم، لكنّ التعصّب على درجات. لا يمكنك تشبيه موقف الناس في هذا البلد بموقف الناس في بلدي. ففي المدّة القصيرة التي قضيتها هنا تبيّن لي أنّه يسمح لنا على الأقل أنْ نحيا. الأمر ليس كذلك في كولومبيا.'

أخبرني عن الاحتقار الذي لاقاه كصبيّ في المدرسة، وفي الحيّ، وفي المنزل، عن الوظائف التي شغلها ثمّ طرد منها بمجرّد اكتشافهم لوضعه، عن العذاب المترافق مع ضرورة العيش في

كذبة دائمة، خافياً طبيعته الحقيقيّة التي وجد المجتمع أنّها مهينة.

أنهى قهوته والتفت يبحث في حقيبته. أخرج ورقة مطويّة: نسخة مصورة عن صفحة في جريدة. سلّمني إياها. صورة جثّة ممدّدة في وسط الشارع، محاطة بالمتفرجين، تتمركز في وسط الصفحة. قرأت العنوان: 'اغتيال لوطيّ على يد مجموعة تطهير اجتماعيّ.' لم أقرأ النصّ، فالرسالة واضحة من عنوانها.

'أترين؟ تطهير اجتماعيّ. لسنا بشراً هناك، بل قذارة.'

'هل كنت تعرف القتيل؟' سألته محاولة كسر ستار الصمت الذي خيّم علينا.

هزّ رأسه ببطء. 'كان عشيقي.'

ضربتني الكلمة مثل السوط. نقلت إلى مخيلتي صوراً بذيئة. وإحساسي هذا جعلني أفكّر أيضاً أنّني قد لا أكون صاحبة ذهن متفتّح كما عهدت نفسي، بل واحدة من المتعصّبات العاديّات. أصبت بخيبة أمل.

زاد شعوري بالذنب حين تكلّم من جديد. 'تصوّري أنّ الرجل الذي تحبين، الرجل الذي أمضيت معه سنيناً، الرجل الذي شاركته حياتك، لم يعد من عمله في يوم من الأيّام، ثمّ تسمعين أنّه اغتيل، وترك يموت ميتة كلب في الشارع.'

كان بإمكاني تصوّر ذلك كلّه فوبّخت نفسي بشدّة حول الصور البذيئة التي راودتني من قبل. رميت بنظري محدّقة إلى بقعة غير مرئيّة في مكان ما على الأرض، وامتلأت عيناي بحزنه الطافح الداكن نفسه. أصبحنا على الأرض ذاتها.

'نجوت بنفسي بسرعة بعد ذلك. ليس لديّ أيّ شكّ بأنّني كنت سأكون الضحيّة التالية، لو لم أهرب من المدينة في اليوم نفسه الذي جاءني فيه خبر مصرعه. استطاع صديق لي في البيرو أنْ يحصل لي على سمة من فنزويلا. جمعت ما أملك من قليل

النقود، واشتريت بطاقة إلى أستراليا. لم يتوفّر لي الوقت للبكاء عليه من خشيتي على حياتي. وهنا في أستراليا، خلال أيّامي الأولى، وفي وحدتي وعزلتي التامتين، وحرماني وسجني الانفراديّ، سكبت دموعي سخيّة.'

تشوّقت للتخفيف عنه، لأخذه بين ذراعيّ وتطييب خاطره، لكنّنا كنّا في مكان عامّ، وهو لا زال رجلاً بنظري.

'تركت غرفة الفندق في اليوم الثالث، وشردت في شوارع المدينة، باحثاً عن وجه له تقاسيم مألوفة. وجدت واحداً من أميركا اللاتينيّة، وكان هو أوّل من فتح لي أبواب حياتي الجديدة. عرض عليّ غرفة في منزله، مكثت مع عائلته بعض الوقت، إلى أنْ اكتشف أنّني لوطيّ. جعلني أحزم حقائبي، وأخذني إلى شارع أكسفورد، وقال لي هذا هو شارع اللوطيّين، وتركني فيه بلا حول ولا قوّة. ما كنت أعرف إلى أين أذهب، ولا ما يتوجّب عليّ أنْ أفعل. لذلك قمت بنفس ما قمت به في يومي الثالث في هذه المدينة: مشيت في الشارع أبحث عن ملامح هسبانيّة.'

'وهل حالفك الحظ؟' أردت أنْ أعرف فيما إذا كانت تلك فرصة حياتي الوحيدة في مساعدة مُعدم.

'آه، نعم.' زفر أنفاسه بكامل الرضى، وامتدّ فمه على شكل ابتسامة. 'وجدت أصدقاء جيّدين، أتشارك معهم الآن في شقّة. أنا سعيد. أتمنّى لو أستطيع البقاء. آمل أنْ أبقى... أستطيع العيش هنا، أحبّ هذا المكان.'

الوقت يمرّ. كان عليّ ركوب القطار. أما هو، فيريد استقلال الباص في الاتجاه المعاكس. حمل كلّ منّا حقيبته، ووقفنا، ثمّ مشينا إلى خارج المقهى. لم يتوفّر لنا حتّى النسيم الخفيف ليعيدنا إلى برودة الواقع في عصر ذلك اليوم الحارّ.

استدرت نحوه ومددت له يدي فصافحني مرّة ثانية بحرارة، وما ترك يدي. حاولت مرتين سحب يدي من قبضته، لكنّني وجدت نفسي أشدّ على يده أكثر حتّى لا يظهر الوضع محرجاً،

بينما كرّر هو عبارة 'شكراً لك،' وأبقى عينيه الجميلتين الواسعتين مثبّتتين على عينيّ.

فكّرت في لحظة مجنونة أنّه لا يمكنني أنْ أدعه يذهب ويختفي إلى الأبد بين تلك الشوارع المزدحمة في سيدني. شعرت أنّ لُحْمَةً نشأت بيني وبينه خلال حديثنا، لحمة غالية، مقدّرة علينا، ولا يمكننا إهمالها بطرفة عين. أرسلت يدي داخل حقيبتي بلا شعور أتلمّس حافظة نقودي، وأخرجت منها بطاقتي الشخصيّة التي قدّمتها له. 'إذا احتجت لأيّ مساعدة، أيّ شيء...'

وضعها داخل جيبه، وشكرني مرّة أخرى. تمنّيت له حظاً سعيداً بطلبه الإقامة الدائمة في أستراليا، عسى أنْ يحين ذلك الوقت الذي سيتقرّر فيه مصير بقائه بسرعة. ثمّ راح كلّ منّا في طريقه.

أصابني شعور مفاجئ بعدم الارتياح وأنا في طريقي إلى المحطّة لإدراكي أنّ ما قمت به قد يكون تهوّراً. كيف أتسرّع وأعطي هذا الغريب رقم هاتفي وعنواني؟ هل يمكنني الثقة به؟ وما صلة هذا الشخص بي، وما القواسم المشتركة التي تجمعنا، يا ربّي؟ بين عالمي وعالمه مسافات كونيّة لا يمكن لساعة من الفيض بمكنونات الروح أنْ تختصرها!

لكنّ معنى هذا اللقاء، بحجمه الحقيقيّ، بدأ يشرق في ذهني حين تفحّصت تفاصيله في طريق عودتي إلى المنزل، وبدأت أسائل نفسي حول القيم التي أحمل، ومعتقداتي، وتحاملي، وكلّ هذه الأمور التي أيقظتها قصّته المأساويّة بهزّة مثل الهزّة التي كانت تحدثها قعقعة القطار في عظامي. ها قد أتيحت لي الفرصة، أو بالأحرى أجبرت على أنْ أبصر من خلال اللوطيّ دون أنْ أقابل الشخص الذي بداخله.

أردت أنْ أعرف أكثر! عنه، عن نوعه، عن طريقته في الحياة. شعرت بسعادة لأنّه كان يحمل بطاقتي في جيبه. وتأمّلت أنّه سيخابرني يوماً بالنبأ السعيد أنّ طلبه قُبل. ولربّما تتاح لنا

فرصة اللقاء ثانية حين استحمّ عندها في بحيرات عينيه التي صارت رائقة.

وجدت نفسي في الأسبوع التالي أجول في محلاّت بيع الصحف والمجلات، متفقّدة المنشورات الأسبانيّة التي أعلم عن وجودها في هذه البلاد دون أنْ أكترث بمطالعتها. وجدت صحيفتين أسبوعيّتين باللغة الأسبانيّة فاخترت أكثرهما حداثة. أثناء استراحة الغداء ذهبت إلى مقهاي المفضل، وبدأت مطالعة العناوين، بينما كنت أحتسي قهوة مركّزة مع الحليب.

لم يسترع انتباهي أيّ شيء إلاّ حين وصلت إلى مقالة حول فساد الشرطة في كولومبيا، احتلت زاوية مهملة في الجريدة على الجانب اليساريّ في أسفل صفحة مزدوجة الرقم، وبعرض عمودين فقط. ومع هذا نسيت قهوتي خلال الوقت الذي استغرقته في قراءتها. كانت مقالة مملّة، لكنْ ما لفت انتباهي هو أنّ بين كلمات مثل "مخدرات"، و"رشوة"، و"السوق السوداء" ظهرت كلمة "لوطيّون". وما ذكرته المقالة هو أنّ هذه الفئة من الناس استُهدفت من قبل رجال الشرطة الفاسدين، مثلها مثل تجّار المخدّرات، والعاهرات، وزعماء الجريمة، كمصدر لدخلهم.

منذ ذلك اليوم صرت أشتري كلّ أسبوع نسخة من هذه الأسبوعيّة الأسبانيّة. وغالباً ما كنت أقرأ عن الوضع المتدهور في كولومبيا، ممّا زاد من اهتمامي في ذلك البلد. وبحثت عن مراجع عن اللوطيّين، فما وجدت سوى بعض المجلاّت السطحيّة التي لا تحمل المادّة الجادّة التي كنت آمل الحصول عليها، ولهذا أهملت هذه المجلاّت.

حين حلّ موعد مهرجان اللوطيّين في سيدني، اقترحت على أصدقائي الذهاب لمشاهدته، فكانت تلك المرّة الأولى التي أصبحت فيها شاهدة عيان على هذا الحدث الذي يُشاهد في كلّ أنحاء العالم عبر الشاشات الصغيرة. ورغم انشغال ناظريّ بالطواف بين تجمّعات الناس، والتحليق فوق الجماهير، والربت على أكتاف

الظلال، بحثاً عن وجه خاصّ، فشلت عيناي في العثور عليه. وفي اليوم التالي، وخلال التعليق الإخباريّ على مهرجان الليلة الماضية، راقبت الشاشة الصغيرة بتركيز كبير، واعتقدت أنّني لمحت رايموندو لجزء من الثانية، ذراعه مشبوكة بذراع رجل آخر وهما يقفزان بسرور في حلقات. لكنّني لم استطع رؤية عينيه، ولذلك لست متأكّدة فيما إذا كان هو أم لا.

مرّت الشهور، وأرتال الزبائن في دائرتنا زاد طولها، وتساءلت فيما إذا كانت معاملة رايموندو انتهت، وإذا كان الأمر كذلك، فهل مُنح حقّ اللجوء الذي يعني ارتداد الروح بالنسبة له؟ طلبات كثيرة، ووجوه بائسة كثيرة، وآمال كثيرة ترتفع عالياً لا يكون مصيرها سوى التخبّط والسقوط. الانتظار... عدم التأكّد... الدوران بلا هدف... وفي النهاية حكم، أو إخلاء سبيل، ممهور بتوقيع رسميّ غير واضح على قطعة ورق لا تمتّ إلى المشاعر الشخصيّة بصلة.

ذات صباح خُيِّل إليّ أنّي رأيت رايموندو يقف في نهاية الرتل المنتظر أمامي. ألقيت نظرة سريعة ثانية فلم أجد سوى بعض النسوة في ذيل الطابور الطويل، واعتقدّت أنّه يغادر المكان عبر الأبواب الزجاجيّة التي تواجه منضدتي تماماً، لكنّني حين حاولت تتبّع هيئته بعيني اضمحل الشكل إلى عديد من المارّة.

عند الظهيرة، وحين كنت أدخل المقهى المعتاد، رأيت رايموندو جالساً على طاولة في زاوية. يرتدي قميصاً أسود وأبيض، وسروالاً داكناً. فقد قلبي دقّة من دقّاته. ولكنْ مع اقترابي أكثر، نهض رجل آخر عن الكرسيّ وترك المشهد. خارت قواي، وسقطّت على الكرسيّ المجاور الذي أخلي للتوّ، فالرجل كان شبيه رايموندو تماماً، وقلت لنفسي إنّه لا بد أنْ يكون من البقعة نفسها من العالم.

صحوت من ذهولي على صوت النادل يسألني ماذا أردت.

’قهوة مع الحليب، شكراً.‘

حين أدرت وجهي باتجاه النافذة، لمحت من طرف عيني

صحيفة مطويّة، على الكرسيّ الثالث حول طاولتي. انحنيت لالتقاطها لكنّها لم تكن جريدتي الأسبوعيّة المعتادة، بل واحدة مختلفة. قرّرت الاطّلاع عليها لأنّها كانت هناك بطبيعة الحال. حين فتحتها فوق الطاولة، واجهتني صورة كبيرة على الصفحة الأولى تعرض جثّة شاب مصوّرة عن قرب، لا بد أنّه هو. الآن جاءني الجواب عن سؤالي. عيناه مغمضتان لكنّي كنت أعلم أنّ ذينك البئرين العميقين ما استرجعا صفاء مياههما، وأنّهما فسدا من الركود، اختنقا بالوحول المتحجّرة التي ما فتئ الآخرون يلقونها فيهما.

ماريسا كانو صحفيّة ومترجمة وكاتبة اجتماعيّة تشرف على ندوات عن الكتابة الخلاّقة للمتكلّمين بغير الإنكليزيّة، ونشطة في الترجمات الأدبيّة، وتنظيم المناسبات الأدبيّة ونشر الأنطولوجيا متعدّدة الثقافات.

الأصل الإنكليزيّ لقصّة "رايموندو" نشر كما يلي.

Raimundo, by **Marisa Cano**, was published in *Kalimat 1*, March 2000, Sydney.

دايف كولدوِل

تحرير

ترقد ذكريات طفولتي البكر في وسط يوم صيفيّ قائظ. ذكريات مغلّفة بذرّات رمل كثيرة، وعالقة على موجات حرّ تزحف فوق الصحراء. بعثرتْ رياح الوقت هذه الذرّات فأصبحت ذاكرتي الآن مشوّشة. كفّنَ الغموض أوّل سبع سنين من حياتي، ولا أذكر شيئاً قبل ذلك.

هذه الذكرى المضمحلّة هي الصورة الوحيدة التي أملكها عن موطني. طفولتي تبدو ككرة من المعجون أخذت هذا الشكل المشوّه. كلّ الأحداث التي كانت قبل ذلك اليوم الذي سفع براءتي بحرارته اللاهبة، ما هي إلاّ أحداث محصورة في حوليّات وقت يبدو أنّه لم يعد له أيّ وجود. لكنّي غير قادر على التخلّص من هذه الذكرى المنفردة؛ وضوحها الجليّ عالق في ذهني كما تلتصق بالجلد علَقَة متعطّشة للدماء.

أجد نفسي، بعد ثلاثين عاماً، لازلت جاثماً عند تلك اللحظة التي فاضت بتلك الذكرى الرهيبة. أخيراً عدت إلى موطني في محاولة لاسترجاع ما فقدته هنا. وحتّى الآن بإمكاني الشعور بأنّ شيئاً يقبع في جوّ المكان. يمس نقرتي مثل يد دبقة، تحثّني على مغادرة الطريق العامّ، والعودة إلى البلدة التي آمل أنْ أجد الأجوبة فيها. الدرب الجافّ أمامي يدعوني للتراجع في سبيل تقدّمي.

كم اختلفت الحياة الآن. يبدو السهل، الذي أقف فيه الآن،

وكأنّه من عصر مختلف. حين تبعثر قدماي الغبار أحسّ أنّ عودتي إلى هنا تستحضر أكثر ممّا توقّعت. لكنْ لا مجال للتراجع.

روائح لم أشمّها منذ ثلاثة عقود تملأ الآن منخريّ. أناس أهملت التفكير بهم في لحظات لا تعدّ ولا تحصى ينبثقون من ضفاف ذاكرتي، يرشحون إلى الحاضر. رياح محمّلة بالغبار تجعل الشَعر في مؤخّرة رقبتي ينتصب. أتجمّد فجأة. أبدأ بالتذكّر.

أقف في سهل البقاع، منطقة خصبة وسط لبنان يرويها نهر الليطاني. الأرض هنا خضراء تنبض بالحياة. جبلان عظيمان يشرفان على رأس الوادي الذي يلتوي بينهما وكأنّه ثعبان متسلّل نحو مشارف أفريقيا. ذكرت النقوش الفينيقيّة العتيقة أنّ هذا الوادي هو "ميدان للآلهات".

بيد أنّ ذاكرتي لم تعتبر المكان مكاناً مقدّساً. ما كنت أرمي إليه كان أقلّ ملائكيّة. ومع أنّ الجوّ في البقاع مختلف الآن، هنالك شعور بعدم الارتياح كلّما هبّت الريح الرطبة في وجهي. يتراقص الوحل حولي وفجأة أختفي على شكل عرض تاريخيّ شفّاف.

سمعت قرقرة عن بعد، ولكأنّ السماء تعاني من عسر هضم. قبل أنْ تقدّر عيناي الفتيّتان إدراك ما كان يجري، غلّفتني غيمة دوّامة من الغبار الحارّ. غزت الهواء داخل رئتيّ، وجعلتني أغصّ وأسعل. أصابني عمى مؤقّت.

أسرتني تلك الزوبعة الضبابيّة. اختفى الجميع وبقيت وحدي، مع أنّني كنت أسمع صراخاً بدا وكأنّه يأتي من كون آخر.

فجأة اخترقت يدٌ هذه الفوضى الكثيفة، وقبضت على معصمي. جرّني والدي بإلحاح نحو المأوى المتداعي الذي احتمينا فيه.

‘ماذا يجري يا والدي؟‘ سألته ونحن نندفع داخل ثمّ خارج جمهرة سيطر عليها الذعر.

‘يهاجمون،‘ قال دون لفّ أو دوران.

’من يهاجم؟‘ سألته وركبتي تنسحق فوق صخرة حادّة. صرخة الألم التي خرجت منّي راحت هباء منثوراً.

’الإسرائيليّون، يضربون لبنان بالقنابل. ادخل حالاً!‘

وصلنا إلى منزلنا الذي لم يكن سوى مأوى من الأكياس البلاستيكيّة والخشب، تمّ تشييده دون عناية تذكر. كانت الأكياس تتخبّط مع هبّات الريح بين الحين والآخر. أمّي تنتظرنا وهي تنشج. سألها والدي عن المشكلة، لكنّ هذا توضّح لنا بسرعة.

كان أخي الأصغر مجثّى وسط الغرفة، شاحباً عديم الحركة، شكّل اللعاب الذي انساب إلى جانب فمه قشرة صلبة. خرّ والدي على ركبتيه غير مصدّق حين كانت أمّي تبكي بكاء لا عزاء له. تجمّدت في مكاني دون أنْ أعلم ما يجب أنْ أفعل.

ثلاثون عاماً مضت وكأنّني لم أبرح مكاني. كنت أقف عمليّاً في البقعة نفسها، لكنْ هذه المرّة كانت القنوات الدمعيّة في عينيّ تعلم ما يجب أنْ تفعل. على الرغم من أنّ القذف استمرّ ستّة أيّام فقط عام 1967، إلاّ أنّ شراً آخر تربّص بنا: لم تُحفظ اللحوم بطريقة مناسبة، وكانت موجات من مرض الجمرة المعويّة متفشّية. بعد وفاة أخي، كنت أنا الطفل الوحيد الذي بقي لوالدتي.

أستطيع الآن أنْ أتذكّر عمّي الذي أتى من أجلي. ارتسمت على وجهه نظرة رزينة حين حملني خارج منزل والديّ وأنا أصرخ وأرفس. كانا يعيشان في زمن غامض، وأرادا لي أنْ أحظى بحياة أفضل. طلبا من عمّي أنْ يصطحبني إلى بيروت ويضعني على متن طائرة متوجّهة إلى أستراليا.

قادني عمّي إلى الطريق العامّ الواصل بين دمشق وبيروت، ووضعني في حافلة نقل، وبقي هادئاً تماماً بينما كنت أعضّه وأرفسه، غير آبه بنظرات الركّاب الآخرين إليه. حين أغلق باب الباص تماماً، ضغطّت بوجهي على الزجاج، وضربت عليه بقبضتيّ بعنف شديد، وبكيت فوق زجاج النافذة. بقي والديّ في

المنزل، الذي أقف الآن أمامه، لأنّ حزنهما العميق منعهما من الحضور لمشاهدتي أغادر. عويل أمّي عاد فجأة لذاكرتي. كانت تلك آخر مرّة أرى فيها والديّ.

تقبع شوارع بيروت الصاخبة في نهاية الطريق العامّ. شعرت بفراغ داخليّ وجوع لأنّني لم أتناول شيئاً لمدّة يوم تقريباً. قادني عمّي، من خلال حشد بشري مفرط النشاط، إلى رجل ملتح يشوي لحم الغنم المكدّس حول قضيب معدنيّ شاقوليّ، يتجشأ بابتذال وهو يديره. طلب عمّي سندويتشتان من الشاورما، وسألني أنْ أنتظر عند أبي اللحية الذي كان يعبث بها بأصابعه، وأخيراً سحب منها شيئاً، وفتله بأصابعه الغليظة قبل أنْ يرمي به على الأرض دون اكتراث. مدّ يديه إلى طاولة صغيرة، والتقط بعض الخبز العربيّ، ثمّ بدأ بحشوه بالبندورة الطازجة، وبالمخلّل، والنعناع. ناولني السندويتشة حين كان عمّي راجعاً.

استعجلني عمّي من جديد، هذه المرّة نحو المطار. وبعد مضيّ ثلاثين سنة، حين حطّت رحالي في ذلك المطار ثانية، انتابني الشعور نفسه. شعرت بكتلة من الأسى والذعر في سقف حلقي وكأنّها تحاول خنقي، وغمرني شعور بالخوف وكأنّ إبراً تخترق بشرتي، ويباساً يصيب عضلاتي.

أعطاني عمّي قصاصة ورق، حين رماني بسرعة في الطائرة، عليها عنوان عمّتي التي غادرت لبنان منذ مدّة وجيزة أيضاً. كان عليّ البقاء مع امرأة لا أعلم عنها شيئاً إلى أنْ يشتدّ عودي وأستطيع الاعتماد على نفسي.

كانت غرفتي في أستراليا مترفة مقارنة مع المنزل الذي ألفته في سهل البقاع. لكنّني كلّما التفغت على نفسي في الفراش كلّ ليلة، كنت أشعر وكأنّه أقلّ أماكن العالم راحة. ذرفت دموعي فوق وسادتي المشبعة، متلهّفاً إلى العودة إلى حضن أمّي. كلّما أقفلت عينيّ كنت لا أرى سوى وجهها الحزين، ونظرة والدي التي تنمّ عن استسلامه للقدر، ولسان أخي المتدلي جانباً. كلّ شيء بدا

غريباً، ولم يكن لديّ أيّ مكان آخر أذهب إليه.

ما كان باستطاعتي مواصلة حياتي دون عمّتي. رعتني وكأنّني ابنها. جعلتني أشعر أنّ لديّ ما أعيش من أجله.

كانت تقصّ عليّ قصصاً رائعة عن لبنان ونحن بجانب المصطلى بناره المفرقعة، نحتسي أكواباً من الكاكاو الساخن، فتتوسّع مخيّلتي ماوراء المألوف، وأنا أستحضر روايات لا تحصى عن أجدادنا الذين انتشروا في هذه الأرض قبل آلاف السنين. قادتني بعيداً نحو مناطق لا يبلغها سوى المكتشفون العظماء. قادت ذهني الفتيّ إلى قمم شامخة، وجعلت مشاعري تنقضّ على سهوب تعجّ نشاطاً وحيويّة. حملتني إلى حوافّ شلاّلات مائيّة خطرة، وبلورتْني كِسفاً ثلجيّة. ألهمتني، ووسّعت مداركي، ومكّنتني من رؤية العالم من زاوية مختلفة. هذه المرأة المدهشة رفعتني بعيداً عن آلام طفولتي.

عوضاً عن البكاء فوق وسادتي كلّ ليلة، صار ذهني الآن يمخر عباب المحيطات مع الفينيقيّين. ألاحق مغيب الشمس عند حافّة الأفق، وأحدّق إلى أسرار سموات المساء. طفوت فوق أمواج الليل وغامرت إلى أراض بعيدة، مستعيناً بنجم الشمال ليرشدني في رحلتي اللطيفة. كنت مبشّراً في المدنيّة، أنشر الثقافة في أرجاء المعمورة.

كلّما تحدّثت إلى عمّتي خلت أنّي أفتح مدخلاً إلى التاريخ وأطأ أرضه. معلوماتها يمكن أنْ تملأ مئة مكتبة وصفحات مليون موسوعة. قادتني في دهاليز عقلها، تقرع أبواباً تحوي وراءها قصصاً حيّة أثارتني وصعقتني.

بلغ حزني أشدّه حين توفّت، وما كان يمكن لشيء أنْ يعزّيني بفقدها، ولا لأحد أنْ يحلّ محلّها. ولمدّة أشهر بعد ذلك، عادت مخيّلتي للأيّام المظلمة الأولى التي وصلتُ فيها إلى أستراليا.

تركت عمتي لي في وصيّتها كلّ ما تملك: بيتها ومدّخرات

حياتها. رغم أملاكي الجديدة هذه، شعرت أنّني لم أرث سوى وحدتي. صرت أخشى أنْ يكون قدري المشي وحيداً في متاهات الحياة المعقّدة. بدت وكأنّها أدغال متشابكة لا يمكنني الإحاطة بماهيّتها. لم يكن هناك من مبرّر لما حصل، ولم تساعدني الساعات التي قضيتها أروح خلفاً وأماماً في كرسيّها الهزّاز أنْ تعطيني سبباً واحداً يفسّر لماذا أصابها المرض في عمر مبكّر.

قرّرت أخيراً أنْ أبيع البيت. كانت فيه ذكريات كثيرة محبوكة مع نسيج السجّادة، ومرسومة في السقف، ومغروسة مع أزهار الحديقة. كنت بحاجة للاستمرار في حياتي عوضاً عن البقاء في أسر زمن لا أريد التحرّر منه. رحلت عمّتي، ورحيلها علّمني أنْ أتابع مسيرة حياتي. بقيت تعلّمني حتّى بعد مماتها.

لعب القدر دوره في المرحلة القادمة من حياتي. كان هذا على درجة من الغرابة حتّى ولكأنّ عمّتي هي التي خطّطت مساره.

كنت يوماً أعرض المنزل لمن يريد معاينته بقصد الشراء، وإذا بملاك يهبط على عتبة بيتي. كان وجهها اندماجاً لملايين العناصر المعقّدة، ينضح بجمال خارق نادر غريب، نقيّ منعش. زارتني الجنّة ووقعت في الحبّ فوراً.

تزوجنا خلال سنة من صدفة لقائنا، وعادت حياتي إلى مجراها. كنت أخطو على طريق معبّدة ممهّدة، ولم تكن اعتباطيّة متصدّعة. كنت ذا هدف وغاية، وبدأ عطشي للحياة يُروى. نبعي يفيض، وكنت أنعم بهذا الماء المنعش الذي طهّر روحي. ابتعدت نشأتي عنّي بمقدار لا يعادله سوى اقتراب حبّي من زوجتي، وبدأت أنسى من أين أتيت.

عشت راضياً لسنوات عدّة. رزقنا بطفلين عزيزين كالملائكة، وكنّا بمنتهى السرور نشكر النعمة التي رزقنا الله بها. لكنْ مع مرور السنين، ومع نموّ الطفلين، بدأت أدرك تدريجيّاً أنّ هناك شيئاً لا زال بداخلي. دفع الفضول ولديّ للتساؤل عن سبب

الاختلاف بيني وبين زوجتي، وسبب اللكنة التي أتحدّث بها خلافاً لما هو حال آباء أصدقائهما في المدرسة. بدءا يحرّضان مشاعري حول موطني الأوّل على الاستيقاظ من جديد، ومع استمرار تساؤلاتهما بات هذا الأمر ينهش من لحمي نهشاً.

عند ليلة الذكرى الثلاثين لوجودي في أستراليا، قرّرت أنّه لابدّ لي من القيام بشيء. لم أستطع أنْ أجيب ولديّ أو نفسي— من أنا بالضبط؟ لقد غمست نفسي في الحاضر كثيراً حتّى نسيت جذوري. ومع أنّ هذا لسوف يكون نكوصاً مؤلماً، إلاّ أنّه من الواضح أنّه شيء لابدّ لي أنْ أعرفه. لولديّ الحقّ في أنْ يعرفا من أنا، وأنا كذلك.

أخذّ التهور منّي كلّ مأخذ، ووجدت نفسي أسرع نحو المطار فأشتري بطاقة لأوّل طائرة متّجهة إلى بيروت. هاتفت زوجتي من قاعة المغادرة لأخبرها عن مخطّطي الجنونيّ. برّرت، بتأييدها التام لي، قراري المتسرع هذا. هكذا كان تفهّمها، فلم أجد مناصاً من ركوب الطائرة، ومواجهة ما هربت منه لمدّة ثلاثين عاماً.

لكنّني الآن لست متأكّداً فيما إذا أصبت في قراري. هل خدعتني غريزتي؟ عمّ كنت أبحث في رجوعي إلى هذا المكان؟ في تنقيبي في الماضي كنت أحاول أنْ أحدّد ما كان يؤرّقني كلّ تلك المدّة. ومع أنّ حياتي في أستراليا كانت حياة سلام وبحبوحة، كان جزء منّي ناقصاً. شيء ما وقع من مكانه، تشظّى وتكسّر. ولكنْ هل فعلاً سأجد ضالّتي في البحث في سهل البقاع عن شيء قد لا يكون موجوداً أصلاً؟ عدد هائل من ذرّات الرمل، وكتل الوحل، وأوراق شجر فوق المحاصيل، ينتظرني للبحث والتنقيب. كلّ جزء من أجزاء السهل له سرّه، لدرجة أنّ سرّي الخاصّ بدا دون قيمة. ترك التاريخ آثاره في الأرض التي تحمل ملايين الألغاز، وقطعتي المفقودة ممزوجة بوابل من الأسرار التي لن تكتشف.

أخذتُ نفساً عميقاً وتنهّدت.

احتضنت الشمس وجهي بدفئها، فبدأتُ بالابتسام. العودة إلى هنا علّمتني أنّ هناك أشياء قدّر لي أنْ لا أعلمها. كان من المستحيل أنْ أعلم كلّ شيء، ولربّما كان هذا من مصلحتي. هنالك أشياء كان لابدّ أنْ تبقى مدفونة في الأرض، ومبعثرة كثلوج على قمم جبال لا يمكن تسلّقها. لن أتمكّن من إيجاد قطعتي المفقودة من الصورة، وبدأت أتقبّل هذا الوضع بالتدريج. لربّما ما كان مقدّراً أنْ أجد الصورة الكاملة.

كان ذهني يلغي الأشياء لسبب، ومع حلول كلّ فجر جديد كنت ألاحظ أنّ الأمل هو ما مدّني بأسباب بقائي؛ الأمل في أنْ أكتشف في يوم من الأيّام معلومات أكثر عن والديّ. ولكنّ معرفة ما حدث ليست ملك يديّ. لو كان مقدّراً لي أنْ أعرف، لأرتني الحياة ذلك. الشيء المهم لي الآن لا يكمن في الماضي، بل في الحاضر والمستقبل. يكمن في ولديّ الجميلين وزوجتي المحبوبة.

استدرت مخلّفاً قريتي القديمة وراء ظهري. وبمجرّد أنْ قمت بذلك، وقعت عيناي على طفلة لا تزيد عن ثلاث أو أربع سنين. نظرت إليّ بفضول. شدّتني بنظراتها؛ شيء ما أسرني إليها فشعرت أنّني مضطّر للنظر رداً عليها. نَظرتْ في عينيّ بعمق يماثل عمق نظرات زوجتي إليّ يوم زفافنا. شعرت أنّني أعرف هذه الطفلة، وكأنّنا كنا روحين نسيبين في زمن آخر. آنست فيها حميميّة لا تخطئ، ونظرة أوحت أنّها كانت تعرف الكثير عنّي.

نادتها أمّها من داخل المنزل، لكنّها لم تتحرّك. كانت مُقل عيوننا كمغناطيس جعلتنا لا نقدر على الانسحاب. وقَفَتْ دون حراك في مدخل المنزل، مؤطّرة بعوارض خشبيّة جعلتها تبدو صغيرة جدّاً. بدأتُ بالابتعاد تدريجيّاً حين لاحت لي خطوات أقدام تبرز من ظلمة المنزل. توجّهت أماماً للحظة، ورجعت عبر الدرب المؤدّية إلى الطريق العامّ، وأنا أسترق النظر خلف ظهري. اختفت الفتاة، وكان كلّ شيء ساكناً. زدت من سرعتي متجهاً للأمام دون أنْ أكون متأكّداً ما الذي حدث بالضبط.

استجمعت قواي إلى أنْ وصلت الطريق العامّ ثانية. حين كنت في الباص، رميت القرية بنظري إلى أنْ صارت مجرّد نقطة في الأفق. بدأ الغبار يتصاعد إلى جانب الباص. بدأت بالابتسام، ثمّ ضحكت. أحسست أنّني تحرّرت مع ازدياد السرعة على الطريق العامّ، ألاحق جمرات الشمس المحتضرة حين كان الظلام يلوح. ما عاد يلوح حولي شيء بعد هذا.

أغمّضت عينيّ في الطائرة، فطفوت بعيداً، صاعداً من عمق الوادي إلى ندى الغيوم فوق المحيط الهنديّ. هطلتُ كالمطر فوق وطني الجديد، ساقطاً بين أذرع زوجتي وولديّ.

دايف كولدول من أصل إنجليزيّ يعيش في ملبورن، يكتب في الصحافة المحلّيّة وله عدد من القصص القصيرة. نُشر الأصل الإنكليزيّ لقصّة "تحرير" كالتالي.

The original English of *Tahrir* by, **Dave Cauldwell**, was published in *Kalimat* 22, September 2005, Sydney.

راشيل كيغلي

رقعة جلد

وقفت جاكي وظهرها مستند إلى شبّاك السيّارة جهة الراكب، تُشابك ركبتيها وتحررهما. البرد يعضّها عضّاً. ولما أحسّت بألم انطباع أسنانه على حلمتيها، لفّت ذراعيها حول صدرها، وبسطت ثدييها بكفيّها.

جفلت لسماع صوت مفاتيح "نقولا" تعمل في باب السائق. وحين بادرت بالركوب قالت: 'في هذا الطقس الملعون يمكن لحلمتيَّ أنْ تسقطا من شدة البرد، أليس كذلك؟ ربّما كان علي الانتظار هنا نصف ساعة أخرى فأوفّر على نفسي الرحلة إلى المستشفى.'

وَمَضَتْ في وجه نقولا ابتسامة كأنّها رُسمت بفعل كُلاّب صنارة صيد سمك وخَزَ زاوية فمه فشدّها جانباً. كان صامتاً داخل السيّارة. انتقلت يده الثقيلة بين ناقل الحركة وفخذ جاكي. وبرقت عيناه بين الطريق ووجهها إلى أنْ أدارت المذياع، واستدارت نحو الباب بجانبها. لم تكن تريد سماع أيّ شيء يقول.

تمنّت لو أنّ لها أختاً أو صديقة توصلها بالسيّارة، أو أحداً يستطيع إطلاق العنان لتهكّمها الساخر، ويأخذ عن كتفها بعض أثقال تعاستها الخرساء. عوضاً عن ذلك، لم يكن لديها سوى نقولا، الخائف الذي يحتاج لمن يطمئنه. يثقل عليها بمخاوفه.

شعرت جاكي بالإرهاق من كثرة ما انتقدت ذاتها. تخيّلت أنّها تقيم حفلة وداع لثديها. صديقات فقط. مسكرات. قالب حلوى

كبير على شكل الثدي. أرادت أنْ تستغرق في الذكريات والأحزان. أنْ تضحك وتزعق حتّى تخرج عيناها من محجريهما. لم يكن معها من يستطيع مشاركتها هذه الأفكار الحميمة. انسلخت عنها كلّ صديقات مراهقتها حين صار عندها أولاد، ولم تستطع بعدها تشكيل روابط وثيقة على تلك الشاكلة.

كم تمنّت لو أنّ والدتها بقيت في سيدني. لم تتّضح لها وقتها أهمّية زيارات والدتها، وأحاديثهما خلال تناولهما الشاي. كانت لين تنظر إلى ابنتها الصحيحة البدن، فترى أنّه ما من شيء يستدعي القلق. أمّا أن تقوم بمخابرتها إلى مدينة أدلايد، وترك كلمة "سرطان" تجري عبر خطوط الهاتف، ياويلتاه! كانت جاكي تعلم أنّ هذه ليست بأخبار هاتفيّة، ولا حتّى تصلح لتكون أخباراً تتداولها عبر الرسائل البريديّة. وإنْ لم تستطع إعلام والدتها هي، كيف يمكن لها إعلام والدة نقولا، حماتها؟

وهكذا أصبح هذا السرّ موجعاً، مفرط الحساسيّة لدرجة لا يمكنها تحمّله وحدها. وشعرت بعار مبهم يتسلّل إلى ذاتها. شعور بالذنب والنقص، زادت من آلامه الفحوص السريريّة التي قرّبت أطباؤها من جسمها ليقوموا بها.

هذه العمليّة برمّتها من صنع الرجال. ومنهم طبيبها العائليّ ذو الوجه المليء بالأخاديد، الذي قال لها إنّ ثدييها مليئان بالعُقيْدات لدرجة لا يمكنه معها التأكيد فيما إذا كانت هناك كتلة ورميّة. وكذلك الفنيّ الشاب المختصّ بالأجهزة فوق الصوتيّة، والذي حدّق إلى الجدار وهو يفرك الجلّ على صدرها. والاختصاصيّ ذو الحاجبين الخنفسائيّين الذي كشف لها عن تشخيصه وكأنّه إنسان آليّ.

ابناها المراهقان، في البيت، يخشيان فتح أيّ حديث معها، يخالانه فاحشاً، يتناول ثديي أمّهما. وزوج كان ينطق بكلّ ما هو غلط. كانت جاكي تعلم أنّها تزيد من صعوبة الأمر على نقولا. كان قلقاً عليها. ولأنّه اعتقد أنّ باستطاعته قراءة ما يقلقها، حاول

أنْ يواسيها. لكنّ الأمور التي تخيّل أنّها كانت تشعر بها، لم تكن هي ما شعرت به في الواقع. كلّ ما قاله نقولا لها جعلها أكثر غضباً وإحباطاً.

تودّد لها ملتصقاً بها من دُبُر، حين كانت تطهو العشاء، وقال لها إنّه سيحبّها دائماً، ويجدها مثيرة لشهوته الجنسيّة، أمّا هي فكظمت غيظها، وحرّكت المرق ببطء عوضاً عن أنْ تصفع وجهه بالجانب المسطح اللزج للملعقة الخشبيّة. تجمّدت في مكانها، ونقولا ملتصق بها، يتنفّس شعرها، يحيطها بقوّة ذراعيه كما تمنّت أنْ يفعل في الليلة الأولى، لكنّها الآن تشعر أنّها غاضبة، ومختنقة، وانفضّت عنه دافعة إيّاه بكوع ذراعها فانسلّ بعيداً. لم يعد لديها الصبر أو القدرة لتهتمّ بمشاعره الجريحة، أو تشرح له أفكاراً بدأت بتكوينها حديثاً بينها وبين نفسها، ولذلك حاولت إيقافه عن التكلّم في هذا الموضوع.

لم تخبر جاكي نقولا عن الكتلة حين اكتشفتها أوّل مرّة. لم تخبره عن أيّ من الفحوص أو المواعيد الطبيّة. بل آثرت الانتظار إلى أنْ جاءت نتيجة الفحص المجهريّ للنسيج المـُسْتأصَل من ثديها، وتمّ تحديد موعد العمليّة الجراحيّة. ولكنْ حتّى حينما كانت تجلس في عيادة الأخصائيّ، ندمت جاكي لاحتفاظها بهذا السرّ وحدها. كانت الآلام الناتجة عن إبرة استئصال العيّنة، والتي انسلّت عبر حلمتها، تحفر داخل ثديها - كأنّها الإزميل - آلاماً مبرّحة جدّاً. شعرت أنّها وحيدة ذليلة، تكشف عن ثديها لآلة أوتوماتيكيّة غريبة، وخجلها الشديد يمنعها من الصراخ رغم الألم.

حين تمّ الأمر، كان على جاكي أنْ تحمل العيّنة عبر ممرّ طويل إلى مكتب المختصّ بالتشريح المرضيّ. ثمّ حبست نفسها في مرحاض وبكت. وكان باستطاعتها سماع القرع الرتيب لمن تبوّل في مرطبان لجمع العيّنات في المرحاض المتاخم.

وحتّى بعد أنْ أعطاها المختصّ حكمه، حملت جاكي

السرّ معها إلى البيت، وأطبقت عليه بإحكام كي لا يتفشّى فور عودة نقولا. هذه أخبار عليك التحدّث عنها بالطريقة المناسبة وفي الوقت الملائم، ولكنْ لا يمكنك تلافي "الترقيع" في سردها. أخذت وقتها، وراجعت عباراتها، لكنّها لم تتردّد بعد ذلك فأراقتها دفعة واحدة على العشاء، وصاغت ألفاظها مستخدمة عبارات كالتي يثرثر بها الأطباء، كأنّ هذا سيجعلها أقلّ بشاعة.

'في ثديي الأيمن ورم خبيث. سأقوم بعمليّة استئصال للثدي.'

وكمن يحمل رفشاً، نقلت إلى فمها شوكة مثقلة بالطعام وبدأت تمضغ. توقّف نقولا والصبيّان عن الطعام. نظر دانيال في وجه أبيه محاولاً قراءة خارطته قبل أنْ يستجيب بدوره. وقف يشوع، مُسْودّ الملامح تحت لفّات شعره الطويلة. سقط كرسيّه وراء ظهره مقعقعاً.

'هذا مريع يا أمي! نحن نتناول العشاء.'

وقف فوقها كالبرج، وجهه ملتوٍ مرتعش. وهبّت جاكي واقفة أيضاً، طارقة ركبتها تحت سطح الطاولة. كانت تنوي الصراخ في وجهه، لكنّ صدْمتها بردّة فعله، والطعنة في ركبتها أخرجت الدموع من عينيها فهرعت مبتعدة عن الطاولة.

احتواها الحرج فيما انبطحت على الفراش تبكي وهي تطمر وجهها في الوسادة، وكأنّ هذا التصرف جاء نتيجة كثير من المواجهات مع والديها حين كانت مراهقة. لم تستطع ابتلاع أساها، أو أنْ تجبر وجهها على ارتداء قناع الهدوء. كان بإمكانها سماع أصوات عميقة تتحدّث بصوت منخفض عبر المنزل. حسناً، كان نقولا يتحدّث إلى يشوع حديث رجل لرجل. تأمّلت جاكي أنّه لم يكن يحفّذ الصبيّين أنْ يكونا شجاعين من أجلها، بل يتركهما على سجيّتهما، وبذلك يُريانها مقدار نضوجهما. كانت تعلم أنّها يجب أنْ تذهب وتكون جانباً من الحديث، لكنّها لم تملك الإرادة على مغادرة الفراش.

سمعت صرير جسم عبر الممرّ. 'ماما؟' ركع دانيال على ركبة واحدة جانب السرير. كان يرتدي سترته الجلديّة، ويوازن خوذته على ركبته بكلتي يديه. التفتت جاكي نحوه غير عارفة كيف تعيد ترتيب وجهها، لكنّ دانيال تبسم. 'أريد الذهاب للعمل، وأردت فقط أنْ أقول وداعاً.' قبّل جبينها فشدّت جاكي على يده. 'أراكِ في الصباح.'

أومأت جاكي له برأسها. وتمّنت لو أنّ نقولا يعاملها بهذه الكياسة. أنْ تمسك به وتتنفس عبر عطره بعد حلاقته، وأنْ تدع صوف كنزته يخرّش خديها، ومجرّد أنْ تشعر بالاطمئنان في اتساع ذراعيه المريح. لكنّه جاء خلف يشوع، ويداه على كتفي ابنه، يقوده. جلست جاكي بضعف. وقف نقولا جانب الجدار، وحام يشوع بالقرب منها وفمه يتحرّك دون كلمات. جفناه الوامضان بالكاد يكبحان موجة الدموع في عينيه.

'ماما.' كانت همسة. رؤوس أصابعه كادت تمسّ كتفها، لكنّه استدار، ودفع بنفسه أمام نقولا نحو الممرّ.

وقف نقولا للحظة طويلة يتنفس بضجّة. 'هو آسف.'

'أعلم.'

'هو خائف.'

أومت جاكي برأسها، وفكّرت أنّ هذا هو السبب الذي جعلها تكتم الأمر عنهم إلى أنْ تأكّدت أنّه لا خيار أمامها. سرطان الثدي. ألفاظ كئيبة. طبعاً كانوا خائفين. وفي تلك اللحظة ما كانت تريد أنْ تلعب دور الأمّ، فتهتمّ بمشاعر الآخرين. أرادت فسحتها الذاتيّة التي تمكّنها من ترتيب أفكارها ورعاية جروحها الخاصّة.

جلس نقولا جانبها على السرير ووضع كفّه على كتفها.

'ما مدى سوء الحالة يا جاكي؟'

'لن أعلم فيما إذا كنت سأحتاج إلى المعالجة الكيميائيّة إلاّ بعد إجراء العمليّة.'

لم تبد لها إمكانيّة الموت حقيقيّة. يمكن أنْ تموت. كانت جاكي تعرف ذلك، لكنّها كانت معرفة فكريّة وليست معرفة عاطفيّة. لم تشعر أنّها مريضة. جسمها قويّ لائق، وبدا لها أنّ خوف مواجهة نفسها في المرآة بعد أنْ تصبح غير كاملة أشدّ وقعاً من الموت. أحد الملاعين سوف يقطع ثديها، وبالنتيجة يحرقه، ولسوف تدفع له ثمن القيام بذلك. هذا محور القضيّة بالنسبة إليها. كانت تخضع لعمليّة خسارة الأنوثة، وفقدان الذات، وأرادت أنْ يصاحب ذلك بعض الوقار. شعرت أنّه يجب أنْ يكون هنالك نوع من الطقوس، انصباب جماعيّ للحزن في مناسبة كهذه.

رأت جاكي تاريخ نُسَويتها مكتوباً على ثدييها. حين كانت في الثالثة والعشرين، عانت أنوثتها تلك من قبول علامات تمدّد جلدها التوتيّة اللون، والتي نقشتها هناك فترات الحمل والإرضاع. أمّا الآن فلا يمكن لأيّ جراحة تجميليّة تعويض تلك العلامات بعد أنْ تفقد ثديها. 'ومع ذلك،' قال لها الأخصائيّ، 'كثير من النساء يجد في عمليّات التجميل دعماً للثقة بالنفس.' وقالت في سرّها متهكّمة: كم سيطمئنه التفكير في ثديٍ مقطوع على أنّه مجرّد معضلة تجميليّة قابلة للإصلاح.

حين أوقف نقولا السيّارة عند المدخل الرئيس، سألها إنْ كانت ترغب في أنْ يصاحبها. هزّت جاكي برأسها نفياً. كانت ترغب في مصاحبته لها، لكنّها كانت تعتقد أنّه لا يتوجب عليها أنْ تطلب منه ذلك. حين خرجت من السيّارة وخزها البرد. توقّفت للحظة خارج الأبواب الزجاجيّة لمنطقة الاستقبال، تستمتع بآخر خفقات حلمتيها قبل أنْ تنتقل إلى دفء أجهزة التكييف المُتْخَم في الداخل. رَشَحَ الإحساس من أعطافها.

لسانها سميك، وفمها جافٌ لاصقٌ من الصيام، لكنّ موعد العمليّة كان بعد الظهر. وامتلأ الصباح بفحوصات وقياسات وأسئلة، لكنّه لم يكن ممتلئاً بما يكفي لمضيّ الوقت. وفكّرت

ضمناً أنْ ليت تنتهي العمليّة بسرعة. وأخيراً نادرةُ المخدّر العظمى: فقط عدّي للعشرة. وقبل أنْ تصل إلى أربعة، غابت جاكي عن الوعي. بعدها أفاقت مع هزّة، ونقلوها إلى غرفة مليئة بالوجوه. زَبَدُ المخدّر علق في دماغها، وأخذها من وإلى النوم. وسبحت معها الكوابيس نحو اليقظة.

سبق لجاكي أنْ رأت صوراً للندبة التي يتركها استئصال الثدي، ثلمة على شكل حرف Y ملساء أنيقة على الصدر. لكنّها في أحلامها، رأت ثديها يُقطع كشريحة واحدة تاركاً وراءه جرحاً مستديراً خشناً، وأربطة من الشاش المـُخْضَلّ، ملفوفة بكثافة حول صدرها. معظم الوجع جاء من ذراعها وكتفها، حيث أزيلت العقد اللمفاويّة من إبطها، وحلمت في بعض الأحيان أنّ ذراعها، وليس ثديها، هو ما تمّ استئصاله.

استذكرت عمّها جون الذي انحنى قريباً منها حين كانت بنتاً صغيرة، تنطلق مع أنفاسه رائحة الدخان والبوربون المرّة، حين كان يحدّثها عن أشياء لم تفهمها، لكنّها أخافتها خوفاً شديداً على أيّ حال. قالت لها أمّها أنْ لا تهتمّ به، لأنّه لا يسيطر على ما يخرج من فمه. قالت إنّ فييتنام أفسدت روح جون، والنَتَنْ يتسرب كلّما فتح فمه. جاكي الطفلة ظنّت أنّ والدتها كانت تقصد أنفاسه، أما جاكي اليوم فتدرك أنّ والدتها ربّما كانت تقصد ألفاظه.

قال لها جون مرّة: ’الناس ليسوا سوى شظايا وفتات، مضمّدة ببعضها بالجلد.‘ ’هذا كلّ ما يربطنا بالحياة، يا جاكي. رقعة جلد.‘

جعلتها تلك الكلمات تشعر بالقرف حين كانت في العاشرة من عمرها. فكرة أنّ الحياة يمكن أنْ تكون بلا قيمة إنْ كانت هشّة، كانت بالنسبة لها أشدّ سوءاً من تلك الصورة المبتذلة— أنّ الناس مجرّد أجسام. ألم يكن جون مؤمنا بخلود الروح؟

ولقد صحّت تلك النظريّة بالنسبة لجون، لأنّ رقعة جلده ربطته بالحياة بشكل مؤقّت فقط. تسرّب إليه الموت عبر ثغرة في ضمّاداته ولمّا تجاوز التاسعة والعشرين. غلب النوم عليه من شدّة السكْر وهو في حوض الاستحمام مرّة، فانصب الماء في منخريه ليملأ رئتيه ويفكّ مراسيه من مرفأ الحياة.

ذكرى أنفاس جون اللاذعة كانت تتّقد في أنفها وهي في غرفة المستشفى التي خيّم عليها شبه ظلام، لكنّ كلماته بدت لها الآن وكأنّها تحليل لهشاشة الحياة.

في السرير القابع إلى يسار جاكي، ظلّت امرأة كوريّة تخرج ريحاً بصوت مرتفع طوال الليل، وتتنحنح بأصوات بلعوميّة جعلت جاكي تظنّها رجلاً في ذلك الظلام. في الصباح، عانت إحدى الممرّضات كثيراً وهي تملأ ملاحظاتها على السجلّ في نهاية السرير حيث فاحت الروائح.

'سيّدة كيم، هل تبوّلت بعد؟' تحدّثت الممرّضة بصوت مرتفع في محاولة للتغلّب على حاجز اللغة وكأنّها تتسلّق أسوار عكّا بجهرة الصوت فقط. 'ها؟' أجابتها الكوريّة. حملت الممرّضة المبْولة وأشّرت لها: 'فرفورة، هل فرفرتِ؟' وبضحكات شبه مكبوتة، وفي صفّ الأسرّة المقابل، تبادلت امرأتان النظرات. تهكّمت إحداهن: 'يا الله، يا روحي، طوّلي بالك عليها. مضى على تكلّمي الإنكليزية ست وأربعون سنة، ولم "أبوّل" في حياتي.' وتعمّدتا إيصال صوتيهما إلى من حولهما، في دعوة للجميع للمشاركة في التهكّم على الممرّضة التي تستعمل لغة معقّدة. لم يستجب أحد. أمّا الممرّضة فتظاهرت بالجدّ وتجاهلتهما.

ولأوّل مرّة تلاحظ جاكي باقة من الزنابق اللوفيّة المزدهرة على الطاولة الجانبيّة لسريرها التي كان سطحها خالياً جافّاً كالصحراء. شعرت بوخزة كأنّها خفقة الافتتان الأولى.

لقد تذكّر نقولا؛ ليس فقط أزهارها المفضّلة، وإنّما الأزهار نفسها التي أحضرها يوم ولادة دانيال. أزهار أوّل وليد لها،

رمز للحياة. تذكّرت ذهول والدها حين رتّب نقولا الزهور في قسم الولادة. 'زنابق الجنائز،' قال والدها وهو طارف بعينه تأكيداً للسخرية. نقّل نقولا قدميه، وشدّ فكّه، لكنّه لم ينتقد ذلك التعليق. أحبّت جاكي تلك الزهور، مهما كانت تسميتها. أعناق طويلة. بيض الريش، فخورة فخر طيور التمّ.

اتـّصل نقولا هاتفيّاً وهرتق باعتذاراته. 'لا نستطيع الحضور هذه الليلة يا جاكي. لقد انتهيت من عملي للتوّ. أنا آسف. كلّنا حضرنا ليلة أمس لكنّك كنت نائمة. أراد الصبيان رؤيتك فعلاً.' وجاكي أرادت أنْ تراهم أيضاً. كانت تشعر بالوحدة. لكن الارتباك بينهم ذاب في يأس هذا المكان. والزنابق البيض في ذلك الجوّ المبتذل، تحيا على السطح المعقّم. 'شكراً جزيلاً يا نقولا. الزهور رائعة.' كانت تدفع بالكلمات عبر دموعها المنهمرة. كان بإمكان جاكي سماع صوت صدره ينتفخ على الطرف الآخر لخطّ الهاتف. 'كنت أعلم أنّها ستروق لك.'

تلك الليلة، حين نامت بقيّة النسوة، وجدت جاكي الشجاعة لتنسلّ بيدها تحت قميص بيجامتها. ارتعشت ضلوعها بالبرد الذي حملته أصابعها وهي تتحسّس بها الجرح. جلد ناتئ متغضّن. وخز القِطَب. أخرجت يدها وأنفاسها ودقّات قلبها تتلاحق. لطالما أرادت أنْ تتحسّس بأصابعها خط الجلد المدَمَّر، لكنّها لم تتمكّن. ليس في تلك الغرفة المليئة بالغريبات. ثمّ ماذا لو أضاءت إحداهنّ النور؟

يومان آخران هنا. لم يأتها خبر المعالجة الكيميائيّة بعد. ومضى الوقت.

تاقت لملاءاتها الخاصّة، على الرغم من أنّها كانت تعلم أنّ نقولا لم يغسلها. وتشوّقت لرائحة نقولا بعد الحلاقة، ونكهة التوابل التي تتركها في نفسها، ومنظر فكّه الذي غطته الجُذامة الرماديّة التي ما تلبث تهدّد بالنموّ من جديد. أو أنْ تجلس أمام التلفاز في غرفة جلوسهم، وساقاها مطويّتان نحو صدرها، وذقنها

فوق ركبتيها، يشوع على الأرض، وظهره مقابل أصابع قدميها. وبين الفينة والأخرى يستند برأسه عليها دون انتباه، فتضرب جمجمته عظام ذقنها بقساوة، وتدغدغ بشرتها خصيلات شعره البنيّة. يعانقها دانيال. وبما أنّه أطول من نقولا الآن، يقبّل أحياناً قمّة رأسها.

لكنْ حين يقومون بزيارتها عصر اليوم التالي، كلّ شيء يختلف. نقولا متعرّق من العمل، ومدرك تماماً لمظهر حذائه وقميصه الممزّق الياقة. ويشوع يقف بعيداً، وشعره الطويل الجميل اختفى لتحل مكانه قصّة قيصريّة. دانيال وحده يرتمي بين ذراعيها، مطلقاً تلك التنهيدة المرتاحة التي تخرج دون سؤال بعد عناق شديد. يشوع يقبل وجنتها، تاركاً يدها تتلمّس شعر رأسه الذي صار قصيراً خشناً، وتمسك به من خلف رقبته، قبل أنْ يلوي بجسمه بعيداً. يترك بين يديها صندوقاً. 'بابا ودانيال دفعا من أجل هذا.' يومئ نقولا برأسه للأعلى كأنّه يضنّ بالاعتراف. 'كانت فكرة يشوع.'

تأمّلت جاكي أنّها لن تحتاج المعالجة الكيميائيّة، لكنّ الصندوق احتوى قوّة شمشون الجبار. احتوى كلّ ما تريده إنْ هي أقدمت على المعالجة الكيميائيّة. شَعْرُ يشوع، وقد تمّ حبكه على شكل شعر مستعار من أجلها.

لم يتكلّم أحد منهم. أربعة أكياس مليئة بأطراف خشنة في غرفة مجهولة، تلاحمت بطريقة ما على شكل عائلة.

راشيل كيغلي تعمل لدى جامعة سيدني التكنولوجية. نُشر الأصل الإنكليزيّ لقصّة "رقعة جلد" كما هو موضح أدناه.

A Ravel of Skin, by **Rachael Quigley**, was published in *Hecate*, 29(2): 347-354, 2004.

ستيفين مايين

الغَطَّاس

ما لفت انتباهي إلى الغطّاس كان الصوت الحادّ لزعانفه تخبط على السطح خلال أوّل نوبة لغطسه.

كنت أمشي على بعد زهاء ميل من موقع البيوت المتنقلة في خليج "هيملين" في محاذاة منحدر متخلخل، متقوّض تسقط منه مستويات كاملة من الرمال والحجارة إلى شاطئ صغير تحته، بمسافة ثمانية عشر متراً. كان الجوّ هادئاً، ملبّداً بالغيوم، آخر بضعة أيّام من عطلة صيفيّة مملّة نوعاً ما.

سبق لي أنْ أمضيت الأسبوع الأوّل أتجوّل في رقع الرمال الملتصقة، بشكل مقلقل، إلى حافّات عدد من الخلجان المنتشرة على طول خطّ الساحل المحيط بها، وكنت أسبح أحياناً حين كانت الحرارة تقودني خارج مناطق الظلّ الصغيرة التي كانت توفّرها الصخور والأشجار.

بيد أنّ اليوم الذي رأيت فيه الغطّاس، كان يوماً سبق للمطر فيه أنْ هطل مبكّراً، وبقيت الرطوبة عالقة في الجوّ. وبعد الغداء، ارتديت سترة خفيفة وانطلقت، فيما كان مقرّراً أنْ يكون مشياً لمسافة قصيرة للتخلّص من آثار الوجبة الغذائيّة. ولكنْ، كما هي الحال عادة، حين أغرق في إيقاع خطواتي الخاصّ، امتدّ المسير أكثر من الدقائق القليلة التي توقّعتها، إلى أنْ وجدت نفسي فوق مرتفع أستطيع منه أنْ أنظر وراءً نحو بهرجة الأشكال، وآثار الدخان عند موقع المخيّم، وليس بعيداً، في الاتجاه المعاكس نحو

الحافّة الناعمة لمنحدر من حجر الجير، يقبع المحيط بكلّ جلاله.

بما أنّني قطعت هذه المسافة، قرّرت أنْ استكشف المنطقة قليلاً قبل رجوعي. أطللت، عند الحافّة، على رقعة من الماء تكاد تكون مغلقة. نقطتا الخليج كانتا على بعد زهاء نصف ميل وبينهما حيّد ضحل، غير متقطّع خلا فتحة بمقدار ثلاثين متراً عند الوسط تشكّل ممرّاً بينهما. اتخذ الماء مظهراً مرقّطاً في داخل هذا الحاجز الطبيعيّ، فهو حيّد مغمور مبعثر، وجلاميد ساقطة موشّاة برقع من الرمل الأبيض.

خلال اللحظات القليلة التي كان ضوء الشمس يرشح فيها عبر آخر ذيول غيوم الصباح الماطرة بين الحين والآخر، كان الحيّد البحريّ يغيّر لونه من الرماديّ إلى البنّيّ، بينما يحافظ الماء على صفائه من كلّ ناحية.

مشيت مسافة قصيرة حول حِتار المنحدر، مُزيحاً كتلاً صغيرة من الحجارة بقدمي، إلى أنْ وصلت إلى صخرة كبيرة تقبع على بعد متر واحد من الحافّة. سبق للرياح أنْ حتّت تجويفاً في جانبها المقابل للمحيط مشكّلة مقعداً طبيعياً حيث جلست أتأمّل البحر.

ساكنٌ جدّاً! الماء صامت، زجاجيّ المظهر، ما فيه سوى دلالة ضئيلة على الموج أتت في هدب الزبد على طول الشاطئ عينه. ثمّ سمعت غَوْصَة. اعتقدت، بادئ ذي بدء، أنّها سمكة كبيرة اقتربت كثيراً إلى السطح فشقّه ذيلها لفترة قصيرة. ولكنْ عندما نظرت إلى يميني باتجاه الصوت، لم أر شيئاً. كان السطح سليماً.

مسحت بنظري الماء من جانب الخليج إلى الجانب الآخر دون أنْ أرى شيئاً. ثمّ بدا لي أنّ شكلاً بدأ يفصل نفسه من جانب الحيّد وينزلق إلى مسافة قصيرة بحيث صار لقطةً، أسود على أبيض، فوق منطقة الرمل. ومع أنّ عمق الماء أعطاه خدعة الحركة الهادئة المستمرّة، إلاّ أنّ ملامحه كانت مميّزة من خلال

صفاء الماء، رجلاه بامتدادهما المطاطيّين العريضين تطآن المياه. ذراعاه مبسوطتان أماماً يصوّب بندقيّته. جسم يتوازن وكأنّه ثعبان الكوبرى. استدار وسبح بموازاة الحيّد، وكانت حركة رجليه القويّة الدافعة تقوده للأعلى.

حين شقّ سطح الماء، لم يكن ذلك بسرعة كما توقّعت، ولكنْ كان كالموافقة، جلد الماء يتلألأ إذ يفترق ليسمح بدخول بذلة الغطس المطاطيّة السوداء. انبجاس ماء في الشنَركل: "برررراش" عالية الصوت— ارتفع صداها إلى جانب المنحدر. علق رذاذها ثانية فوق رأسه.

تركت الزعنفتان آثاراً من الزبد خلفهما، وسبح هو خارجاً فوق رقعة الرمال باتجاه المكان الذي صار فيه لون الماء قاتماً تحت قسم آخر من الحيّد. حين كان على بعد خمسة أمتار أو ما يقرب من ذلك انحنى، وانثنى، وانزلق تحت السطح، وإحدى الزعنفتين تضرب لتحدث الغوصة السريعة التي لفتت نظري أوّل ذي بدء. وفي الأسفل، وبعد أنْ اجتاز آخر متر من الرمال، اختفى في ظلال الحيّد، يمحيه، كما بدا، للأبد. انتظرت، وأنا أترقّب.

سبق لي رؤية الغطّاسين في الصباح الباكر، يُحَمِّلون عُددهم على المراكب التي أرسوها على طول الشاطئ من قبل. وينطلقون عادة مثنى أو فرادى، بعد أن تضيء الشمس المحيط بقليل، ويعودون بعد غياب الشمس بقليل لتفريغ أكياس الخيش المثقلة بصيدهم. وأحياناً كنت ألمح قواربهم راسخة بعيداً داخل البحر في حيّد غير مرئيّ حين كنت أتجوّل، وأنا محبوس على اليابسة، جيئة وذهاباً على طول خطّ الشاطئ. ولكنْ كانت تلك هي المرّة الأولى التي أشاهد فيها غطّاساً داخل الماء، وحركاته سحرتني. ما كانت هناك وسيلة للربط بين الرجال القساة، شاربي البيرة الذين كنت أراهم كلّ ليلة حول نيرانهم، يتبجّحون سكارى بأسماكهم، مع هذا المخلوق الصامت الذي كان في الماء وكأنّه في بيته. وبدا أنّه كان منعزلاً، منسلخاً عن أيّ شيء يمتّ للبشر بصلة.

وفجأة انفجرت من تحت الحيّد ومضة فضيّة اندفعت كالبرق تاركة خطّاً بطول عشرين متراً على الرمال، توقّفَتْ فجأة، التَوَتْ، ثمّ انحرفتْ مشكّلة نصف دائرة عريضة كان الحيّد قطرها. ظهر الغطّاس بتناقض بطيء مع السمكة، يطفو ليصبح جزءاً من السطح مرّة ثانية. شكّل الوميض الفضيّ تحته أقواساً أصغر.

انطرح الغطّاس على السطح غير مبال بالخضّة التي حدثت تحته على ما يبدو. طفت بندقيّته بضعة أقدام بعيداً إلى يساره، وذراعاه سحبتا حبلاً لم يكن واضحاً لي عن بعد.

ارتفعت السمكة في الماء ببطء إلى أنْ غمر الغطّاس نصفه في الماء، وبالتواء حاذق، أمسك بالسمكة. كان الماء حيّاً بضع ثوان. ثمّ ركد ركود الموت المفاجئ.

حدث كلّ شيء في بضع ثوان. الغطّاس على السطح، وإلى جانبه الشكل الفضيّ الطويل للسمكة يطفو والبطن للأعلى. والماء، شفّاف ساكن، لا تبدو عليه علائم العنف الذي حدث قبل قليل.

سبح الغطّاس نحو الشاطئ ممسكاً بغلاصم صيده. خلفه، طفت البندقيّة وحبلها يتدلى وراءها كذيل طويل. سبح نحو أقصى ما يستطيع قطعه من المنطقة الضحلة ثمّ، مثل مخلوق بحريّ غريب ذي عين وميضة واحدة، وقف وبدأ يرمي قطعاً من عدّته نحو الشاطئ— القناع، الشنركل، الزعنفتين، الأثقال. وبمهارة، ولدت من الخبرة الطويلة، سحب حبل البندقيّة دون أنْ يدعه يعلق بالصخور المحيطة. انحنى، سحب الحربة من السمكة بحركة واحدة، ووضعها بدقّة في الشقّ المخصّص لها تماماً. السمكة بيد والبندقيّة بيد، خاض آخر بضعة أمتار نحو الشاطئ.

ارتجفت السمكة قليلاً حين رماها على الرمل. في أعلى رأسها شكّل الرقم سبعة بلون أسود، وعلى ظهرها نقوش من النقاط البنّيّة تمتدّ حتّى الذيل. طولها متر على الأقل، وزنها يزيد عن خمسة عشر كيلو غراماً. وقف الغطّاس حولها مدّة دقيقة، ثمّ

ذهب وجلس على صخور قريبة لينزع الجزء الأعلى من ثياب الغطس.

الشمس الآن ساطعة جليّة. تتساقط أشعّتها على عضلات ظهره وهو ينزع البذلة المطابقة لجسمه من فوق رأسه، فتكشف عن صدر بنّيّ ذهبيّ فوق ذيله الحوريّ المطاطيّ الأسود. أخذ سكينة من داخل غمدها وجرّ السمكة، بين حامل وساحب، مسافة قصيرة، عائداً بها إلى منطقة المياه الضحلة. أمسك بها بين ركبتيه ورأسها للأسفل، ثمّ شقّ جسمها من شرجها إلى غلاصمها، فسحب كلّ أحشائها حزمة زَلِقة واحدة. رمى بتلك الخبيصة إلى البحر، فانتشرت وغرقت بسرعة، ثمّ غسل جوف السمكة بالماء. صباغ أحمر باهت انتشر حول مكان وقوفه.

بعد أنْ فرغ من نزع أحشاء السمكة، رفعها من جديد نحو الرمال، غسل يديه ورجليه، ووقف لحظة يتأمّل البحر. ارتطم الماء حول كعبي قدميه. سافرت نظراته من المحيط إلى رؤوس اليابسة. استدار ونظر حوله في كلّ مكان.

تحرّك فجأة. قفز خارج الماء، واندفع فوق السمكة، انحنى، صفع جوانبها الكليلة، وأطلق صرخة عالية، لا هيئة لها، عاد صداها من جدران الخليج، وركض في دوائر حول السمكة، وجسمه لا زال في انحناء، يصرخ ويصفع، حتّى، وفجأة، خرّ على ركبتيه في الرمل.

بقي دون حراك لثوان قليلة، يركع وكتفاه في انحناء. ثمّ، وببطء شديد، رفع رأسه وضحك.

كان ذلك ككسر الزجاج. كنت أجلس للأمام على مقعدي، ذراعيَّ ورجلاي مشدودة ببعض الإثارة التي لا يمكن تحديدها، أنفاسي تتسرّع، لهثات حادّة. لكنّ الضحكة حطمت كلّ ذلك، وغرقت في مقعدي للوراء أشعر ببعض الذهول.

حين نظرت من جديد، كان الغطّاس واقفاً، يجاهد في لبس بذلة غطسه. تلمّس حوله، التقط أجزاءً واقعة من عدّته،

وربطها ثانية عليه. بعد أنْ انتهى من كلّ ذلك، ألقى بنظره حوله ليرى فيما إذا بقي أيّ شيء على الأرض، وحين تأكّد من أنّ عدّته مؤمّنة تماماً، حمل السمكة والبندقيّة وخاض، متراجعاً، نحو الماء. حين وصل الماء إلى خصره، انزلق إلى داخله ليُمْتَص مرّة ثانية ويسبح خارجاً نحو البحر العريض.

راقبته إلى أنْ صار شكلاً صغيراً أسود قرب حافّة الخليج، وأخيراً، اختفى إلى الحيدّ البنّيّ المرقّش. أين اتجه سابحاً لست أدري؛ ظهوره واختفاؤه كانا كمشهد قصير من مسرحيّة، لها وجود فقط أثناء الأداء.

وقفت ورميت بنظري، لكنّه اختفى تماماً. كلّ ما تبقى كان حلقة من الرمال تتمخّض على الشاطئ، تحمل في مركزها لطخة من الدم حيث كانت ترقد السمكة.

ستريفين مابين يكتب القصّة وسيناريو الأفلام والمقالات. نشر أعماله في الولايات المتحدة بالإضافة لأستراليا، وترجمت لخمس لغات.

الأصل الإنكليزيّ لقصّة "الغطّاس" نشر كما يلي.

The Diver, by **Strephyn Mappin**, published in *Chiaroscuro*, and in *Artlook*, Vol. 6, p. 35-36, 1980.

آيلين مارشال

بحروف قرمزيّة

أنا الآن امرأة طاعنة في السنّ، والذكريات تتدفّق داخلي. يقولون إنّ لكلّ امرء في داخله رواية، وأقول لكم إنّ لديّ من الذكريات ما يكفي لدزينة من الروايات، كلّ واحدة بمثابة قنبلة بدويّ هائل.

من أين أبدأ إذاً؟

حين عمّدوني أطلقوا عليّ اسم "روبي"؛ قالت لي أمّي إنّ هذا تيمّناً بالحجر الياقوتيّ الكريم، لكنّي لا أعتقد أنّ هذا هو السبب الحقيقيّ. أعتقد أنّ هذا الاسم هو اسم نادلة الحانة الأثيرة لدى والدي. سمعتهما يتشاجران حولها ذات ليلة، وفي اليوم التالي بدأت والدتي تناديني "روبينا".

اسمي الكامل "روبينا ليليان تيريزا". "تيريزا" كان اسم تكريس معموديّتي تيمّناً بإحدى القدّيسات.

كانت أمّي تعشق الجنازات، وأكاد أكون متأكّدة أنّ تسميتي "ليليان" جاءت من "ليلي"، الزنابق ذات المخروط الأبيض الضخم، والساق الذهبيّة الطويلة، تلك التي كنتم ترونها أثناء موكب الجنازة. إمّا هذا، أو أنّ أمّي أطلقت عليّ هذا الاسم تيمّناً بصديقتها، ليليان، التي يصفها الجميع على أنّها تكاد تكون قدّيسة. هذا ليس لأنّ والدتي كانت امرأة سيئة، ولكنْ كما تقول ابنتي، كانت مغامِرَة قليلاً بالنسبة لذلك الزمن. ربّما اعتقدت والدتي أنّ صديقتها ستكون نبراساً حميداً لي— ربّما اعتقدت أنّني سأصبح راهبة، أو على الأقل أنْ أكرّس نفسي للخير والصلاح،

وأبقى عانساً عذراء مثل ليليان.

أعتقد، عموماً، أنّنا قد لا نملك التحكّم بحياتنا. لو أنّ والدتي شابهت ليليان وليليان شابهت والدتي، أنا متأكّدة أنّ قصتيهما ستنعكسان تماماً. من السهل نوعاً ما أنْ تكون تقيّاً إذا شابهت ليليان، ولكنْ من الصعب أنْ تكون ورعاً إذا كان وجهك على شكل القلب بغمّازتين كلّما تبسّمت، وعينين خضراوين كبيرتين ترقصان حبوراً.

كانت والدتي تسلب الألباب لدرجة يمكنك أنْ تغفر لها أيّ ذنب تقترف. أنا شخصيّاً كنت أسامحها، ومعظم الناس أيضاً.

خبّرتكم أنّ والدتي أحبّت الجنائز. لم أعد بإمكاني أنْ أحصي عدد المرّات التي جرّتني فيها والدتي جرّاً لحضور جنازة. الجنازات أصابت جلدي بالخَدَر. أعتقد أنّ خوفي من الانحصار في جنازة يعود إلى أوّل مرّة راقبت فيها ذلك الصندوق الخشبيّ الداكن الطويل، الذي تغطّيه أكاليل الزهور، يُنزّل إلى حفرة في الأرض. لا زال أريج القرنفل ومسك الروم يدخل الحزن في نفسي.

امتلأتُ غيظاً لمجرّد التفكير في أنّ تلك الزهور ستختنق تحت ثقل التراب. تصوّرت أنّني داخل ذلك التابوت ولازلت على قيد الحياة، غير قادرة على التنفّس، تحيط بي جثث الموتى، ويطبق الظلام والرائحة العفنة عليّ من كلّ حدب وصوب.

لا تدفنونني، ومهما فعلتم، لا تُحضروا زهوراً إلى جنازتي حين يُحرق جثماني— أكره أنْ أفكّر أنّ وجوه الزهور الرقيقة تذوي داخل النار.

تضحك ابنتي منّي مراراً، تقول 'الزهور لا تحسّ يا ماما، بإمكانك أنْ تكوني "يانيّة" جيدة.' تشير بذلك إلى أحد المذاهب الهنديّة الذي يقول البعض عن أفراده إنّ لهم معتقدات غريبة، لكنّني لا أعتبرهم غير عاديين. أعلم أنّ الزهور لها شعور أيضاً. ولا يجديك نفعاً أنْ تقول لي إنّي غير عقلانيّة. أعلم أنّ البراعم تعبّر عن امتنانها حين ألتقطها من الممرّ وأضعها بعيداً عن دوس

الأقدام، ودائماً أحاول وضعها في قليل من الماء لأروي عطشها.

أحبّ زهور الأعراس وأعياد الميلاد وغيرها من المناسبات السعيدة، لكنّي أحبّها في باقات. أكره أنْ تمرّ بها الأسلاك فلا تستطيع الشرب. تموت متألّمة.

كانت أمّي تحبّ الأعراس بمقدار محبّتها للجنائز تماماً، ولم أكن أمانع كثيراً في الذهاب إلى الأعراس. الكلّ كان يبتسم ويضحك ممّا أدخل السرور على والدتي، ولو لأجل. بعدها تبكي مثلما لو أنّها كانت في جنازة.

كلّما كانت العروس جميلة، وكلّما كان فستان العرس الأبيض رزيناً ويدلّ على عذريّة الفتاة، كلّما زاد بكاؤها. أمّي كانت بلا شكّ تستمتع بالبكاء. كانت تقول لي: 'أُنظري يا روبي هذه المسكينة الصغيرة كم تبدو بريئة طاهرة في ثوبها الأبيض، حتّى ولكأنّها العذراء تيريزا المباركة. لا تعلم ما هو مخبّأ لها.'

لازلت أشعر بالأسى عند كلّ زفاف لأنّ زفاف والديّ كان السبب في افتراقهما.

لا أعلم الكثير عن زفافهما الحقيقيّ لأنّني مُنعت مع أختي من الذهاب. أقنعت ليليان والدتي أنْ تتركنا عند إحدى الجارات. كنت مستعدّة لبذل الغالي والرخيص لأراهما ذلك اليوم. أعلم أنّهما تزوّجا في كنيسة القديس مايكل الكاثوليكيّة؛ سبق لي الذهاب هناك مع والدتي عدداً من المرّات، لذلك بإمكاني تصوّر كيف كانت عليه مراسم الزواج.

كان والدي طويل القامة بشعر ذهبيّ، وعينين زرقاوين، وشاربين ذهبيّين طويلين. حين كان يرتدي بذّة رسميّة كان يبدو غاية في الوسامة، ممّا جعلني فخورة جداً. ارتدى يومها بذّته ذات اللون الأزرق الداكن، وحذاءه الأسود ذا العلامة المسجّلة، وساعته وسلسلته الذهبيّتين. فستان والدتي كان بهيجاً جدّاً بلون أصفر شاحب، طُرّزت عليه طفرات من الزهور البنفسجيّة، أمّا شعرها الذي يصفه والدي على أنّه 'أسود أزرق بلمعان جناح الغُداف'،

فكان مجمّعاً فوق رأسها تاركاً بعض التلافيف الصغيرة تتأرجح بحريّة، وكانت عيناها تشعّان فرحاً وهي تنظر في عيني والدي.

لازلت أذكر الزمرّدات الصغيرة المعلّقة في أذنيها، والتي كانت دائماً تماثل لون عينيها. اهتزّت الزمرّدات وتألّقت كنار خضراء كلّما حرّكت أمّي رأسها.

ذهب والديّ مرّة إلى حفلة راقصة، وارتدت أمّي وقتها رداء زهريّاً شاحباً مطرّزاً بأشكال بازلاء عَطِرة زهريّة وبنفسجيّة، وأوراق خضر زاهية؛ قال الناس حينها إنّها كانت حسناء الحفلة. أنا متأكّدة أنّها كانت كذلك لأنّها حين قبّلتني، قبل خروجها من البيت تلك الليلة، بدت كأميرة سحريّة تخرج من كتاب.

أكثر أيّامي حزناً، وأنا التي لا تنقصني مثل تلك الأيّام، كان حين قرّرا قطع علاقتهما. كان ذلك قبل أيّام قليلة من عيد ميلادي الثامن، بعد حفل زفافهما بمدّة قصيرة. قبل ذلك اليوم كانا يتشاجران باستمرار. كان والدي يصيح، وأمّي ترمي بالأشياء، وبعدها يتعانقان ويقبّلان بعضهما فيملأ الحبور أفئدتنا، لمدّة قصيرة.

اليوم الذي افترقا فيه كان مختلفاً. أصواتهما واهنة، وجهاهما رزينان. أتذكّر أمّي وهي تقول له: 'حسناً يا وليم، إن كان لا بدّ من هذا، فليكن هذا.'

لم أر والدي بعد ذلك اليوم ثانية، ولكنّي، ولسنين عدة، كنت أستلم بطاقة بريديّة يوم ميلادي كلّ عام، أعتقد أنّها كانت منه.

اختلف نمط الحياة بعد مغادرة والدي. عملت والدتي لدى "رويال هوتيل"، وسمح أصحاب هذا الفندق، من آل أوغريدي، لي ولأختي العيش هناك مع والدتنا. كانوا لطفاء معنا، لكنّني كنت غاضبة بشدة لتركنا كوخنا الصغير على ضفاف النهر، حيث الطيور والحيوانات.

سبّبت لوالدتي كثيراً من المشكلات بتصرفاتي التي زادت

عن حدود المألوف— كنت فظّة في تعاملي مع زوّارها، وتجنّبت الذهاب إلى المدرسة مستعيضة عنه بالذهاب إلى الصيد في النهر قرب منزلنا القديم. لكنّني لم أكن شديدة السوء. لماذا أبقت ماري معها وأرسلتني لأقيم مع أخواتها؟ حين أفكّر الآن في الأمر، أعتقد أنّ السبب هو أنّ ماري كانت أصغر منّي، ولم يكن بإمكانها فهم ما يجري بين والدتي والرجال الذين كانت تصادقهم.

أوّل ما عرفت عن هذه الأمور كان في يوم عدت فيه من المدرسة لأجد أمّي مع رجل غريب في سريرها، تتشابك أذرعهما حول جسميهما، وفمه يأكل فمها. بدا وكأنّه يؤذيها، ولذلك طرت نحوه وغرست أسناني في يده. نهض الرجل والتقط معطفه وقبّعته ورحل.

اعتقدّتُ أنّ أمّي ستسرّ بما قمت به، لكنّها كانت غاضبة. كانت عيناها تلتمعان ببريق بارد كلمعان عيني عرّافة.

’السيّد وليامز كان لطيفاً مع والدتك والآن رحل. يالك من عيّنة سيئة يا روبينا، تماماً مثل والدك.‘

لا أستطيع حتّى يومي هذا التخلص من شعوري بظلم أمّي لي: لقد وقفت مع الغريب ضدّي.

أعتقد أنّني لاحظت ذلك اليوم أنّ ما كانت تقوم به أمّي غلط. أحببت أمّي حتّى العبادة، لكنّ الفتيات في المدرسة سبّبن لي كثيراً من القلق. كنّ يطلقن تعليقات غريبة لا أفهمها، ويقهقهن ساترات وجوههنّ بأيديهنّ، بينما كنت أتظاهر بعدم الاكتراث.

لن يتمكّنّ من جعلي أكترث بهنّ!

ذات يوم وصلت القهقهة والضحكات المكبوتة إلى حد أثقلني فدعوتهنّ بالأغبياء. كنت الأولى في صفّي، ولربّما بدت ملاحظتي حولهنّ رخيصة، لكنّني على كلّ حال كدّرت صفوهنّ. سوزان جايمس، ذات العينين الصغيرتين كعيني خنزير، كانت دائماً الأخيرة في كلّ شيء، ماعدا مادّة الخطّ، نادتني قائلة: ’كنّا نتساءل فيما إذا كانت ولادتنا فوق أو تحت البطّانيّة. ماذا عنك يا

روبي، هل ولدت فوقها أم تحتها؟'

سمعت هذا القول سابقاً دون أنْ أدرك معناه تماماً. اعتقدّت أنّ أطفال الصيف يولدون فوق البطّانيّة تخلصاً من الحر، وأطفال الشتاء تحتها طلباً للدفئ. لكنّني كنت أشكّ، بيني وبين نفسي، في أنّ سوزان كانت تعني شيئاً آخر تماماً. كان وجهها ينمّ عن الشرّ حين قالتها، عيناها تكادان تختفيان، وصوتها بدا تهكّميّاً.

قالت لي آلي سميث، فيما بعد، ما كانت سوزان جايمس تعني. لم تكن آلي سميث دنيئة، ولكنّها كانت مبتذلة. لم تكن والدتي تحب أنْ أعاشرها لأنّ كلّ أفراد عائلتها تتّصف ألسنتهم بالبذاءة، بينما أمّي تربّت على أنْ تكون راقية كما يجب أنْ تكون عليه السيّدة المحترمة. على كلّ حال، ماقالته آلي هو أنّ الولادة فوق البطّانيّة تدلّ على أنك بنت غير شرعيّة، لأنّ والديك غير متزوجين أصولاً.

'لكنّ والديّ متزوجان يا آلي، سوف يعود قريباً، ذهب لمجرّد أنْ يجد عملاً. تزوّجا في كنيسة القديس مايكل، الكلّ يعلم ذلك.'

'هذا لا يؤخذ في الاعتبار يا روبي، يجب أنْ يكونا متزوّجين قبل ولادة الأطفال، وإلاّ كان الأطفال غير شرعيّين، أبناء حرام.'

منذ تلك اللحظة صرت أعلم لماذا لم أكن مرتاحة لوالدتي. اعتقدوا أنّها سيئة لأنّها عاشت مع والدي على الخطيئة قبل زواجهما، ولهذا حين تزوّجا لم تحسب لهما كزواج رسميّ. لهذا أصبحتُ مصدراً للإزعاج حين غادر والدي، وبدأت أمّي تصاحب الرجال.

لماذا أحببت الرجال كثيراً يا أمّي؟ كانوا دائماً على رأس القائمة. كنتُ على استعداد لأقوم بأيّ شيء لأجلك لكنّك أرسلتني للعيش مع أخواتك الثلاث، الواحدة تلو الأخرى.

أقمتُ أوّل الأمر عند خالتي روز. كانت وقتها نحيلة

جميلة مثل أمّي. بعد سنين عديدة حين اصطحبت طفلتي معي لنمكث عندها، صارت روز عملاقة الحجم جدّاً. أتذكّر ابنتي وهي تصرخ ‘انتبهي يا أمّي، إنّه الفيل!‘ كانت روز منحنية؛ ترتدي بيجاما من الفانيلا بلون رماديّ شكّلت طيّات حول ردفها الضخم. فعلاً كانت تشبه الفيل.

ضحكت روز، ذات الخلق الوديع، حين سمعت ذلك.

لم تكن سيّئة معي مثلما كانت خالتي فيوليت. كانت لطيفة، لكنّ مشكلتها كانت في أنّها تهمل الأمور وتنسى كثيراً. كانت تكلّفني بأعمالٍ لا أقدر عليها مثل غسل الصحون على حوض لا أستطيع الوصول إليه، فكنت أقف على صندوق خشبيّ.

خالتي فيوليت لم تكن تحبّني، وكانت دائماً تناديني "فتاة" عوضاً عن النطق باسمي. كانت متديّنة، وأجبرتني على الصلاة كلّ صباح وكلّ مساء قبل الذهاب للنوم. كانت تجبرني على الصلاة ابتغاء لمغفرة الربّ على خطيئة أمّي مع أبي. أنْ تكون ولداً للخطيئة هو أسوأ ما يمكن أنْ يكون، ربّما أسوأ من القتل. حتّى لو لم تكن أنت من ارتكب الخطيئة، يبقى الغلط غلطك أنّك ولدت منها.

العمّ "فرِد"، زوجها، كان دائم الحديث عن "رغبة الجسد". يقرأ من إنجيل أسود كبير مذهّب الأطراف. مقاطعه المفضّلة كانت دائماً عن أشياء مثل "الشهوة الجنسيّة". عرفت خلال مدّة وجيزة ما كان يرمي إليه لأنّ وجهه اتسم بالخبث واصطبغ بالأحمر القاني كلّما تطرّق إلى ذكر تلك الأشياء. كان العمّ فرِد ودوداً بالنسبة لي؛ يريدني دائماً أنْ أجلس بجانبه حتّى يقرأ عليّ مختاراته من الإنجيل.

كان ذات يوم يجلس على الأريكة، وأزرار فتحة بلطاله مفكوكة بالكامل؛ نظر إليّ بطريقة غريبة وربت على الفسحة بجانبه كي أجلس بقربه.

أتت خالتي فيوليت ووجهها يشعّ غضباً لدرجة أنّها بدت

شنيعة جدّاً.

قالت: 'هيا إلى واجباتك في مسح الأرض أيتها الفتاة.'

تلك الليلة، كان بإمكاني أنْ أسمعهما يتشاجران، ثمّ هدأ كلّ شيء إلى أنْ بدأت أسمع صرير الفراش. حتّى في عمري ذاك كنت أعلم ما يعنيه صرير الفراش.

في الصباح التالي جعلتني أحزم حقيبتي، ومشينا عبر المستراد إلى منزل خالتي ماي، أصغر الأخوات. كانت معي في الطريق بحلاوة العسل، وسألتني أنْ لا أذكر شيئاً لأحد عن قراءات العمّ فرِد الإنجيليّة. واقع الأمر أنّ خالتي فيوليت تحوّلت من المعمدانيّين إلى الكاثوليكيّين، وكان العمّ فرِد يقرأ الإنجيل في الكنيسة دائماً.

طلبت خالتي أنْ أذهب لأطعم الدجاج وأحضر البيض، بينما كانت تتناول الشاي مع أختها. أعطتني خالتي ماي قطعة كبيرة من كعكة المربّى لآكلها، ولهذا جلست تحت نافذة الغرفة استمع لما يقلن. كان الحديث عنّي، كيف أنّني أشبه والدتي وأنّني أطوّر في ذاتي طرائقها اللعوبة؛ أنّني لست سوى غاوية مغرية، وأنّ العمّ فرِد المسكين ليس سوى بشر من لحم ودم.

كان عمري عشر سنوات فقط! أردت أنْ أدخل وأرميهم بكعكة المربّى. عوضاً عن ذلك أعطيت الدجاج ما تبقّى منها.

كنت أفكّر في كلّ هذه الأمور منذ أنْ جاءت ابنتي تنتج قصّة حياتي. يبدو أنّها كانت مسرورة أنّني ولدت من علاقة غير شرعيّة. قالت لي إنّها رأت بعض صور العائلة، وأنّ واحداً من أبناء الخالة روز بدا وكأنّ له أصول أبوريجنيّة. هذا ممكن، لأنّ الخالة روز عاشرت كثيراً من الرجال.

نيّة ابنتي حسنة، وأنا جدّ فخورة بها؛ كانت أوّل أفراد عائلتي ممّن دخل الجامعة. تعاملني معاملة جيّدة، لكنّها تعتقد أنّني متخلّفة. لا تعلم أنّه كان عليّ حين كنت في العاشرة، لأتغلّب على مصاعب العيش، أنْ أعرف أشياء أكثر ممّا تعرف هي في

الأربعين. ولهذا أمازحها حين تحاول "تثقيفي".

قدّمت لي خدمة كبيرة لأنّها ساعدتني في التخلص من شعوري بالعار لعدم زواج والديّ قبل ولادتي. 'يالها من رومانسيّة يا أمّي؛ الطريقة التي هربا فيها معاً وأسّسا منزلهما، كانا سابقين لزمانهما. أنت وليدة الحبّ يا أمّي.'

في أيّامي، لم يكن هنالك أسوأ من أنْ تحمل المرأة قبل الزواج، وكانت الفتاة هي من تلبس عبء الغلط الذي عكّر صفو العائلة. أما اليوم فصار هذا من الأمور المقبولة تماماً. أكره كثيراً من التغييرات التي تحدث في هذا العالم، لكنّ هذا تغيير نحو الأفضل. لم يعد الطفل البريء يوسم مدى الحياة.

لم أر شهادة ميلادي إلاّ حين أحضرت لي ابنتي نسخة عنها من مكتب التسجيل منذ عدّة سنوات. أنا الآن طاعنة في السن، وحياتي كانت حافلة، وبعضها كان سارّاً. لكنّ ولادتي كانت آفة مستديمة. كم كنت سأكون أكثر سعادة لو أنّ شهادة ميلادي لم تكن تحوي ذلك الختم القرمزي الحروف: "غير شرعي".

آيلين مارشال كاتبة من نيوكاسل، أستراليا. نشر الأصل الإنكليزيّ لقصّة "بحروف قرمزيّة" كما يلي.
In Scarlet Letters, by **Eileen Marshall**, was published in *Kalimat 13*, March 2003, Australia.

صوفي ماسون

شاطئ الأجانب

السابعة من صباحٍ صيفيٍّ في السبعينيّات، شاطئ "نارابين": أمواجٌ طويلة تندفع إلى الساحل، ضوء فضيّ يتحوّل بسرعة إلى لون الذهب، والرمل يَصُرّ ببرود تحت أقدامنا، وصفٌّ من المتزلجين على الأمواج يقترب محاذياً الشاطئ فيحطّ عليه. جئنا، لا لنركب الأمواج، بل لنحصل على جرعتنا من الشاطئ والبحر.

ثمّة فكرة غربيّة لازمت والدينا، وهي أنّ الشمس الأستراليّة قويّة جداً لدرجة أنّ بشرتنا ستذوي تحتها، وأنّ أدمغتنا ستقلى بها. ولذلك توجّب علينا الحضور كلّنا بما في ذلك الطفل، في هذا الوقت المجنون من الصباح. هذا أمر لا أفصح عنه لأصدقائي في المدرسة أبداً: فهذه النزهات الصباحيّة الغريبة ما هي إلاّ علامة أخرى من علامات اختلافنا الاجتماعيّ، وهي الفرق التافه الذي يمكن أنْ يعني عدم دعوتهم لنا إلى حفلات الشاطئ. لا أحدّثهم عن جمال الشاطئ الباهر في هذا الوقت من الصباح، عن نقاوته ونضارته، عن روعة الهواء، وعن كلّ طير ينقضّ بصمت كأنّه متزلجّ على الموج حين يحمله الهواء. الكلّ يعلم أنّ الشاطئ للرؤية والترائي، لكشف بطنك الأسمر، وساقيك المدهونتين بالزيت، لجذب انتباه أحد المتزلجين على الموج. أحدّق أنا وأختي إلى البحر برهة قصيرة، مأخوذتين بأناقة الراكبين على الألواح، دون أنْ تفصح إحدانا للأخرى عن فكرة أنّه لربّما كان من الأفضل رؤيتهم هناك بعيداً عنّا، دون أن نتمكّن من الوصول إليهم. فحين

يحضرون إلى الشاطئ سيروننا على كلّ حال واقفتين مع والدنا، الذي يرتدي لباسه الشاطئيّ المعتاد: سروال قصير موشّى برسوم إندونيسيّة، وعلى رأسه منديل معقود في زواياه، وبشرة ناعمة حليبيّة شاحبة زيتونيّة لا تُغيّر لونها، إلاّ عندما يشرب خمراً كثيراً فتصبح حمراء، أو يغضب فتصبح بيضاء. يلاحظ والدنا نظرتنا نحو البحر؛ وبمجرّد اقتراب المتزلجين، ينادينا بصوت مرتفع باللغة الإيطاليّة، التي ما هي بلغتنا على كلّ حال، لكنّه يعلم أنّ هذا يربكنا حتّى أكثر من الفرنسيّة، لغته ولغتنا الأصليّة. يتظاهر بأنّه فلاّح من الأزقّة الخلفيّة، وعلى علم بأنّ هذا كفيل بجعل عيون المتزلجين باردة جوفاء مثل البحر في الليل.

الثانية عشرة من ظهر يوم خريفيّ في الستينيّات، شاطئ "دي واي": اتجهنا بسرعة إلى الشاطئ، بكامل ملابسنا، بعد التوقّف في مكان هولنديّ لشراء كعك الزنجبيل. لا زلنا بأفضل حلّة ممكنة ليوم الأحد، لأنّنا عائدين لتوّنا من القدّاس. نراقب الأولاد على الشاطئ، يركضون جيئة وذهاباً، وهم بالكاد يرتدون أيّ ثياب، يرمون الكرات بينهم ويتصايحون. تهزّ ماما رأسها. 'إنّه الأحد،' تتمتم بهدوء، ويقول أبي، 'لافرق هنا، أليس كذلك؟ إنّه مثل أيّ يوم آخر!'

في صوتيهما تلك الدهشة المتعالية للمستكشفين الذين يعثرون على مجتمع بدائيّ غريب. أما نحن الأبناء فَنُحْبَس داخل الأورغندي، والكُلف، وبذلات البحّارة، ونراقب بصمت؛ نفكّر ربّما بالتنازلات الكثيرة التي علينا القيام بها، والمجاملات التي يجب أنْ نؤدّيها.

الرابعة من بعد ظهر يوم شتائيّ، في وقت ما في السبعينيّات، شاطئ "كولاروي": يجد والدنا بعض الحيوانات الصدفيّة في البرك الصخريّة، بين كلّ الصخور، فينادي علينا متلهفاً، تعالوا، لتجلب كلّ واحدة دلوها، لدينا وليمة هنا! وتهزّ أمّي رأسها ببطء متهكّمة، كما كانت تفعل في فرنسا عندما كان يجلب

كثيراً من الفطور البرّية. لكنّنا نحن الأبناء، حتّى أنا، حين تجَسَّدتُ كمراهقة متغطرسة، حاولت التخلّص عادة من هذا المرح العائليّ (على الأقل فكرياً، لأنّ والديّ كانا يصران على حضوري الجسميّ)، كنّا نسارع إلى حيث كان يطأ الصخور بحذر فنستولي على الأصداف التي نلاقيها في البرك الصخريّة.

حين كنت صغيرة، كنت أضحك بسرور من حماس والدي، وأستمع بإصغاء لحكاياته التي اتخذت أنماطاً متعدّدة. حكايات عن الطفولة، عن الأجداد، عن الجنّ والشياطين، والأشباح والقدّيسين.

الآن اعتقد أنّي على معرفة أكبر، لكنّني لا أستطيع إنكار لمسة الدفء التي تزحف داخل عينيّ وهو يؤشّر، ويبجّل، ويتعجّب، ويحكي قصصاً سريعة عن مخلوقات بحريّة خرافيّة، في الوقت نفسه الذي يلتقط فيه المخلوقات الحقيقيّة برشاقة ليضعها في الدلو: قنفذ بحر هنا، وبلح بحر هناك، شيء قد يكون محاراً. عالم البحيرات الصخريّة راكد، معزول بطريقة ما عن البحر الصارخ. وفجأة، حين أنظر إليه، وألحظه يراقبني أشعر بالحزن لعدم فهمي. أدير رأسي بعيداً وأقول، آه، ربّما نصاب بالتسمّم نتيجة أكل هذه الأنواع.

السادسة من مساء يوم ربيعيّ في التسعينيّات، شاطئ "مانلي": كلّ شيء تغيّر الآن. الناس يتحدثون بكلّ صنف من اللغات، ولا أحد يدير رأسه لينظر. كلّ واحد يتحدّث عن الثقب في طبقة الأوزون، وكيف أنّ تلوين الجسم بتعريضه للشمس أمر غير مستحبّ.

الأطفال بثياب واقية من الشمس تغطّيهم من الرقبة إلى الركبة، يحدّقون إلى كائنات صدفيّة في البحيرات الصخريّة لكنّهم لا يأكلونها، لأنّ هذا الأمر تبدّل منذ وقت طويل. والديّ عادا إلى الجانب الآخر من العالم، وعائلتي هنا، أبناء من هذا العالم، من هذا المكان، لا يعرفون معنى شاطئ الأجانب، ويضحكون حين

أخبرهم عنه. عليَّ أنْ أكون من هذا المكان أيضاً، لكنّني لست كذلك! ليس تماماً: ولا يمكن أنْ أكون. لكنّ هذا لم يعد يقلقني. أستطيع شم رائحة السمك مع البطاطا المقليّة، ورائحة البحر العجيبة المثيرة، والسماء من فوقنا مرآة مزركشة بانعكاسات أحجار الأنهار في جنوب فرنسا.

وأفكّر بوالديّ، يحضران إلى هذه الشواطئ، يتنفسان هذا الهواء، يستشعران الرمل على أصابع أقدامهما، يحبّان الجَمال، لكنْ يحاربانه، يحاولان إحياء القصص القديمة. ينتفح قلبي، وأستدير نحو أولادي. 'هنالك شيء أريد أنْ أقوله لكم. قصّة عن أسلافكم من عائلة "غيليز"، الذين أبحروا من مكان بعيد عبر البحر، منذ أكثر من ثلاثمائة سنة.' ألاحظ النظرة على وجوههم: يستمعون، توّاقون، فالقصص بالنسبة لهم مثل السحر، تفصيلات تتجسّد من عالم عجيب آخر.

"لانسِلوت"

كانت الأرض تحت البحيرة موطن الطفل منذ وعيه الأوّل، لكنّه كان يعلم أنّه لم يأت من هناك. وأحياناً، كانت تراوده كوابيس مرعبة محيّرة، يلتقط فيها ملامح مكان آخر، مألوف لديه بطريقة عجيبة. مكان تتراجع جدرانه عالياً جدّاً لتلامس السماء، سماء ذات لون غريب من الأسود المـُخْضرّ. أرقام تتحرّك مهتزّة؛ ثمّ زئير هائل، وضربة كأنّها ضربة ذيل عملاق، صوت ينادي، يصرخ، وبعدها محض سكوت، وكتلة سوداء عظيمة تتقدّم، ملتوية لا يمكن

الهروب منها. لكنّه ما كلّم أحداً عن هذه الكوابيس، لأنّه عجز تماماً عن وصفها بالكلمات.

كان سعيداً في البحيرة، يعيش تحت حماية السيّدة في القاعات البهيّة تحت الماء. الماء مجاله الحيويّ. حوله أماكن عدّة للاستكشاف، وأشياء رائعة يمتّع نظره فيها، وسحر يظهر لمجرّد لمسة الإصبع، أو لمجرّد أنْ يزفر بأمنية. كان طفلاً متحفّظاً، حالماً، لكنّ الجموح المغروس في صميمه كان يظهر كومضات مفاجئة من التصرّف الملتهب. لم يكتف باستكشاف البحيرة، بل أمضى وقتاً طويلاً يقرأ كتباً مصوّرة حول بلاد غريبة فوق الماء. لم تكن تنقصه الرفقة أيضاً؛ فكان لديه فريق لعوب من الكلاب البيض المحمرّة الأذنين، يتبعه أينما اتجه، كما أنّ سيّدة البحيرة، وأخواتها، وخادماتهنّ كنّ جميعاً على غاية في اللطف والمحبّة.

لكنّ وقته المفضّل بين كلّ الأوقات كان تلك الليالي التي يزيّنها القمر، حين كانت السيّدة، وأخواتها، والطفل يسبحون سويّاً صعوداً نحو العالم الغريب فوق الماء. امتدّ الماء إلى كلّ النواحي، فذلك مكان استقر بين كتلتين مائيّتين – السكون العميق للبحيرة، وهسيس ونشاط المحيط الجبّار. السماء التقت مع الماء بدقّة، والأرض بين هذه المياه كانت منبسطة فضيّة الرمال، ينمو القصب فيها كثيفاً حول طرف البحيرة، وتتدحرج كثبانها نحو المحيط. كانت خالية من السكان تماماً: فلا بيت، ولا كوخ، ولا حتّى مركب صيّاد سمك تقع عليه العين في أيّ مكان. الحيوانات الكبيرة لا أثر لها هناك أيضاً، بل أشياء صغيرة كثيرة العدد ناشطة، مثل فئران الماء، وآلاف الطيور. والحشرات؛ جيوش كبيرة من الحشرات تندفع نشيطة بين القصب، وفيالق من المخلوقات البحريّة، مثل السرطانات، تتسارع في كلّ مكان فوق الرمال، بينما المحار وبلح البحر تلتصق بالصخور على الشاطئ وفي مصبّ البحيرة، وأسماك من كلّ لون وشكل وحجم تسبح في المياه

العذبة، وكذلك المالحة.

ولسوف يتجوّل بين القصب عند حافّة الماء، ضارباً تلك القضبان بعصا يشقّ لنفسه طريقاً عبرها، قاصّاً على نفسه حكايا وهو يمضي. واعتاد أنْ ينبطح ليراقب بعضاً من شعائر الحشرات النشيطة، التي كانت تتوقّف عن حركتها فقط حين كان ظلّه، وهو ظلّ عملاق، يسقط عليها. وتخيّل أنّ حصونها من الكومات الرمليّة والأعشاب إنّما هي مثل القلاع التي سبق له مشاهدتها في الكتب التي قرأها، وأنّ الحشرات الصغيرة المحاربة كانت تمرّ بمِحَن معقّدة ومغامرات غريبة. أمّا الطيور، التي كانت تُغيْر بنهم لتسبّب الفوضى في مستوطنات الحشرات، فهي غول وفرسان سود لا تنوي سوى الخراب، أو ما عدا ذلك فهم زوّار محبّبون من عالم آخر.

هذا ما كان من أمر ذلك المكان الخالي وقوّته البعيدة التي أشعلت مخيّلته، تماماً على عكس البحيرة وسحرها المعروف المألوف. كانت الأرض مجهولة، غامضة، تناديه ما وراء الكلمات، بل يمكن القول وراء المشاعر...

كان مستغرقاً لدرجة أنّه لم يلحظ السيّدة وأخواتها يراقبنه، ويتكلّمن عنه بأصوات خفيضة. لم يلحظ أنّ عيونهنّ الهادئة كانت أحياناً تمتلئ بتوقّعات آلام الفراق، وبالدرب التي كان عليه سلوكها حين يبلغ أشدّه. كانت طفولته مباركة، ومملوءة بالانتظار. لكنّه ما كان يعلم هذا أيضاً، بل حمله في داخله، كأنّه هِبةٌ، ولعنة.

مضت سنوات عديدة وحياته على هذا الحال، إلى أنْ حلّ يوم ميلاده الثالث عشر. استيقظ ذلك الصباح وهو يشعر أنّه تغيّر. لم يفهم ماهيّة شعوره، طَرْق قلبه الشديد على ضلوعه، الرعشات التي دبّت في أوصاله من رأسه إلى قدميه، الطريقة التي تغضّنت وفقها فروة رأسه بالجليد والنار، وحلقه يغصّ بعائق غريب.

حين أتى إلى قاعة الطعام، وجد أنّ السيّدة وكلّ أخواتها في انتظاره. السيّدة على رأس الطاولة، كالعادة، لكنّ وجهها كان

ساكناً وأكثر رزانة من المألوف، وفي عينيها تعبير ما استطاع الصبيّ تفسيره. ركع أمامها لينال بركاتها، ولكنْ عوضاً عن أنْ تلمس كتفه برفق، كالعادة، وضعت يدها بلطف على شعره ومسّدت رأسه، لوقت قصير جدّاً.

'يا طفلي العزيز،' قالت له السيّدة بصوتها العميق اللطيف، 'لا بدّ أنّك كنت تشكو من الوحدة كلّ هذه السنين.'

'الوحدة؟' سألها بتعجب، ثمّ غصّ ببصيرة مفاجئة راودته. هل هذا ما كان سبب شعوره الغريب طوال تلك المدّة – تمييز لما لم يسبق له أنْ شعر، كلّ تلك السنين: الوحدة؟ هل كانت الأمور مرتّبة في البحيرة بحيث لا يدرك ذلك إلاّ أنْ يبلغ صبيحة ذلك اليوم؟ ولكنْ لماذا؟

'لتدرك أنّه ما كان بإمكاننا عمل غير ذلك،' قالت السيّدة بحزن. 'آه يا لانسلوت، لم يكن بوسعنا عمل أيّ شيء آخر.'

لم يألف سماع اسمه مباشرة، بل جرت العادة أنْ يستخدمن أسماء التحبّب، مثل "شرغوف"، و"الصغير"، و"الصبيّ". لكنّه كان يحب سماع اسمه كلّما نادينه به؛ اسم إيقاعيّ، ناعم ومتلاطم مثل البحيرة. واليوم، أرسل النداء هزّة أخرى في جسده؛ ليست هزّة واحدة ميّزها، بل شيء آخر، شيء عرفه فوراً، على الرغم من أنّه لم يكن بمقدوره أنْ يقول لماذا. إثارة. توقّعات. شيء خطير فعلاً على وشك الحدوث.

'فهمت،' قال، على الرغم من أنّه لم يفهم شيئاً بالطبع.

'لانسلوت، أيّها العزيز جدّاً على قلوبنا، هل تتذكّر أيّ شيء قبل مجيئك إلى هنا؟'

اندفعت ملامح تلك الحياة الماضية، بكلّ حيرتها ومخاوفها، كالبرق عبر مخيّلة لانسلوت وكأنّها نجم ساقط. جفل، وأجاب: 'القليل. القليل جدّاً.'

'أتخبرني ما الذي تتذكّره؟' قالت.

وهكذا أخبرها، بتردّد أوّل ذي بدء، ثمّ بانطلاق أكبر وأكبر،

والصور تتجمّع في مخيّلته لتفجّر سدّ صمته الطويل. خيّم السكون حين انتهى، ثمّ قالت السيّدة: 'لماذا لم تخبرنا أنّك تتذكّر كلّ هذا يا لانسلوت؟'

'لم تسألوني قبل الآن،' أجاب بكلّ بساطة.

أومت برأسها. 'حسناً.' أشارت إلى خادمة. 'أحضريهما إلى هنا.' في تلك اللحظة طرق قلب لانسلوت بشدّة على ضلوعه فظنّ أنّه سيقفز خارج صدره. 'من...؟ من...؟' قال متلعثماً، بينما كانت الإثارة داخله تتعاظم وتتعاظم، فتدفع عنه مخاوف الذكريات بعيداً.

'ابنا عمّك يا لانسلوت. من المفترض أنْ يعيشا معك تحت البحيرة لمدّة سنة، وثمّ—'

'ابنا عمّي!' تجرّأ لا نسلوت على مقاطعتها. وتحت خصلات شعره الأسود، أضاءت عيناه الجميلتان، الغنيّتان، الشفّافتان، البنّيّتان، كالكهرمان، بضوء ما كان فيهما من قبل أبداً. ورأت السيّدة وأخواتها ذلك الضياء في عينيه، وهن يشعرن بوخزة في قلوبهنّ، وعرفن أنّ الأوان آن بحقّ، وأنّ الدرب لابدّ من أنْ يُسلك.

'ابنا عمك،' أعادت السيّدة على مسامعه، مبتسمة، ولكنْ بمسحة حزن. 'اسم الأوّل ليونيل والثاني بورز.'

'ليونيل و... بورز...' ردّد لانسلوت.

'هما أيضاً يتيمان، ولهذا لا بد من بقائهما معك حتّى يحين الوقت المناسب. سنعلّمكم سويّاً، ويجب أنْ نتأكد من أنّ...'

لكنّ لانسلوت توقّف عن الإصغاء. كان يرمق المدخل، حيث ظهر غريبان: صبيّان، واحد من عمره وحجمه، طويل نحيل، بوجه طويل، شاحب، قلق. والآخر أصغر عمراً وحجماً، بوجه ذي خدود مستديرة يفترض أنْ يكون فرحاً، لكنّه بدا مكروباً تلك اللحظة. حدّقا إليه أيضاً، ولم تتمالك السيّدة وأخواتها، اللواتي كنّ يراقبن الصبيان، منع أنفسهن عن الابتسام.

'تقدّما يا ليونيل ويا بورز،' قالت السيّدة.

ورأى لانسلوت أنّ وجهي ابني عمّه مملوءان بعدم ارتياح يقترب من الخوف. لم يكن يفهم سبب ذلك بالضبط. لكنّه فكّر أنّ هذا بيته، ويتوجّب عليه خلق جوّ من الراحة لهما. ولهذا اتجه نحوهما مادّاً يديه.

'مرحباً بكما في البحيرة يا ابني العمّ،' وأضاف: 'على الرحب والسعة، على الرحب والسعة.'

راقبه الصبيّان بحذر. مدّا أياديهما ببعض تردّد، وقبضا على يديه لفترة وجيزة سحبا بعدها أياديهما. لاحظ لانسلوت أنّ العينين البنّيّتين للصبيّ الأصغر محاطتان بإطار أحمر، وأنّ الصبيّ طويل القامة بدا مرهقاً تماماً. همس له: 'لا تخف، ستكون على ما يرام هنا، وستكون سعيداً. نحن—'

لكنّ لانسلوت أصيب بالذعر حين انفجر الصبيّ الأصغر بنشيج مرتفع الصوت، وحاول أخوه الأكبر تهدئته بطريقة فجّة، رابتاً على كتفه بتذمر. تردّد لانسلوت، ثمّ قال دونما كثير من التفكير: 'آسف إن أسأت إليكما، لكنّني اعتقدت أنّه يمكن أنْ تكونا—'

هنا قالت السيّدة بلطف: 'يا لانسلوت، هلاّ أخذْت ليونيل وبورز إلى الغرفة التي حضّرناها لهما؟' وأضافت، عندما كان لانسلوت ينظر إليها بتساؤل: 'هي مجاورة لغرفتك تماماً. بإمكانك لاحقاً أخذهما في جولة حول البحيرة.'

انزعج لانسلوت. فيالها من تجربة غريبة، جديدة بالنسبة له، ومع ذلك أراد الترحيب بالصبيّين على أكمل وجه. لكنّه استطاع حتّى تلك اللحظة أنْ يخيف الصبيّ الأصغر لحدّ ذرف الدموع. نظر إلى السيّدة بتساؤل. ردّت عليه بتحديق شفّاف، ومبهم مثل ماء البحيرة. ما أرادت أنْ تقول له كيف يقوم بمهمّته.

'تعالا معي إذاً،' التفت إليهما، وقال دون تأكّد وهو يختلس نظرة إلى الصبيّ الأصغر ليرى فيما إذا كان سينفجر باكياً مرّة أخرى لسماع صوته. لكنّ الصبيّ تنشق ومسح أنفه بكمّه،

بينما كان شقيقه الذي احمر وجهه خجلاً يومئ برأسه إيجاباً. وهكذا شقّ لانسلوت لهما الطريق من قاعة الطعام باتجاه غرف النوم.

أبناء العمّ! لقد كانا ابني عمّه فعلاً! وحتما من بني البشر— ليس من بني البحيرة. لأوّل مرّة تصفعه حقيقة كونه شخصاً من بني البشر، وليس من بني العالم الآخر مثل بني البحيرة مثلاً. لم يكن الصبيّان على جمال كامل، ولا شكل كامل، ولم يكونا برشاقة وانسياب سيّدات البحيرة وخادماتهن. كما لم يكونا على تنوع أشكال وهيئات مخلوقات البحيرة، أو العالم فوق الماء. كانا مثله— سمجان وغير مكتملان. من أين أتى ابنا عمّه؟

أطبق عليه الصمت وغرق في تفكيره، وذُهل حين قال الصبيّ الأصغر مقهقهاً: 'تشبه البوم تماماً في هذه اللحظة، هل تعلم ذلك؟ لم أكن أعلم أنّنا والبوم أبناء عم!'

'لا تكن غبياً يا بورز،' قال ليونيل ببعض ارتباك، وهو ينظر جانباً باتجاه لانسلوت، الذي حيرّه التغيّر المفاجئ لدى بورز، كما تتغيّر السماء المكفهرة بالغيوم المطيرة إلى سماء تنتشر فيها الشمس المضيئة.

وأجاب: 'بوم؟ لقد سمعت عن هذه الكائنات ولم أرها. عيونها مستديرة، أليس كذلك؟ وهي على غاية في الحكمة. هذا لا يشبهني أبداً.'

وضحك بورز بصراحة الآن وشاركه ليونيل، ولو بشكل أكثر تحفّظاً. ثمّ سأله ليونيل: 'أحقّاً لم تر بوماً من قبل، ولا حتّى في الغابة؟'

'الغابة؟' تساءل لانسلوت.

نظر ليونيل وبورز واحدهما نحو الآخر. احمر وجه لانسلوت قليلاً: 'لم أر الغابات، سوى في الكتب.'

قال بورز: 'وماذا عن القلاع؟'

قال ليونيل: 'والمدن؟'

قال بورز: ’جياد الحرب؟‘
قال ليونيل: ’المباريات؟‘
قال بورز: ’البساتين؟‘
قال ليونيل: ’الإسطبلات؟‘

رفع لانسلوت يده وقال: ’توقّفا، توقّفا... أعرف عن كلّ هذه الأشياء، كما تعلمون، لأنّ لدينا هنا كتباً عنها، ولكنّني لم أرها أبداً.‘

نظر الصبيّان إليه بإشفاق. وحين شعر لانسلوت بذلك، قال بفخر: ’لكنّني أعرف البحيرة، بقاعاتها العميقة الآمنة، المليئة بالجمال والرضا. أعرف مياه البحيرة الوضّاءة النقيّة كالجواهر. أعرف عالم ما فوق الماء، برمله وكثبانه وزئير المحيط، وكلّ الطيور والحشرات التي تعيش هناك، ورائحة المحيط المفرطة الملوحة، والمحار الذي يخفي لآلئه فوق الصخر. هذا موطني منذ عديد العديد من السنين، وأحبّه حبّاً جمّاً.‘

وانفجر ليونيل قائلاً: ’لكنّك يا لانسلوت تأتي في الواقع من عالم آخر! من موطن آخر، دمّرته البحيرة! والدك كان الملك بان البنويكي، ووالدتك الملكة إيلين. كان معقلهما هناك في الأعالي، عند المكان الذي تسميه عالم ما فوق الماء. ذات يوم كانت هناك مدينة عامرة، يسكنها كثير من الناس، وفيها قلعة عظيمة، مشيّدة بين جسمين مائيّين، بين البحيرة والمحيط. ذات يوم، حين كنت رضيعاً، هبت عاصفة مرعبة، عاصفة لم تكن طبيعيّة تماماً. ارتفع البحر ارتفاعاً عظيماً، حاملاً معه أمواجاً جساماً، وارتفع منسوب البحيرة أيضاً، وتدفّقت مياه الجهتين بزئير وهدير مروّعين لتبتلع المدينة تماماً، فما نجا شيء ولا أحد، أو هكذا ظننّا— حتّى اليوم. تحوّلت المدينة النشيطة الصاخبة إلى أرض خراب من الرمل والماء.‘

ضاق نفس لانسلوت. صدره بات يؤلمه. وجع أعظم من أيّ وجع صادفه كان يمزّق أوصاله. فهل صار الآن كلّ ما كان

يعرفه، والحبّ الذي يلقاه، والسلام الذي ينعم به، واللطف الذي يكتنفه، أكذوبة أيضاً؟ ذكر ليونيل أنّ العاصفة لم تكن طبيعيّة. فهل من الممكن – وياله من تفكير مريب – أنْ تكون السيّدة هي التي تسببت بالكارثة بكلّ مالديها من أفانين السحر؟

'لانسلوت،' جاء صوت السيّدة، فجأة فوق كتفه. 'لانسلوت، هذه ليست الطريق إلى المكان الصحيح.' كان صوتها حلواً ناعماً كعادته دائماً، لكنّ لانسلوت خاف منها فجأةً. وكذلك جفل ليونيل وبورز لظهورها المفاجئ، وكلماتها الهادئة؛ فتدفّق الدم في وجه ليونيل الشاحب، بينما كان بورز يعضّ على شفته.

'ماذا يا لانسلوت؟' استمرّت متسائلة. 'هل تعرف إلى أيّ مكان يجب أنْ تذهب؟'

أجاب لانسلوت وهو منتصب القامة، بينما كان يغلي في داخله غضباً من الخوف: 'يا سيّدتي، أعتقد أنّني أعرفه، وهو ليس هنا.'

قالت بحزن: 'لا، ليس هنا. ولكنْ يجب أنْ يكون هنا إلى أجل.' نظرت إلى لانسلوت للحظة أخرى، ثمّ نحو ليونيل وبورز، وقالت بهدوء: 'يا أولادي المساكين، علّموكم أنْ تكرهوا البحيرة، ولهذا لا ألومكم. ولكنْ في هذه المرحلة هنا موطنكم أيضاً.' تألّقت عيناها واتخذ فمها شكل خط ثابت. 'وغداً تبدأون دروسكم. ولكنْ أوّلاً أريد أنْ أراك يا لانسلوت في قاعة الطعام، بعد أنْ توصل ابني عمك إلى حجرتهما.'

'حاضر ياسيّدتي،' قال لانسلوت. وبعد أنْ ذهبت السيّدة، قاد الصبيّين إلى الغرفة التي خصّصت لهما. لم يستطع التكلّم، حتّى حين قال ليونيل وبورز بحياء إنّهما سيراه لاحقاً، أومأ برأسه فقط، ومعدته تتمخّض.

كانت السيّدة بانتظاره. لوحدها. أشارت إليه بالنهوض حين ركع أمامها. جعلته يجلس إلى جانبها ونظرت إليه طويلاً. حاول لانسلوت تلافي عمق ذلك التحديق؛ والمعرفة الجديدة تجيش

داخله، والحقائق القديمة تضمحل، وبين هذا وذاك، أرض قاحلة من التخبّط والحزن والغضب والخوف. تنهّدت واستأذنته أنْ يمدّ إليها يده. في يدها هي خاتم، بسيط تماماً، لكنّه لميع ورقيق كأنّه شظيّة من القمر.

قالت له السيّدة وهي تدخل الخاتم في إصبعه: 'لانسلوت، هذا لك. كنت أنتظر الوقت المناسب لإعطائك إيّاه. ولسوف يحميك من السحر المزيّف، ويعينك على وضوح الرؤية. وستكون دائماً بحماية البحيرة. ولكنْ بعد سنة، عليك أنْ تغادر هذا المكان وتعود إلى عالم البشر. أنت، وابنا عمّك. عندها ستكون تعلّمت كلّ ما بوسعنا تعليمه، وستحتاج لتعلّم أساليب الرجال، وخصوصاً الفرسان. ولسوف تصبحنّ فارساً عظيماً في يوم من الأيّام يا لانسلوت. وخلال هذه السنة سيتعلّم ليونيل وبورز بعض أساليب البحيرة، لأنّ هذا ضروريّ لهما.'

كان لانسلوت صامتاً حتّى تلك اللحظة، لكنّه ما عاد قادراً على احتواء نفسه. الخاتم يحترق على إصبعه مثل نجم بارد، والألم الأحمر يوجعه في معدته، والعاطفة تتفجّر في رأسه وقلبه: كلّ هذا أجّج في صدره جرأة كبيرة. قال لها بقسوة: 'تتكلّمين عن مستقبل يخصّني، على الرغم من أنّك سرقت ماضيّ. لماذا يترتب على ابني عمّي أنْ يتعلما أساليب البحيرة، التي قضت على كلّ ما كان يجب أنْ يكون لي؟'

ومَضت عينا السيّدة بغضب، ولكنْ كلّ ماقالته كان: 'لازلت طفلاً يا لانسلوت.'

تدفّقت فيه موجة وحشيّة عند سماع كلماتها، وقال مختنقاً في كلماته: 'لم أعد طفلاً! والديّ... ماتا... بسبب...'

قاطعته السيّدة متمّة عنه الكلام: 'ماتا، فالعواصف تهبّ؛ الناس تبني على رمال متحركة، ويبتلعهم البحر.'

'لكنّ مياه البحيرة ارتفعت أيضاً، و—'

'ليونيل وبورز هما اللذان قالا هذا لك. لكنّهما لا يعلمان

شيئاً. بل أقلّ من ذلك. لقد قصّ عليهما القصص أناس لا يعلمون شيئاً سوى الخوف وعدم الفهم. وكان الحال كذلك لمدّة طويلة. ولكنْ، وأخيراً، أزف الوقت الذي سيتصل فيه عالم البحيرة مع عالم الرجال من جديد؛ من خلالك أنت، وآخرين مثلك. نعم يا لانسلوت، كان هناك مدينة فوق الرمال مرّة؛ نعم، عائلتك كانت تعيش هناك؛ نعم، هبت عاصفة وأخذتها معها. نعم، أنقذناك وربّيناك في البحيرة. قمنا بذلك لأنّه توجّب علينا ذلك يا لانسلوت؛ لأنّك مطلوب، ومهمّ، في ما سيترتّب من مستقبل الأمور. ولم يكن بمتناولنا إحداث هذه العاصفة أو إيقافها.'

قال لانسلوت وهو شاحب شحوب الموت: 'ولماذا لم تنقذوا والديّ أيضاً؟'

وجه السيّدة المحبّب أصبح جامداً، وقالت بلطف: 'كان مجرّد إنقاذك أكثر ممّا كان باستطاعتنا فعله، يا ولدي المسكين. سحرنا قويّ لكنْ ليس ضد البحر. عرّضنا أنفسنا لخطر الزوال التام. بان وإلين ماتا قبل أنْ نصل لإنقاذك. لكنّ والدتك... كانت والدتك إلين هي التي ترجّتنا أنْ ننقذك. ألم تسمع صوتها، في حلمك عن العاصفة؟'

كان بإمكانه الآن أنْ يسمع صوتها، ويسمع كلماتها بوضوح. 'لانسلوت، لانسلوت،' قالت، وصرخت؛ ليس خوفاً، بل استنجاداً، بتوسل يائس، لإنقاذه. وجاءت سيّدة البحيرة.

حنى لانسلوت رأسه. وقال محطّماً: 'سامحيني، كان يجب أنْ أعرف، كلّ هذه السنين التي أمضيتها هنا، لا يمكن... لا يمكن أنْ يكون هذا المكان معقلاً للشر، والخيانة، والسحر الخبيث.'

قالت السيّدة: 'ولكنْ ما الذي يمنعك من الشكّ بنا؟ نحن لم نخبرك بشيء كلّ هذا الوقت. كان هذا لحمايتك. ولسوف تفهم يا لانسلوت سبب هذا في يوم من الأيّام.'

'أتمنّى...' قال لانسلوت، ثمّ توقّف عن الكلام. انتظرت

السيّدة، بشيء من اللهفة، كما تخيّل له بشكل مفاجئ غريب. لكنّ عائلة البحيرة ما كانت أبداً لتبدي لهفة أو قلقاً. 'يا سيّدتي،' تابع كلامه بسرعة، 'يا سيّدتي، قلتِ إنّني مهمّ، ولهذا كان يجب إنقاذي، مع أنّني في الواقع لا أفهم لماذا يجب أنْ يكون الأمر كذلك. ولكنْ بعد ذلك، هل كان...؟'

ابتسمت المرأة فجأة، وحملت ابتسامتها مزيجاً غريباً من الأسى والفرح. 'هل صنعت البحيرة لانسلوت من أجل الحبّ؟ هل هذا ما تريد أن تعرف؟'

'نعم،' قال ببساطة.

أجابت السيّدة: 'كان هذا من أجل الحبّ بحقّ. كنّا نعلم أنّنا سنخسرك. لكنّ الحبّ هديّتك. وهبتها لنا. لم نستطع رفضها.' وأضافت بضراوة: 'وما كنّا لنرفضها.'

حدّق لانسلوت إليها منهكاً. لم يعرف بعدُ طبيعته الخاصّة، وسحره الخاصّ. نظر نحو يده، حيث تألّق الخاتم، وهمس، 'شكراً. أنا... أنا... لا أجد أيّ—'

قالت السيّدة بصوت صار حادّاً مشرقاً فجأة: 'أعتقد أنّه ربّما لا زال الوقت مبكّراً على الراحة، اذهب واحضر ابني عمّك، خبّرهما أنّ مأدبة ستقام. من الأوْلى أنْ يبدءا التعلّم عن البحيرة.'

ابتسم لانسلوت وقال: 'لابدّ أنّهما مستيقظان تماماً يهمسان، أو أنّهما يحدّقان إلى الجدران خائفيْن.'

قالت السيّدة: 'لا يمكننا التأكّد في حال أطفال بني البشر. بمجرّد أنْ سحبناك من العاصفة غلب عليك النوم.'

للحظة طرق قلب لانسلوت مرّة أخرى، حين سقطت صور الماضي على مخيّلته، لكنّه قال بشبه ثبات: 'قالا إنّها أرض هباء، ذلك العالم فوق الماء، لكنّها ليست كذلك. إنّها مكان جميل، ولسوف يمتلئ يوماً بأصوات البشر أيضاً. سأبني قلعة هناك، يوماً ما، تخليداً لذكرى والديّ؛ وسأسمّيها بستان الصفاء.'

تجمّد وجه السيّدة من جديد. 'ذات يوم، ستفعل ذلك كلّه،

ياعزيزي لانسلوت. ولكنْ ليس الآن. الآن، ولسنة أخرى، أنت من البحيرة.'

'أنا من البحيرة!' وافق لانسلوت بسرور، وانطلق ليوقظ الصبيّين.

صوفي ماسون تكتب للكبار والصغار، في مجالات مختلفة، وبلغ عدد رواياتها أكثر من ثلاثين. وهي من مؤسّسي "رابطة آرثر الأستراليّة" ورئيسة لها، وتعنى بالكتابة عن أساطير هذا الملك، مثل كتابها "الطريق إلى كاميلوت".

نشر الأصل الإنكليزيّ لقصّة "شاطئ الأجانب" كما يلي.

Woggy Surf, by **Sophie Masson**, was published in *Memories of the Northern Beaches*, Warringah Shire Council Publications, 1995.

نُشر النصّ الإنكليزيّ لقصّة "لانسلوت" كما يلي.

Lancelot, by **Sophie Masson**, is from Masson's book, *The Road to Camelot*, that she edited. Published by Random House Australia, 2002.

كريس مانسل

يوجيني وطيور الكَرَوانْغ

كانت أحياناً تفكّر بالجبل، وأحياناً ما كانت تفكر بأيّ شيء. انتظرتْ أنْ تهبط عليها أنفاس الجبل البارد أحياناً. استمعت إلى انقضاض طيور الكروانغ التي كانت تزورها في الشتاء، وراودتها فكرة أنّ زيارة الطيور كانت مخصّصة لها وحدها، لكنّها كانت تعلم حقّ العلم أنّ هذه الجواثم كانت دائماً تزور الوادي في فصل الشتاء. ربّما كان الأمر متعلّقاً بوفرة الغذاء، أو ما إلى ذلك، لكنّها فضّلت فكرة أنّ الطيور كانت تأتي بشكل خاصّ لتزورها وحدها.

تعلم ذاتها حقّ المعرفة، وتعلم متى تصنع الأوهام. لم يقلقها هذا كما كان يقلقها من قبل. حاولت مرّة أنْ تفرض نوعاً من العقلانيّة على نفسها، لكنّها، في واقع الأمر، لم تكن تلك العقلانيّة محسوسة لديها. تعلّمت حيلة عدم القلق، وعدم تصنيف نفسها ضمن المجانين لمجرّد أنّ هذه الخواطر كانت تردها. كانت مجرّد خواطر على كلّ حال.

أمّا الأبناء فكان لهم رأي آخر. أرادها الأبناء أنْ تتّصف بالتعقّل، كما أرادوا أنْ يعترضوا، كما هي حال الأبناء في الاعتراض، على تصرّفات والديهم المسنيْن. قدّرت أنّه كان من الطبيعيّ أنْ يكون الإنسان شاكراً لما هو عليه من نعم، لكنّها لم تكن كذلك. كان الأبناء مصدراً للإزعاج الدائم، والآن صاروا كهولاً مزعجين يعتقدون أنّها، لمجرّد كبر سنها، فقدت عقلها بشكل دائم، وأنّ لهم الحقّ في التدخّل. يجب أنْ تكسر وركها نكاية بهم فقط.

طائر آخر ينقضّ هابطاً فوق العشب الأخضر الغضّ، وثالث. ينظرون إليها بعين واحدة مفتوحة كأنّهم يسألونها سؤالاً. تميل الطيور برؤوسها وكأنّها تستفسر: ماذا؟ ماذا؟ ما الذي قلتيه؟

لم تقل شيئاً لهم، لكنّها كانت تغنّي أحياناً. تلك كانت أغانٍ قديمة تعلّمتها حين كانت طفلة. أغانٍ ليس لها، عملياً، الحقّ في تذكّرها لشدّة قدمها. كانت قديمة حتّى حين تعلّمتها. كان عالماً آخر، وكانت شخصاً آخر تماماً، مع العلم أنّها كانت أحياناً تشعر أنّها لا زالت بنت عشر سنوات. إنّه الوقت الجميل! العاشرة عمرٌ لا تكونين فيه امرأة ولا طفلة، ولكنّ أطرافك قويّة ولا يهمّك أيّ أمر في الوجود. نعم، شعرت أنّها لم تتغيّر، لكنْ ليس لأنّ أطرافها قويّة، وهذا بالذات ما جعلها لا تهتمّ برأي الآخرين، أو أغلبهم، فيها.

كم كان غريباً إذن أنْ ترى هذا الوجه القديم ينظر إليها من سطوح النوافذ الزجاجيّة. لم تنظر في مرآة قطّ.

'يوجيني! يوجيني!' صوت كان يأتي من مكان ما في أعماق ذهنها. 'يوجيني!' من أعطى هؤلاء الأبناء الحقّ في مخاطبة والدتهم باسمها المجرّد؟ كان من الممكن أنْ تتحدّث إليهم بهذا الخصوص لو كان في ذلك جدوى، ولهذا لن تبحث القضيّة معهم. لن تردّ عليهم. سوف ترفض الردّ. لن تشعرهم أنّها سمعتهم. ستتظاهر أنّها صمّاء، ولن تدير رأسها نحوهم، ولا حتّى لتوبيخهم. ألف لعنة عليهم.

راقبت الطيور تراقبها. كان بإمكانها سماع تنفّسها، ومشاهدة وميض ضوء الصباح الباهت على مناقيرها المعقوفة. تمنّت لو أنّ بشرتها كانت بالوضوح ذاته. كانت تكره كيف يتراجع فمها باتجاه أسنانها، وكيف يتجعّد جلدها ويتساقط، وتكره نسيج يديها الذي صار يشبه الزواحف، وعنقها الذي تدلّى تحت ذقنها. كانت تعلم، كما حدّثت نفسها، أنّه لا بد من احترام تقدّم السنّ، وأكّدت ذلك لنفسها كثيراً. قالت للأخريات إنّهنّ تافهات وغبيّات

عندما يتشكين من أوراكهنّ المترهّلة، أو سيقانهنّ المتقوّسة الواهنة الضامرة كسيقان العجائز، ولكنّها ضمناً، كانت عظيمة الحزن والأسى بسبب هذه الأمور. أرادت أنْ تبقى الصبيّة التي كانت معظم حياتها. كرهت عجزها، وتفهّمت كبار السنّ الحمقى الذين كانوا يسعون للشباب الأبديّ. استغرقت زمناً طويلاً قبل أنْ تصل إلى فهم كلّ هذا، والآن بعد ما يبدو أنّها استطاعت الوصول إلى نتائج معيّنة، حان وقت الرحيل. لم تكن تعتقد بوجود مكان تذهب إليه، عدا نوع من الضياع الذي لا اسم له: مجرّد مادّة متّحدة مع الكون. بصراحة، لم يرق هذا لها. لم تجد أيّ معنى لدورانها مع كثير من ذرات النتروجين والكربون. ربّما كانت هذه مشكلتها. على كلّ حال، كان الأبناء مصدر انزعاجها هذا الصباح. لم يفهموا، وربّما لن يفهموا، أهمّية منقار الكروانغ المعقوف، والضوء الباهت الذي أسقطه على يوجيني.

'ماما! ماما! يوجيني! استيقظي! هذا أنا.' لكنْ لا فائدة. قال الأطباء لا فائدة. لقد انتهى الأمر. كنت معجبة بها جدّاً حين كنت صغيرة. قلبي يعتصر ألماً حين أراها الآن على هذا الوضع. فراغ، حتّى لكأنّه لم يكن هنالك من أحد خلف القناع. لا يوجد أحد هنالك معظم الوقت. أنادي وأنادي. ولا تحسبّن أنّ الأمر لا يهمّني، بل يهمّني جدّاً، لكنّ هذه العجوز المسكينة لا تدرك أنّ لدي أشياء أهمّ من أنْ أمكث طول النهار أتكلّم مع الفراغ. وأتساءل، فعلاً، فيما إذا كنت سأصبح مثلها في يوم من الأيّام. لا أريد لأولادي أنْ يتحمّلوا ذلك منّي، علماً أنّني أتحمّل منهم أكثر ممّا يجب. أكاد أفقد سيطرتي عليهم. لا بدّ من أن أطلب إلى رويس أن يكلّم هؤلاء الشياطين. الأولاد مدينون لنا بالاحترام، هذا ما تعلّمته ولا أجد أيّ أثر له في هذا الجيل على الأقل. حتماً لن يأتوا لزيارتي. لن يقفلوا جهاز التلفاز من أجلي، فلماذا أهتمّ؟ لا أعلم. قد يكون من الأسهل التحدّث إلى الحائط. لابدّ أنْ يفعل رويس شيئاً، عندها سيكون

اليوم الموعود. هذا ما يجب أنْ يفعله الآباء، نوع من القبضة الفولاذيّة. سئمت من كوني التي تقوم بذلك دائماً.

’ماما! إنها إيفلين! استيقظي.‘ صمّاء كالحجر أيضاً. ربّما هذا أفضل. سيجدونها جثّة هامدة في سريرها ذات صباح. هذا ما سيحدث، وهذه أفضل طريقة للذهاب، لا ألم، لا شيء يدعو للقلق. أستيقظ يوماً ما في مكان آخر، وهذا ما يكون. أمّا نحن، فسنكون الباقين. لا أعتقد أنّها أعطت الزهريّة التي عيني عليها لأحد. ربّما أخذتها سوزان، فهي دائماً جشعة. سأفتّش المكان بعد قليل لأتأكّد أنّ الزهريّة لا زالت هنا. نحن الذين لازلنا هنا سوف نتعذّب في الأيّام القادمة. كلّ الترتيبات أوّل ذي بدء، والفواتير، ولا أتصوّر أنّ سوزان ستشارك في الدفع. ألف لعنة، يبدو أنّني سأتكبّد تكاليف الجنازة كلّها وحدي. ولكنْ ما العمل؟ هل تتركين أمّك دون دفن؟ ربّما حرق الجثّة أقلّ تكلفة، ويشغل أقلّ مساحة ممّا تشغله مساحة القبر. حينما أرحل، ستكون المحرقة: سريعة، نظيفة، دون سفاسف، ولا سخافة البكاء. نعم أقول هذا، ولكنْ من يريده فعلاً؟ من يريد الرحيل والناس تستمع إلى أغان فرحة، وتطلق النكات في يوم جنازتك؟ لا أحد. الكلّ يريد أنْ تكون الناس بائسة جدّاً لرحيله، بل منكوبة، وغير قادرة على مواصلة العيش بدونه. تعلم أنّهم سيتخطون هذا الأمر. الكلّ يتخطّى هكذا أمور، ولكنْ، ليوم واحد فقط، من الروعة أنْ يفهم الجميع كم أنت رائعة، بالأحرى كم كنت رائعة. ربّما حرق الجثّة ليس بفكرة جيّدة. الجنازة، من التراب وإليه نعود، وما إلى ذلك من مراسم، أكثر شاعريّة، أكثر ملائمة، والدموع تنهار إلى الأرض.

لا زالت هناك، تنتظرني كي أموت دون شك، تريد شيئاً أو آخر. ألا ترى أنّني لا أريد الكلام، ولا أريد مناقشة أخرى معها حول أولادها البائسين، وشكواها حول زوجها الذي لا يقلّ تعاسة عن الأولاد؟ بالنسبة لي، بإمكانهم أنْ يسقطوا أمواتاً الواحد تلو الآخر، إذا لم

يتركوني وشأني. أريد التفكير. لم يتوفّر لي الوقت للتفكير. الآن هو الوقت الذي طالما أردته، وهو في متناول يدي، وبإمكانها الذهاب إلى غير رجعة. كانت دائماً طفلة ذات أنين. إذا تظاهرْتُ بالنوم ربّما تخرس. أتظاهر بالنوم، وأنّ لعابي يسيل قليلاً، فهذا ما سيجعلها تتركني.

استيقظت ذات صباح وكرهت أصوات الكروانغ.

كنت أعلم أنّه لو أُجبرت على سماعهم مرّة أخرى سأفقد عقلي، وهذا ليس مجازاً، بل أعني كلّ كلمة أقول: سأفقد عقلي. ستصيب عقلي فورة لا شفاء منها، تجعلني أفقد صلتي مع الأشياء كلّها. كرهت رائحة عشبة الفريزيّة، ولسعة أشجار الوتل الواهنة. أردت أنْ أكون في أيّ مكان إلاّ هنا: أنا، التي ابتهجت دائماً بأستراليّتي، بالأرض الشاسعة البنّيّة، بجمالها، وبطيور الكروانغ والعَقْعَق فيها.

انزاح العالم، فضللت مكاني. كلّ شيء آخر كان يغيب. سمعت صرير الأنسجة التي تنهار. كرهت الطيور، وسوادها، ومناقيرها الحادّة كالخناجر، وعينهم، ثمّ عينهم الأخرى.

تدفّقت طيور الكروانغ عبر الهواء وشعرت بالوحدة.

هذا ما يفعله الكروانغ بك.

حاولت أنْ أخبرها كيف ضغطت عليّ مناقير الكروانغ، وكيف كان بإمكاني سماع تمزّق الأنسجة، كيف انطلقت الألياف الضوئيّة الحادّة من عين الطير، وثقبت رئتي. لكنّها لم تسمعني.

كريس مانسل شاعرة وكاتبة مسرحيّة وكاتبة للأطفال وناشرة أستراليّة.

نشر الأصل الإنكليزيّ لقصّة "يوجيني وطيور الكروانغ" كما يلي.

Eugenie of the Currawongs, by **Chris Mansell**, was published in *Kalimat 19*, September 2004, Sydney.

أندرو مَكينا

تطويب مالك الفلانيّ

كان مالك الفلانيّ يتقنّص الملائكة حين أسقط الطائرة المروحيّة. موسم حافل بالأحداث الغريبة، فالرياح الشرقيّة نادراً ما توقفت خلال الشهور الماضية، والشمس كانت تختفي لساعات في بعض الأيّام؛ مالك وزينب لم يرياها لمدّة أسبوع كامل، كما أنّ الديكة ما توقّفت عن الصياح اعتقاداً منها أنّ الفجر مستمرّ إلى الأبد. سقطت نخلتان خارج فناء داره تحت وطأة غبار الصحراء الجنوبيّة الأحمر، الذي تراكم فوقهما كما ينطرح الشال على الأكتاف.

سمع مالك في قلبه أصوات الضباع تعوي خارج القرية، وهذا حدث نادر، فالضباع لم يُسمع لها في تلك الأصقاع صوت لسنين عديدة. وأصوات أخرى أتت إليه مع الريح: زئير ألف وحش كاسر فوق التلال؛ رنين عجيب كأنّه طرق مئات الحدّادين. لم يكن بإمكانه تسمية الأشياء بأسمائها. بدأ مالك يعتقد أنّ هوّة شُقت في الأرض، وأنّ مخلوقات جهنم بدأت تخرج منها، ولكأنّ إبليس ذاته انطلق يجوس خلسة في الحقول.

الأشكال المنجرفة مع رمل الصحراء كانت أشدّ غرابة؛ مخلوقات لايمكن تمييزها تمشي متثاقلة عبر الأفق، ومركبات لا تكاد تُلمح حتّى تذوب مع الريح. ما كاد يمشي في حقوله حتّى لمحهم بطرف عينه فانتصب شعر رقبته.

قالت له زوجته في ذلك اليوم الذي أسقط فيه المروحيّة:

’إذا أتوا هنا سوف نقاوم. سوف نقاوم حتّى إلى آخر الأموات في المقابر. ولسوف ينهضون من رقادهم ويساعدوننا على طردهم. سيساعدوننا على رمي الغزاة في البحر.‘

نظر إليها بحدّة حين كان صوت المؤذّن يرجع إليهما من الطرف الآخر للبلدة وقال: ’لا تتلفّظي بهذه السخافات. لا يمكن للأموات أنْ تنهض.‘

’لسوف تنهض الأموات، ولعلمك خبّرت العالم كلّه بذلك.‘

’ماذا؟‘

’عندما كنت في القرية الأسبوع الماضي كان هناك طاقم من المراسلين الأجانب يتحدّث إلى الناس. وضعوا أمامي الميكروفون وسألوني عن شعوري. استبدّ بي الغضب، ليسامحني الله. قلت للأجانب إنّ ذلك ما سيحدث. إنّ الموتى سيبعثون من جديد.‘

تفكّر مالك بكلام زينب مليّاً، وبعد صلاة الفجر صعد إلى عِلّيّة المنزل حيث يحتفظ ببندقيّته. وجدها ملفوفة بمنشفة قديمة، تماماً كما تركها منذ ثلاث سنوات، وجلس في جوّ العلّيّة المظلم العتيق. كان الجو يزداد حرارة، والريح تصفر، وكان يعلم أنّ لديه ما يقوم به في الخارج، لكنّ هذا كان أمراً ملحّاً. إذا تكلّمت زينب منذ أسبوع، فلم يبق الآن ما يمكن إضاعته من الوقت.

فكّ البندقيّة قطعة قطعة. كان الأمر سهلاً خلا بعض القرقعات الجافّة. اعتاد دائماً أنْ يزيّتها بعد الاستعمال، وعلى الرغم من جفاف الزيت وتحجّره في جو ما فوق المنزل، لا زال معدن البندقيّة في حالة جيدة.

نظّف وزيّت كلّ قطعة بدقّة متناهية مستعملاً قطعة قماش خضراء اللون، حاملاً عدسة مكبّرة، واهباً خالص عنايته. همْهَم بهدوء وهو يعمل. أعاد تركيب السلاح، وحمل وزنه المريح بين ذراعيه، ثمّ أخذ صندوق خراطيشه من على رفّ من الرفوف.

كان ذلك صندوقاً خشبيّاً استعمله جدّه في الحملة ضد البريطانيّين، تحسّسه فاستقوى بذلك الوزن الناعم بين يديه. عدّ الخراطيش (مئة وثلاث وسبعون، اعتبرها بشير خير)، وعاد نازلاً على السلم.

سبق أنْ غادرت زينب إلى عملها في القرية، فحمل بندقيّته ورفشه على كتفه، وأخذ كيسه القماشيّ، وفيه وجبة طعامه، ووضع فيه صندوق الخراطيش، وملأ قارورة ماء وغادر.

كان يوماً صحواً. الريح التي سمعها في عليّته اضمحلت، والجوّ كان ينذر بقدوم الصيف. غيمتان على شكْل حمامتين تجريان فوق رأسه، وهذا أيضاً ما اعتبره مالك الفلانيّ فأل خير.

مشى عبر الممرّ بين جدران القرية الطينيّة، مستظلاًّ بأشجار النخيل التي انتشرت على جوانب الحقول. ومع كلّ خطوة من خطواته كانت هبّات الغبار الأحمر تلطّخ حافّة ردائه. حين وصل إلى حقوله، جلس إلى حافّة الطريق. تناهت إليه الرائحة الحلوة للشعير المحصود وهو يحشو بندقيّته والخراطيش تنزلق إلى أماكنها بثقة.

وبمجرّد أنْ انتهى من إرجاع صندوق الذخيرة إلى كيسه، والتفكير بابنه وابنته، كان صديقه جعفر يدور في قمّة "تلة عجيب". يبيع جعفر القهوة للمصلّين الصباحيّين في المسجد، والسلال على ظهر الحمار كانت تصلصل وترنّ بعلبٍ وأكواب خزفيّة. رأى مالك جعفراً يقترب منه فوضع بندقيّته على الأرض.

معرفته بجعفر ترجع إلى أكثر من ثلاثين سنة، لكنّ تلك الأوقات كانت أوقاتاً عصيبة، وشعر مالك أنّ عليه الحذر فيما يتفوّه به، حتّى أمام الأصدقاء.

'صباح الخير،' قال مالك.

'السلام عليكم،' أجابه جعفر، ووجهه مغطّى بالعرق.

'هل كان صباحك جيّداً يا جعفر؟'

’كما هو متوقّع! يبقى كثير من الناس في المنزل، نظراً لما يجري.‘ ولوّح بذراعه بغموض نحو الجنوب.

ربط جعفر حماره إلى جذع شجرة في الظلّ إلى جانب مالك. العرق يبلّل صدره، والغبار الأحمر يغطّي صندله.

’لم هذه البندقيّة يا مالك؟ هل ستقوم بطرد الغزاة لوحدك؟‘

ظلّ مالك ساكتاً بضع لحظات ثمّ قال: ’هل لي أنْ أحظى بفنجان من قهوتك الممتازة؟‘

تنهّد جعفر، ووقف، ونقّب في سلاله. سكب فنجانين من السائل الأسود الكثيف من ترمس فولاذيّ مبعوج، وعاد ليستقرّ إلى جانب صديقه.

’آه،‘ قال وهو يتنشّق القهوة.

’الشرّ يهبط على بلادنا،‘ قال مالك وهو يتفرّس في نهاية الطريق.

أجابه جعفر وهو يهزّ كتفيه غير مبال: ’الشرّ دائماً يتربّص بنا، والأمر يعتمد فيما إذا أمكنك دفعه أم لا.‘

’زوجتي تخلق بعض الصعوبات.‘

ضحك جعفر ورشف قهوته وقال: ’وهل في هذا من جديد؟‘

خبّر مالك جعفراً بما قالته له زوجته ذلك الصباح. وحين كان يتكلّم، حطّ غرابان أسحمان قربهما على الطريق يلهثان تحت الشمس. اعتبر مالك هذا نذير شر. كان سوادهما من النوع المشعّ في وضح النهار المحيط بهما.

’لعلّك ترى ما أعنيه،‘ قال مالك حين انتهى من شرح ماقالته زينب له.

بقي جعفر صامتاً بضع لحظات، يراقب الغرابين.

’يالهما من طيران بشعان،‘ قال مالك.

لكنّ جعفراً ردّ عليه قائلاً: ’بما أنّ الله صنعهما، لابدّ أنْ

يكون فيهما منفعة للإنسان.' شخر مالك بامتعاض، ثمّ رشف بعدها قهوته.

سأله جعفر أخيراً: 'ماذا تنوي أنْ تفعل حيال ذلك؟'

'لديّ بندقيّتي. سأفعل ما أستطيع فعله فقط.'

'أنت تعلم أنّ كلّ الذي حصل منذ ثلاث سنوات كان مقدّراً من الله.'

ردّ مالك: 'أنا لست متأكّداً من ذلك الآن.'

'ثق بالله يا رجل،' قال جعفر.

'لكنْ اعقل جملك أوّلاً،' قال مالك بهدوء، ووضع يده على عقب بندقيّته.

بصق جعفر، وقلب فنجانه ليسقط تفل قهوته على الثرى، ونهض واقفاً.

رفع مالك الفنجان بيده للأعلى وناوله لجعفر، وعيناه نصف مغمضتين من وهج الشمس. لكنّ جعفراً طلب إليه أن يحتفظ بالفنجان، وقال: 'لم يجر بيننا هذا الحديث، وأنا لم أرك هذا الصباح. كان جديراً بي أنْ أمرّ بك وأتابع طريقي دون انزعاج. أمّا الآن فصرتُ منقبض الصدر. كأنّي بك تتلهّف لمصيبة ترتمي فوق رأسك.'

فكّ عقال حماره، وصفعه على ردفه، وانطلق في طريقه.

جلس مالك نصف ساعة في ظلال النخيل، يراقب الغرابين ينبشان في الثرى جيئة وذهاباً. كانت الغربان خلال السنة الماضية وبالاً على حقول شعيره وسمسمه، وسمّم كثيراً منها.

كان الصبيّ يعشق أخته غير الشقيقة منذ أيّامهما السابقة. حاول مالك منع ذلك بين اليانعيْن، وقال في قرارة نفسه إنّهما لابدّ سيتوقفان عن هذا العبث مع تقدّم الأيّام، ويتخلّيان عن جنونهما الطفوليّ. ولكنْ مع اضطراد نموّهما نمت العلاقة بينهما لحدّ

الجماع، وكان من أسفه الذي لا ينتهي أنّه اكتشف أمرهما.

صرخ في وجه الصبي: ’الله حرم هذه الانتهاكات، والإنسان أدانها.‘

كان شابّاً وسيماً لا يتجاوز الثامنة عشرة، مجتهد في دراسته، ينتظره مستقبل باهر في مهنة الطب. لكنْ حين جادله مالك، اكتفى بمجرّد الضحك.

قال له مالك: ’ستتلوّث سمعتنا إلى الأبد!‘

لكنّ هيامهما المتبادل لم يعرف الحدود. روحاهما استسلمتا لدعوات إبليس وتحريضه.

الحياة حلم، والموت يقظة. ما تبع ذلك كان يماثل حلماً رهيباً، ومع ذلك كان مالك ينتظر من يوقظه. كانت تلك مجموعة من أشدّ الأحلام السيئة تفاهة تتجمّع داخل رأسه كلّ ليلة، رعب جهنّم يزحف إليه ويقضم لحمه، لما شاهده وفعله قبل ثلاث سنوات. أمر شنيع لدرجة أنّه لا توجد كلمات تصفه. عزرائيل، ملاك الموت، يدير العالم بطريقة أو بأخرى، تماماً كما يدير البشر النقود في جيوبهم. كلّ ليلة كان يفيق متصبّباً بعرقه البارد.

كان مالك يعتبر أنّه لا يمكن حدوث شيء دون تدخّل الملائكة. حتّى أنّ كلّ قطرة مطر تهطل لها ملاكها الذي يرافقها. حتّى قطرة المطر هي مظهر من مظاهر الكينونة. فكّر بكلّ ذلك وهو يحمل بندقيّته ويتسلق السور نحو حقل شعيره المحصود حديثاً.

شعر أنّه كان محاطاً ببحر فسيح من الضوء الذهبيّ، حتّى لكأنّ الملائكة هبطت من عليائها. أدار وجهه للسماء الزرقاء متفحّصاً. كان يعلم أنّ الأمور تعاكسه، ولم يستطع رؤية شيء، ومع ذلك سدّد بندقيّته نحو السماء وبدأ يطلق.

عندما كان صوت أذان الظهر يرنّ في أذنيه، ونصف خراطيشه نفذت، جاءه الحظّ قبل الصلاة مباشرة. ولكأنّ الأرض زلزلت زلزالها، وزجاج الكون يتحطّم من حوله، رأى ملاكاً يحطّ

على كوكب الأرض في حقله هو، وعلى مسافة لا تزيد عن عشرين متراً من حيث كان يقف. ركض إليه، وقلبه يطرق في حلقه.

كان الملاك مكسوّاً بشعر من الزعفران من رأسه إلى أخمص قدميه. الدموع تنهمر من عينيه وتتحوّل مع سقوطها إلى وجوه ملائكيّة، رذاذات ضوء متوهّجة ترتفع في الجو وتحلّق بعيداً.

الحيرة واضحة على وجه الملاك، والغبار يغطّي ركبتيه ويديه بعد صدمة وقوعه. وقف مالك مذهولاً. شعر الملاك محبوك بضفائر طويلة. كان يرتدي ثوباً أحمر مطرّزاً بالأخضر، أما جناحاه فكانا من التوباز الأخضر توشيه حبّات من الزبرجد الأحمر. وجهه جميل كوردة، ويحيط بجبينه إكليل من الضوء عليه عبارة "لا إله إلا الله".

نظر مالك إلى الملاك بعينين نصف مغلقتين اتّقاء للضوء الذهبيّ الباهر الذي كان يشّع من الملاك، وقال له وهو يرتجف: 'أنا الذي اسقطتك.'

'لا، لم تكن أنت من أسقطني، بل لاقيت بعض الصعوبات مع كلّ هذا الغبار الذي يملأ الجوّ،' قال الملاك ساخطاً وهو يستدير بحدّة وكأنّه لم يره.

لكنّ مالكاً قال وهو يختلس النظر إلى السماء: 'لا يوجد كثير من الغبار اليوم.'

نظّف الملاك حنجرته وقال: 'على كلّ حال، أنت لم تصبني.'

'ما أصبتك؟'

'وهل كنت تحاول إصابتي؟'

'سامحني، فأنا فقير إلى رحمة الله. أنا فلاّح فقير. فقدت ولداي—'

'أعلم من أنت، وأعلم ماذا حلّ بك.' قال له الملاك وصبره بدأ ينفذ، ووقف ينفض الغبار عن ردائه.

'ما كنت أريد لولديّ الميّتين أنْ يبعثا من جديد. هذا كلّ

ما في الأمر.‘ نظر مالك إلى الملاك واكتشف أنّ واحداً من جناحيه كان مكسوراً. كان بإمكانه أنْ يرى رصاصة، واحدة من رصاصاته، وقد استقرّت بين الريش، وحولها الجلد مثقوب والريش ملطّخ بالدماء. الحافّة المثلّمة لعظمة مكسورة برزت بين الريش.

’بل أنا الذي أصابك، ليسامحني الله.‘ قال مالك وهو يرتجف.

’آه، أنت من فعل ذلك!‘ هتف الملاك، ثمّ حاول الوصول بيده إلى ريشه حيث الرصاصة، لكنّه لم يتمكن من الإمساك بها تماماً.

طلب من مالك مساعدته، فلبى مالك نداءه بلهفة، وأزال الرصاصة. كان ريش الملاك المنفوش برفق مع النسيم أشدّ نعومة ودفئاً في بهائه من زغب الإوز.

’ليسامحني الله،‘ قال مالك ثانية، وهو يقلّب الرصاصة بين أصابعه. أحسّ بسخونتها وشعر بعار شديد. اشتعل وجهه خجلاً.

أجابه الملاك: ’لا تزعج نفسك زيادة عن اللزوم. أنا أعتبر هذا من مخاطر المهنة. خصوصاً هذه الأيّام.‘ ثمّ هزّ كتفيه غير مبال، وتفحّص جناحيه استعداداً للإقلاع.

نظر مالك حيث كانت الرصاصة فوجد أنّ الجرح قد التأم، والعظام التحمت.

’ألتمس رحمتك،‘ قال مالك.

’لك ما تشاء. أنا رسول من عند الله، وهو الرحمن الرحيم. وكما تعلم، طبعاً، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.‘

’أعلم.‘

’إذن لا خلاف بيننا.‘

قال مالك: ’ما نويت الخلاف معك. أردت فقط أنْ أصارعك فألقيك أرضاً لأوقفك.‘

ضحك الملاك ومسّد ريش جناحيه، ثمّ قال: ’آه، الرجل

الكامل هو من يصارع الملاك الذي بداخله. هل أنت رجل كامل يا مالك الفلاني؟'

حدّق مالك إلى الأرض وقال: 'حاولت أنْ أكون كاملاً.'

'لكنّك لم تكن كذلك.'

'لا.'

رمقه الملاك بنظرة ثاقبة.

قال الملاك وهو يرتّب جناحيه ثانية، وينظر إليهما من فوق كتفيه: 'بإمكاني أنْ أحكم عليك بقسوة. بإمكاني أنْ أعاقبك. الأرض والرمال تحترق. ضع وجهك فوق الرمل المحترق على أرض الحقل. هيّا، الآن.'

أفلت مالك بندقيّته وطرح نفسه فوق الثرى متثاقلاً.

تابع الملاك قائلاً: 'كلّ أولئك المجروحين بالحبّ يجب أنْ تظهر الدمغة على وجوههم، فبنُدَبهم يُعرف الرجال الذين سلكوا طريق الحب.'

شعر مالك بالأرض تحترق في وجهه، وبدأ يجهش باكياً: 'ظننت أنّني كنت أفهم هذا العالم، لكنْ ما حدث لي كان سدى لدرجة أنّني لا أفقه منه شيئاً، وهو لعمري أمر خذل الحكمة والمعرفة.'

قال الملاك غير عابئ به: 'أشكر الله أنّه لم يكن إبليس أو عزرائيل من مرّ هنا. لو كان الأمر كذلك لما تركوك حيّاً، ولما كان أحد يمكنه إسعافك، ولا حتّى الله ذاته.'

نشر جناحيه.

'اِنتظر،' قال مالك وهو يقفز على قدميه. خدّه محروق ويبكي. 'قل لي—'

'ما تبغي لن تجد،' قال الملاك وهو ينطلق. 'عندما خلقك الله جعل الموت نصيبك. أنت وبني جنسك.'

'ماذا يمكنني أنْ أفعل؟' صاح مالك حينما كان الملاك يرتفع أكثر.

'تفعل؟' نادى الملاك ووجهه يتجعد انذهالاً.

'نعم،' صاح مالك. 'ماذا يجب أنْ أفعل؟'

هزّ الملاك كتفيه استهجاناً وقال: 'ليكن كلّ يوم من أيّامك مليئاً بالبهجة. أحبّ الطفل الذي يمسك يدك. دع زوجتك تستمتع بعناقك لها. هذه وحدها اهتمامات الإنسانيّة.'

وصعد الملاك للأعلى إلى أنْ اختفى في كبد السماء. غمر الحزن مالكاً الذي وقف في حقله يجهش بالبكاء. تذكّر رعب تلك الليلة منذ ثلاث سنوات حين أرغم ابنه وابنته على الذهاب معه خارج القرية تحت تهديد السلاح، ثمّ تحول كلّ شيء عكس ما يشتهي. تذكّر صراعه مع بندقيّته، وومضات الضوء في وسط الليل، والدم على يديه.

'ما الخطب يا أبي؟'

فتح عينيه ونظر للأسفل. كان يمسك بيدي طفلين صغيرين، فلذتي كبده صفاء ورياض. حدّق الطفلان إليه بعيون عسليّة واسعة، مرعوبة من بكاء والدهما. ركع في الحقل وضمهما إلى صدره.

'يا ولداي،' قال، وقفزا إلى حضنه.

'ما الذي حلّ بوجهك؟' سألته صفاء، واضعة يدها فوق الجلد المحروق.

'درس تعلمته،' قال، وعانق طفليه. حمل بندقيّته وتفحّص في الحقل. طائرة مروحيّة أميركيّة كانت جاثمة على بعد أقل من ثلاثين متراً، ومقدّمها غارس في الوحل، تحيط بها غمامة كثيفة من الغبار. طيّاران كانا يتدافعان بعصبيّة للخروج من القمرة. سدّد بندقيّته نحوهما. كان بإمكانه رؤية الطيّار بوضوح، والشعار على سترته، وللحظة قبل أنْ يضغط على الزناد، رفع الماسورة نحو السماء. طلقة دوّت في الفضاء. قفز الرجلان المذعوران خارجاً، وركضا باتجاه غيضة أشجار النخيل في حقل سليم الحموري.

هوى غراب من السماء، اخترقت رصاصة من رصاصات مالك صدره. ضحك مالك، وأمسك بيدي طفليه، ومشى إلى البيت.

أندرو مكينا كاتب وصحافيّ. نشر الأصل الإنكليزيّ لقصّة "تطويب مالك الفلانيّ" كما يلي.
The Beatification of Malik al-Fulani, by **Andrew McKenna**, was published in *Kalimat 15*, September 2003, Sydney.

جين ل. مونير

أفكار على القماش

بالإضافة لكونها صيّادة أرانب، كان حبّها الأوّل رجل حوالات نقديّة. وهو صديق لوالدها شأنه شأن كلّ الرجال الذين يشغلون دائرة معارفها، وكان معروفاً باسم جيمي فيذرز.

طبعاً لم يكن هذا اسمه الحقيقيّ، فرجال الحوالات نادراً ما استخدموا أسماءهم الحقيقيّة. بعضهم قال إنّ اسمه جايمس فيذرستون-بيو، وقال آخرون إنّه جايمس فيذرستون-بيرسي. 'واحد من البيرسيّين الحقيقيّين، كما تعلمون.' الجميع اتّفق على أنّه الابن الأصغر لابن أصغر، وطبعاً كان معلوماً تماماً كيف انتهت حالة عدد لا يستهان به منهم— فالتعويض لمن يذهب إلى أستراليا، مع وعد دفعات فصليّة لا تنقطع حتّى الممات، أراح العائلة من بعض ارتباكها الماليّ.

قدّم لها قلم رصاص برأس ضاغط، عليه الحروف الأولى من اسمها، واعتقدت أنّه من ذهب. كانت جنيفر فرانسيس بارك لم تكمل بعد خمس سنوات من عمرها. عند فتل رأس القلم يمكنك إظهار الرصاصة، جاهزة للكتابة. وحين تكبس وتفتل من جديد، تجد خزّاناً للرصاصات يمكن استعمالها حين تتبدّد السابقة. قالت أمّها إنها أعجبت بالهديّة إعجاب والدها بمحرّك سيارته الجديدة من ماركة "موريس كاولي".

وهكذا بدأت تخطّ وتتدرّب على كتابة الأرقام، مستخدمة أوراق فواتير وجدتها الخادمة مرميّة في مقلب القمامة، مطبوع

عليها عبارة "جون روبرستون، تجارة عامّة وأدوات معدنيّة". وتحت هذا العنوان خطوط وأعمدة قيل لها إنّها ستكون مفيدة حين تتعلم الجمع الحسابيّ.

علّق والدها بقوله إن جاك روبرستون الأب كان طموحاً— خمسة مواعين من الورق لخمسة شهور من التجارة. ياللخسارة.

تدرّبت بادئ ذي بدء على الرقم ثمانية. قالت لها والدتها أثناء حضورهما لعبة الكرة أنْ تراقب اللعب عن كثب. أنْ تراقب والدها الذي لم يكن بطول الآخرين، والذي يحمل الرقم 8 على قميصه، ويلعب كطوّاف. 'يمكنه اللعب في كلّ أنحاء الملعب، ولذلك راقبي جيّداً.' حسناً، كان هذا والدها بالتمام والكمال، قصيراً مغروراً. يقحم نفسه في كلّ شيء وفي كلّ مكان. الرقم ثمانية سهل؛ بيّنت لها والدتها. دائرة صغيرة فوق أخرى. مجرّد أنْ تخطّيهما تحصلين على الرقم. أما صَقْل الموهبة فيأتي لاحقاً.

إذاً ما هو رقم عمّك هاري؟ أحد عشر؟ هذا سهل جدّاً، خطّان مستقيمان فقط. وجيمي فيذرز؟ سبعة، جرّة قلم مستقيمة، وأخرى صغيرة إلى اليسار في الأعلى، هكذا.

'رقم الشيطان،' قال والدها، مثبّتاً عينيه على عيني والدتها مضايقاً.

قال العمّ هاري: 'يحسن بك أنْ تجعليها تبدأ من البداية.'

وهكذا بدأتا من جديد، هذه المرّة من الرقم واحد، فتعلّمت الأرقام إلى العشرين. وتعلّمت من يلعب وأين يلعب، وكيف تعرف الوقت من ساعة الحائط.

وتقدّمت ثقافتها تقدّماً ملحوظاً، مع وجود عدد كبير من سكّان المنزل، وعدد أكبر من الزوّار قادمين مغادرين، كلّ يساهم بتقديم جزء من المعرفة هنا وجزء هناك. كانت تتعلّم أكثر ممّا يمكن أنْ يتوفّر لها في المدرسة النظاميّة، قال والداها واحدهما للآخر. واستطاعت كتابة كلّ شيء تعلّمته، وأنْ ترسم الزهور البريّة التي كانت تجمعها مع "كوني"، الخادمة الإنكليزيّة، كونستانس،

التي حضرت مع حمولة سفينة من الشابّات العازمات على إيجاد عمل – وعلى أزواج – في المستعمرات. ما سبق لأحد أنْ أخبرهنّ أنّ الكساد الاقتصاديّ اكتسح أرجاء المعمورة، وأنّه من شبه المستحيل إيجاد عمل في المدن. وهكذا جاءت الشابّة من مانشستر إلى "ماللي"، وهي لا تزال في مرحلة اكتساب الخبرة. ومن أهمّ الأمور، أنْ لا تذكر "المستعمرات"، بحقّ السماء. أولم تكن أستراليا عندها قد أمضت ثلاثين سنة بعد إعلان الفيدراليّة؟

كان من المفترض أنْ تتسلّم كوني الأعمال المنزليّة من الأمّ التي كانت تدير المتجر، تبيع الخبز والكعك، وأحياناً تساعد في المخبز – بواسطة تزيين الكعك والأرغفة التي يتمّ تناولها مع الشاي. ذلك حين لا يكون الجوّ شديد الحرارة. لكنّ الوالد والعمّ هاري، مهما كانت حالة الجو، كانا يعجنان ويمزجان مختلف الخلائط التي تصير فطائر و"إكلير" و"بيتي فور".

سبق أنْ بُني المخبز أوّلاً. بدا على أنّه كبير وبارد. في إحدى نهايتيه تربّع الفرن، وفي النهاية الأخرى مناضد من خشب الصنوبر المفروك، فيها أحواض خشبيّة يتمّ فيها عجن الخبز وتركه حتّى ينتفخ. ولكنْ حين يتمّ إشعال الأتون، إلى يمين تلك الفوهة القرميديّة الضخمة التي كانت تشكّل الفرن، يصبح كلّ شيء غير محتمل. عندها يطلب إلى جينفر أنْ تبقى بعيدة، لا تتخطّى عتبة المخبز.

كان جيمي فيذرز يقوم أحياناً بقطع الجذوع من كومة الحطب في الفناء. كان يفرك يديه، وحين كانت ترقبه بقلق، كان يضحك ويخبرها أنّه كان يجمع صلابة فوق صلابته.

قال والدها إن هذا كلّه مفاجأة، لكنّ جيمي لم يكن ممّن يتشكّون. أمّا ما قام به في بلده فيخصّه وحده، ولا دخل لأحد فيه.

كان جيمي يعتني بالخزّان تحت الأرض أيضاً. يتأكّد أنّ ماء المطر يصل للأسفل؛ يتحرّى المستوى ويتأكّد أنّ الغطاء لم يتحرّك بفعل الرياح. الخزّان، أيضاً، كان كهفاً مسحوراً.

كانت جينفر تعتقد أنّ وحشاً مائيّاً يعيش هناك، وأنّه سوف يصعد إلى السطح يوماً ويخور. أو تعتقد أنّ الوحش لن يظهر أبداً، بل تنزلق هي نحو الأعماق التي تمتصّها مصّاً دون أنْ يراها أحد بعد ذلك قطّ. ترتجف.

حين رأى جيمي رجفانها أمسك بذراعيها، 'تماسكي يا صبيّة، ما هذا الذي ألمّ بك؟' أخذها على محمل الجد، 'وحوش مائيّة؟ لا، لا يمكن أنْ تتواجد في خزّان مخبز في ماللي. تعيش في جداول وأنهار الأرياف المرتفعة. هناك في مناطق بوغونغ وبوفالو – تلك بلاد الوحوش المائيّة.'

صدّقته، وذهبت تراقب كوني تضرب السجّاد المعلّق على حبال الغسيل. مع بداية كلّ فصل تظهر السجادات، على النحو الذي تظهر فيه الأصناف الجديدة من الأزهار البريّة فجأة عند حلول الفصل الجديد.

بحثت هي وكوني عن الأزهار البريّة واستطاعتا العثور عليها. وأراها جيمي كيف تجفّفها وتصنّفها. دعاها "مجموعتها الأولى"، وحدّثها عن مجموعته من الطوابع البريديّة التي يحفظها في ألبوم في صندوقه البحريّ، وأنّه سيريها لها في يوم من الأيّام.

سبق لجينفر أنْ شاهدت صندوقه البحريّ، حين أخذت هي وكوني طائر "غالاه" مكسور الجناح إلى خيمته. جبّر الجناح ووضع الطائر في قفص موقّت. أكدّ لهما أنّ الأمر محزن، لكنْ كلّما خفّت حركة الطائر كلّما تسارع شفاؤه.

وقتها غضبت الأمّ غضباً شديداً: 'يجب أنْ لا تذهبا هناك مرّة ثانية. هذا أمر غير مستحب.'

شعرت الأمّ أنّها كانت مسؤولة عن كوني، وكانت تلاحقها بقبّعات بيض منشّاة لتقيها من الشمس؛ بالطريقة نفسها التي كانت تلاحق بها جينفر. هذه الأمّ غير مستعدة لتكرار ما كان يحصل لزوجات سائقي الماشية[4] الأنكلوكيلتيات اللواتي كانت

[4] هنا اقتباس من قصّة هنري لوسون القصيرة "زوجة سائق الماشية".

بشراتهنّ تتحمّص تحت الشمس الأستراليّة فتصبح كالجلد. كانت تؤمن باتّخاذ الحيطة، ولايجب على الفتيات اللطيفات الاقتراب من مخيّمات صيادي الأرانب في أيّ حال من الأحوال.

سبق لجنيفر أنْ دُهشت لأناقة المخيّم. سرير مصنوع من ستة أغصان متشعّبة مغروسة في الأرض، والشعاب تحمل عمودين يخترقان أكياس طحين فارغة. الأغطية انتشرت فوق ما يشبه فراش القشّ فوق الأكياس، والصندوق البحريّ جُعل طاولة إلى جانب السرير. تدلّى من عمودي الخيمة قنديل ورفّ كتب. نجد في الخارج منضدة مصنوعة من فروع شجيرات يافعة، فيها حوض للغسيل وأدوات حلاقة. وعلى منضدة أخرى نجد أطباقاً وخزنة "كولغاردي"[5]. رماد النار الصباحيّة بارد بين حجرين كبيرين.

ترك هذا في نفسها أعظم الأثر فصنعت نسخة مطابقة عن المخيم في حديقة الدار. التمست من والدها الحصول على أكياس طحين، فجعلت منها خيمة، ووضعت فيها أثاثاً صنعته من كومة الأخشاب. أرادت النوم هناك ليلاً؛ وغضبت كثيراً حين مانع والداها.

صائد الأرانب المدعو "تيد" معجب بـ"كوني"، على حدّ قول عمّها، لكنّ والدتها نفت ذلك قائلة: ’كوني ليس لها أيّ رغبة في تيد. لا، على الإطلاق.‘ ولهذا كان من الممكن لكلّ من جينيفر وكوني الذهاب مع تيد إلى حيث مصائده ليلاً.

قال العمّ هاري: ’لا زالت صغيرة لتلعب دور الوصيفة.‘

’حسناً، لا يمكن لأيّ رجل شريف أنْ يستغل كوني حين توجد معهما بنت صغيرة. كما أنّ هذا يبعدهما عن جيمي فيذرز. يمكن أنْ يقعا في عدد من المآزق مع هذا الشخص.‘

لكنّ العمّ هاري قال: ’كفاك يا إيمي. يريدني أنا أنْ أزور مخيّمه. يدعوني للطعام على حدّ قوله.‘ توقّف حين رأى جينيفر

---

[5] خزنة تمّ اختراعها في مناجم الذهب المعروفة بـ"كولغاردي"، من صوانٍ معدنيّة محاطة بخيش يرطّب بالماء لحفظ الطعام بارداً بداخلها.

تحدّق إلى الواحد تلو الآخر على طريقتها.

وهكذا، بعد العشاء في الليالي المنعشة، حين تكون السماء سوداء كالحبر، وآلاف النجوم تسطع مطلّة عليهما، كانتا تتمشّيان حول مصائد تيد. لكلّ مربّي أرانب حدوده الخاصّة التي لا يتعدّى أحد عليها.

أدارت جينيفر رأسها حين كانت الأرانب تُقتل. حاولت أنْ لا تستمع إلى صرخاتها. ما كانت ترغب في النظر إلى الطريقة التي عُلّقت بها متدلّية من حزام تيد، أو الكومة التي وُضعت فيها بانتظار سلخها في الصباح التالي. يبدو أنّ الأمّ نسيت أنّ مخيّم تيد كان وسط هذه الدائرة من المصائد. كما يبدو أنّها نسيت الجوانب العمليّة لصيد الأرانب.

كانت الأمّ غريبة الأطوار بالنسبة لحيوانات المزارع أيضاً. كانت بصحبة جينيفر عند آل جانزن في عصر يوم من الأيّام، حين العلجوم... ركّز نفسه فوق ظهر "غريسيلدا"، البطّة الأليفة المسكينة، خافق الجناحين، ضاجّاً طاحناً...

سبق أنْ نادى هيرب جانزن أخاه الأصغر قائلاً: 'يا بيتر، تعال وراقب رومبيل "يجدّف" غريسيلدا.'

أرادت جينيفر أنْ تشاهد أيضاً، لكنّ أمّها أشارت، 'تعالي بسرعة يا جينيفر، إلى الداخل.' تبعتها جينيفر محتارة.

وفي مرّة أخرى، بعد عشاء عيد الميلاد في حديقة آل ميلور، حصلت معركة حامية الوطيس، حين لم يستطع الثور الأبيض كبح شهوته فركب جيرسي، البقرة الصغيرة المدلّلة. كسرت تلك الحادثة سحر ذلك الوقت الناعس المخصّص للهضم والراحة، فالرجال تهيجوا واندفعوا لمساعدة العجلة الصغيرة. والأمّ، تفْرِق منادية: 'جينيفر... هيّا إلى الداخل،' والسيّدة ميلور رمقتها بنظرة حادّة قاسية ودمدمت، 'ياله من موقف!'

انتشر البناء حول المخبز. أضيفت شرفة إلى المنزل، وبُني متجر آخر إلى جانب الأوّل. تمّ تأجير المتجر الثاني للحّام

أيّام القطار؛ وفي تلك الأيّام أيضاً، أقام فاكهانيّ أمهق كشك فاكهته وخضاره على الشرفة الجديدة.

الأمهق أثار قلق جينيفر. تلك العيون الزهريّة اللون. أكّد لها والدها: 'لا خوف منه، يمكنه الرؤية في الظلام. المشكلة حين يقود سيارته في الليل دون إضاءة المصابيح الأماميّة، لكنْ لا بأس عليه.'

كانت الشرفة مفيدة بشكل خاصّ في أمسيات أيّام السبت. عندها تتحول إلى غرفة انتظار. والدها كان معروفاً على أنّه أفضل من يقوم بالاسعاف الأوّليّ في المنطقة التي لم يكن يتوفّر فيها أيّ طبيب إلاّ لعدّة أميال. بعد مباراة الكرة، التي كانت تتمّ في ملاعب خالية من العشب، تتوافد الإصابات، ويقوم والدها بالتعقيم والتضميد والتركيز والتجبير. وكان الرجال الذين يُحضرون زملاءهم إلى أبيها يشعلون النار ويغلون الماء. كانوا أيضاً يضيفون شيئاً للشاي. شيء يحضرونه من معمل التقطير الواقع خلف كثبان الرمل، قريباً من الدرب المؤدّية إلى حارة "أولدمن بيرسون". كانوا أحياناً يعربدون لساعات طويلة. وسرت إشاعة أنّ الشراب هو ما جلب جيمي إلى أستراليا، على الرغم من عدم مشاركته الآخرين في الشرب. ولذلك، حين احتاج تيد تجبير كاحله ذات ليلة، واعتقد الرجال أنّ المسكين لن يستطيع التجول بين مصائده، تبرّع جيمي بالذهاب لتفقد المكان عوضاً عنه. ولمّا كانت الأمّ مشغولة، لم تلحظ أنّ جينيفر وكوني ذهبتا معه.

كانت الليلة مختلفة. كلّ واحدة منهما أمسكت بيد من يدي جيمي. لكنّ النجوم كانت هناك، كبيرة، والدرب مألوفة. غنّوا أغانيَ كان جيمي يغنّيها فقط، وألقى قصيدة طويلة حول قاطع طريق، وتساءلت جينيفر عن الجريمة التي جاءت بجيمي من أقاصي الأرض.

كانت الليلة مختلفة أيضاً، بطرق أخرى. اعتاد تيد أنْ يترك الأرانب خارج الخيمة تماماً. يتركها نظيفة جاهزة للسلخ في

الصباح، ثمّ يعيد البنتين إلى المنزل بسرعة. بسرعة، حتّى كأنّه هو الآخر، مثل الأمّ، خائف من قرب الخيمة، من خصوصيّتها ومن مودّتها.

ترك جيمي الأرانب على مسافة واضحة، وأشعل النار التي أعدّها تيد ذلك الصباح. وضع ماء في الغلاّية ونفخ غليونه بينما كانوا ينتظرون. ثمّ شربوا الشاي، يستحسنون رؤية النجوم، التي بدورها نظرت إليهم من الأعالي، مضيئة من السماء الداكنة السواد.

نامت جينيفر حالاً بعد ذلك.

ضجّة أيقظتها، ووجدت معطف جيمي التويد القديم ملفوفاً حولها، وبعض الملابس التي كان تيد يخزنها في كيس سكّر قديم تحت رأسها كوسادة. النار تدخّن دون لهب، لكنّ القنديل لا زالت ناره تخفق في الخيمة.

نعسانة، راقبت الخفقان متأمّلة أنْ تعاود سماع تلك الضجّة التي أزعجتها. ثمّ جاء من الخيمة أنين ضئيل، وصوت كأنّه نشر الحطب بالحطب، شجيرة ضد شجيرة. وتعاظم حجم الظلال على جدران القماش. تذكّرت الثور الأبيض مع العجلة الصغيرة، والعلجوم مع غريسيلدا. عكست الظلال ضراوة الاهتياج. كانت الأصوات بدائيّة لكنّها فرحة— أصوات ذات إيماءة. على عكس الأصوات المنّفرة التي تشبه مواء الأرانب الموجوعة. لكنّها كانت تعلم أنّه من المفروض عليها أنْ لا تسمع الأصوات القادمة من الخيمة، وأنْ لا تكون جزءاً من الحميميّة داخلها، لهذا استدارت وتظاهرت بالنوم.

عندما خرجا من الخيمة، التقطها جيمي لكنّها قاومته وطلبت أنْ يتركها. أوليست ذات الخمس سنوات وجاهزة للذهاب إلى المدرسة؟ لم تعد طفلة، ولتثبت ذلك، نطقت بكلمات والدها المحرّمة وقالت: 'يا تافه.'

باقترابهم من المخبز كان بإمكانها رؤية أنّ الرجال

غادروا الشرفة. كانت مسرورة لمغادرتهم، وسعيدة أنْ ترى والديها عبر النافذة المضيئة وهما يرتّبان المكان.

وعلى الرغم من عدم تمكّنها من وصف الأمر بالكلمات، عرفت لأوّل مرّة نوعاً جديداً من الخشية. خوف لم يسبق له وجود من قبل، وركضت نحو الضوء ووالدها، وبعيداً عن جيمي، حبّها.

جين ل. مونيير (1927-2013) كاتبة من "ألبيري" في ولاية نيو ساوث ويلز الأستراليّة، وهي خرّيجة علم نفس وآداب. مارست تدريس الكتابة الخلاّقة والآداب، ونشرت عدداً من الموادّ الأدبيّة، ونالت جوائز على بعض قصصها القصيرة. ربحت هذه القصّة الجائزة الأولى مناصفة في حفل جوائز حاكم ولاية فيكتوريا للقصّة القصيرة عام 1986، ونشر نصّها الإنكليزيّ الأصلي كما يلي.

Reflections on Canvas, by **Jean L. Menere**, was published in *The Art of the Story*, ABC 1989.

بام هارفي

رَسائلُ إليْهَا

ذكّرتها السماء الخريفيّة ببلدتها. زرقاء، دون غيوم. لكنّ هذا اليوم كان استثناءً، كذبة فوق العادة. فالسموات في تلك البلدة الصغيرة كانت دائما زرقاء. أمّا هنا، وخصوصاً الآن، كان كلّ شيء رمادياً.

نشَرتْ وجبة غسيلها البسيطة، بينما القطّة تلتف بإصرار حول ساقيها. زوجان من الملابس الداخليّة، تنورة تحتيّة، وبضعة جوارب نسائيّة سمراء اللون، تحوي ثقوبا تمّ رتقها باتقان. ثرثرة المذياع من الداخل. رَشَحتْ المقطوعات الموسيقيّة إلى الفناء الخلفيّ، غير مُمَيّزة أحياناً عن قعقعة تُرام "برايتون". ما عاد وقع الأشياء كما كان، أم لعلّه صار لكلّ الأشياء الوقع نفسه؟ ما كانت متأكّدة أيّ الأمرين هو الصحيح.

حوت سلّة الغسيل جورباً رجاليّاً واحداً. بقي في السلّة منذ أنْ غادر زوجها. أقلقها هذا الأمر. أين الجورب الآخر فيكتمل الزوجان؟ هل أخذه معه في الكيس الذي أعطوه إياه؟ يالها من لقية مخيّبة للأمل سيلقاها في الليالي الباردة، حين يضطجع الرجال الآخرون يرتدي كلّ منهم فردتين فوق كلّ قدم، بينما ستكون إحدى قدميه بجورب واحد فقط. تركت الجورب في سلّة القصب، وشعرت بالرعب وهي تثبّت جواربها على حبل الغسيل.

غادر هو أوّلاً، قبل ولديهما. كان حازماً في هذا الأمر، لكنْ ما كان له خيار. كانت متأكّدة أنّه شعر أنّه لو ذهب هو لكان من الممكن لولديهما البقاء. تأثّر الولدان كثيراً لذهابه، فما صار على

بعد ألف ميل إلاّ والتحقا هما أيضاً. خلال شهر صارت هي وحيدة، فقط القطّة وهي، تتجوّلان في هذا البيت المتردّد الأصداء، في المطبخ، في الصالون، جيئة وذهاباً في الردهة. تركَت بابيْ غرفتي الصَبيَّين مغلقين، لكنّها ما استطاعت إغلاق باب غرفتها.

كانت تجد نفسها أحياناً في الليل على جانب زوجها من الفراش، تشعر بالعزلة التي شعر بها تجاهها. أرعبتها ظلال الغرفة. سمحت للقطّة أنْ تنام ملتفّة خلف ركبتها.

عملت في دكّان سمّان أثناء النهار، فالسمّان ذهب إلى الحرب أيضاً. جُرِّد الشارع كلّه من الرجال. السيّدة هاريس، والسيّدة بَنكل، والسيّدة شيرينغهام اجتمعن خارج دكّان اللحّام (مغلق، الآن) في الصباح الباكر للتحدّث عن العمل والجزر والحليب. لبسن بحذر ستراتهنّ الصوفيّة البنّيّة اللون، ولم يزيّنّ وجوههنّ بالمساحيق. مرّت مركبة أو اثنتين فرشّتا ماءً على الممرّ، وعلى أحذية النسوة الغامقة الأنيقة.

لمّعَت التفاح، وراقبت النسوة يتكلّمن، معجبة بأيديهنّ المطويّة، واكتافهنّ المحشوّة. وسمعتهنّ يهمسن بأنّهنّ نسين تفاصيل وجوه رجالهنّ، وأنّ صوَرَهم كانت مثل الصدمات غير المألوفة، صوراً للأقرباء الأقربين. سمعت الشعور بالذنب في أصواتهنّ. لماذا أستطيع أنا أنْ أتذكّر كلّ تفاصيل ملامحه، منقوشة كصورة المسيح في ذهني؟ كان بإمكانها، أيضاً، رؤية ولديها في مراحل نموّهما: رأتهما بألبستهما، وروعتهما، يلوّحان لها وداعاً، ويغلقان لها البوّابة الأماميّة، فيما كانت تقف أمام الباب، واستمرّت واقفة لمدّة نصف ساعة بعد ذهابهما، وعيناها جافّتان جفاف قناة مكسوّة بالحصى في فصل الصيف.

ما كان الزبائن من المداومين على دكّان السمّان، وكانوا يسلّمون بطاقاتهم التموينيّة بتفحّص فيه كثير من الارتباك، يتحرّون أمر البطاطا دون أنْ يعيدوا أيّ واحدة سبق لهم التقاطها. عاداتهم سيطرت على حركاتهم. رأتهم يتوقّفون حين يكتشفون

العفن الأسود، يرتجفون بإيماءاتهم التي تُظهر رفضهم، ثمّ يستسلمون للأمر الواقع، واضعين الخضار، التي صارت على شكل الحلوى الإسفنجيّة، برقّة في سلالهم. تبسّمت لهم حين غادروا، وللحظة كان القلق يغادر وجوههم. ثمّ عادوا إلى الرصيف المتشقّق.

حضر السيّد دَفي إلى دكّان السمّان صباح يوم إثنين في منتصف الشتاء. رأته النسوة الواقفات خارجاً، وراقبنه كما يراقبن معرضاً للصور، ثمّ انصرفن. كان السيّد دَفي يرتدي معطفا قاتم اللون، ومنديلاً ناعماً أزرق انتفخ حول عنقه.

اعتقدت أنّه كان على درجة عالية من السعادة لوجوده هنا، في برايتون، في دكّان السمّان. سأل عن سعر البندوره، ونظر مباشرة في عينيها. شعرت أنّه ما كان يجب عليه أنْ يكون هنا، حتماً ليس في الدكّان، ولا حتّى في أستراليا. حين ذهب، تنهّدت السيّدة هاريس، وربتت على كتفها كما لو كانت تواسي نفسها.

تذكّرت عينيه.

أفاقت في الليل على ظلال السيّد دَفي، وعلى معطفه يتدلى من خزانة خشب الأرز. نهضت، والقطّة خرخرت، وكان المعطف مجرّد طرح آخر في الردهة التي حوت بابين أسودين موصدين على غرفتي ابنيها.

عاد السيّد دَفي إلى دكّان السمّان. لم يكن في شرائه البازلاء والفاصولياء ما يشكّل أذى، ولهذا بقيت السيّدة هاريس والبائعات الأخريات خارج محلّ اللحّام، والتفتن باتجاهه لكنْ لم يسرعن، ولم يرمين أكتافهنّ للخلف هلعاً.

وزنت الخضار خلف المنضدة وتمعّنت في يديه. ابتسم لها، مرحاً، ودعاها "عزيزتي" و"بطّتي" بلهجة ذات صوت أجشّ. ربت على يدها مرّة، مؤكّداً على قصّة رواها. لكنّها نادراً ما تكلّمت معه، أعطته رجيعة نقوده، وردّت على سؤال، لكنّه لم يتأذّ من هذا، ولم يطلب المزيد. رأته يغادر رافعاً قبّة معطفه، وداسّاً

خضاره تحت ذراعه. أصبح النهار ساكناً.

نادته "السيّد دَفي" بسبب معطفه، لكنّ السيّدة هاريس ما كانت توافق على أسماء كهذه للغرباء؛ وعارضت بشدة هكذا تسمية لرجال ليس لديهم أيّ عذر في البقاء هنا وغيرهم على جبهات القتال. زمّت السيّدة هاريس شفتيها وهزّت رأسها.

حين كانت تتناول العشاء في المنزل، كانت صورة زوجها مستندة على المملحة. البيضة التي أمامها زلقة باردة. الرجل الذي في الصورة ينظر إلى يسار آلة التصوير، يبتسم قليلاً، قبّعته تميل إلى الجانب. واعتقدت أنّه بدا أنيقاً، فسقط بعض البيض من شوكتها عند تلك الملاحظة. أغلقت عينيها وتذكّرت وجهه كما اختزنته في ذهنها، قسمات حادّة. سببت الصورة لها تشويشاً، رأت الصورتين تمتزجان فتتشوهان. لم تكن أيّاً منهما واضحة، ولا حتّى حين نظرت ثانية في الصورة، صورة رجل في لباس عسكري.

أرسل ابناها رسائل إليها. أتت الرسائل بثقوب مقصوصة بدقّة، مربعات صغيرة نظرت من خلالها فرأت غطاء طاولتها القماشيّ. تغيّر خطّ يد ابنيها، أصبح أكثر طولاً وأكبر حجماً، يملأ الصفحات بلا شيء، يُعْلِمُها عن أشياء سبق لها معرفتها، أشياء كان الجميع يعرفها، ملاحظات قسمت إلى نصفين بنصل سكين الرقابة.

خطّ زوجها بقي على حاله. ملاحظاته كانت محايدة، تحاكي ملاحظات ابنيها. تساءلت فيما إذا تمّ تعليمهم كلّ هذا: فنّ عدم الكتابة. رسائل زوجها لم تلمّح إلى أنّه تذكّر شكل يديها، وطول رموش عينيها، أو وزن رأسها على كتفه.

جلست القطّة على الأريكة معها حين كانت تحيك أوشحةً للصليب الأحمر. والسخّان الصغير أرسل دفقات رمزيّة من الدفء نحوهما. أجلست القطّة على ركبتها؛ قُرْبَةَ ماءٍ ساخن حيّة. عاركت القطّة صوفها، ومضغت سنانيرها. وعلى الرغم من ذلك ربتت عليها. دمدمت خرخرة القطّة في ركبتيها.

أعطاها السيّد دَفي رسالة ذات صباح، بعد أنْ دسّها مع بطاقته التموينيّة، رسالة صغيرة مع طلب اسمها وعنوانها. قال لها بنعومة: 'أنا راحل'، ويداه مليئتان بما اشترى. 'أحبّ أنْ أكتب لك.' انحنت فوق رسالته وكتبت بأصابع اعتادت على الكتابة لأبنائها في الخارج. خفض رأسه وتركها.

فتحت غرفتي ابنيها في الربيع. استقر الغبار كالمخمل فوق طاولتيهما المحاذيتين للفراش. تجوّلت القطّة، وجلست على البساط بجانبها. نزعت مُلاءات السريرين وتركتهما بلا أغطية، وطوت حافظات وسادات قديمة فوق الطاولتين الصغيرتين لتحافظ على نظافتها، وتركت شبابيك الغرفتين مفتوحة طيلة النهار. سمح البابان المفتوحان بدخول ضياء غير متوقع إلى الردهة، ولاحظت كم كان هذا أفضل. ما عادت الظلال تخيفها. كانت هناك، مثل أفكارها، هناك كلّ الوقت، لا تتحرّك، وكان الضوء منعشاً.

أرسل السيّد دَفي رسالة لها كلّ أسبوع. صفحة واحدة، وربّما صفحة ونصف الصفحة، مؤرّخة في يوم أحد. رسائله ما حوت ثقوباً. ما كان بالإمكان تفسير أختام البريد التي كانت عليها، لكنَّ خطّه كان رائعاً. أخبرها عن طفولته، زواجه، موت زوجته. شعرت وكأنّها سرقت مفكّرة أحدهم، أحد أولئك الذين لا تملك حقّ القراءة عنهم. مفكّرة السيّد دَفي. لم يوقّع أيّ اسم، فقط أوّل حرفين من اسمه "ت. د." وانتابها القلق فيما لو أنّ تأثيراً تخاطريّاً جعلها تحزر اسمه. لم تجب على الرسائل، وعلى كلّ حال، ما ترك لها عناوين ترسل عليها أجوبتها.

رسائل زوجها صارت متقطّعة. تصوّرت التوتّر هناك، اليأس. كتب ابناها جملاً بسيطة، وغالبا ما انتهيا عند ثلاثة أرباع الصفحة. السيّدة هاريس قرأت بعض رسائل السيّد هاريس أمام دكّان اللحّام حين كانت شمس الصيف تحرق البرتقالات المعروضة في واجهة دكّان السمّان. هزّت النسوة رؤوسهنّ. هزّ كلّ الشارع

رأسه. ما كتب أحدهم رسالة تختلف عن الآخر.

لكنّ السيّد دَفي كتب لها عن ابنته، 'لا زالت في إنكلترا، في مكان ما كما اعتقد، في الشمال. مختبئة،' كما تأمّل. لم يرها منذ سنين. نسيتُ، كتب يقول، ما شكْلها. 'ربّما تشبهكِ لأنّك تذكّريني بأمّها.'

قرأت مذكّراته بسهولة أكبر بعد ذلك. أنا مثل أمّها، فكّرت. هذا حسن إذاً. سحبت شعرها الطويل، وتركته يتدلى أثناء الليل، محرّرة الخصل الرمادية التي ما ظهرت إلاّ منذ زمن قصير .

وتذكّرت أنّ شعر زوجها أسود. في يوم من الأيّام حين كانت تنقّب في خزانتها، وجدت خصلة حملتها بيدها اليمنى، حملتها للأعلى باتجاه الضوء، لَوَتها، وبرمتها. وفكّرت بأنّ شعره صار رمادياً أيضاً. وضعت خصلة الشعر الأسود في علبة مجوهرات فوق صُوَرِه، ثمّ وضعت العلبة في الدرج الذي يحوي الجورب الذي جاء من سلّة الغسيل.

كتب لها السيّد دَفي: 'أخبرتك كلّ شيء عن نفسي. أنا لا أعلم عنك شيئاً. أعتقد أنّ هذا أفضل.' ليست لديه طريقة، فكّرَتْ، لمعرفة فيما إذا كانت هذه الرسائل تصلني. هذا يوفّر له الأمان. ويوفّر لي الأمان.

فجأة، في الشتاء، انفجر الشارع، اندفعت النساء من متجارهنّ كالسيل الدافق، وأمسكت إحداهنّ بالأخرى، أياد فوق أذرع، يتبسّمن، يبكين. أمسكت السيّدة هاريس بيدها وسحبتها إلى المطر. بيدها الأخرى نسيت يقطينة كانت في طريقها إلى الرفّ. كانت باردة في كفّها. ازدانت مظلّة دكّان اللحّام القماشيّة بشرائط ربط الشعر، يتساقط لونها حتّى الممرّ. عاد ابناها، رجلان في معطفين باهتين، يمشيان إلى غرفتيهما النظيفتين بصمت. أكلوا معاً في المطبخ، الأم وفلذتا كبدها، على ثلاثة كراسٍ حول القماش ذي التراابيع. كانت تلمَح أحيانا في وجهيهما الصبيّين الصغيرين

اللذيْن ربّت. تبادلا على مسك يدها، أمسكاها طويلاً وبشدّة. خاتم زواجها ينحشر بين أصابعها، يكدم عظامها. تلك الليلة أنصتت إلى تنفّسهما غير المتوازن، ولم تصدّق، يا لها من معجزة، أنّ كليهما قد رجع.

رسالة أخيرة وصلتها، إلى متى سنبقى جميعاً في أمان؟ فكّرت. وقفت عند الباب، القطّة تلتفّ وتلتفّ، هزّت رأسها لساعي البريد الذي أدار دراجته المضطربة عائداً إلى الممرّ، وراقبت غيمة فريدة تطفو عبر السماء الكاذبة الزرقاء. وضعت الرسالة ذات الحافّة المتجعّدة على رفّ المصطلى، جانب الساعة البطيئة الثواني، فوق الكومة التي تحوي كلّ رسائلهم.

بام هارفي كاتبة تعيش في ولاية فيكتوريا. الأصل الإنكليزيّ لقصّة "رسائل إليها" نشر كما يلي.

Letters to Her, by **Pam Harvey**, was published in *LinQ*, 22 (2), 1995.

جون هولتون

جون لينون ومسألة مصرفيّة معقّدة

أجلس هنا لمجرّد أنْ أراقب الدواليب تدور وتدور، والواقع أنّي شغوف برؤيتها تتدحرج...

وقف الصبيّ ذو الست عشرة سنة بداخلي يهتزّ على إيقاع قطار الساعة السابعة وخمس دقائق، المتوجه من محطة "برودميدوز" إلى محطة "سبينسر ستريت"، يردّد أسماء المحطّات التي سيمرّ بها أثناء هذه الرحلة: "جاكانا"، "غلينروي"، "أوك بارك"، "باسكوفايل"... منشداً الأسماء بتواقت مع طقطقة قطار الشحن الأحمر، دون أنْ يعلم أنّني اخترعت لتوّي "هيب هوب"، وهو ضرب من الموسيقا سيهيمن على رأس قوائم الأغاني الشعبيّة في منتصف التسعينيّات. لكنّ التاريخ الآن هو التاسع من ديسمبر عام 1980، وعلى الرغم من دهائي الموسيقيّ، وأنا ابن السادسة عشرة الذي بإمكانه تمييز النوعيّة الإيقاعيّة للقبضات النحاسيّة التي تتأرجح فوق رأسي تأرجح راقص من أصحاب المواهب الفنيّة، كما كانت تظهر في أحد برامج المسابقات التلفازيّة، لن أحظى بأيّ فضل للهيمنة النهائيّة لموسيقا "هيب هوب" على الثقافة الشعبيّة.

تجاوز الوقت الساعة الرابعة عصراً بقليل في مدينة

نيويورك يوم الثامن من ديسمبر. وقبل قليل، تقدّم حارس أمن من هاواي عمره خمس وعشرون سنة، واسمه مارك دافيد تشابمان، من الخنفس السابق جون لينون طالباً أنْ يوقع له نسخة من ألبوم "دبل فانتاسي". بعدها، وخلال ست ساعات، سيحظى مارك دافيد تشابمان على شهرة جون لينون نفسها. حتّى في "برودميدوز"، للشهرة شأن عجيب!

تصوّر نفسك في قطار في محطة، العاملون فيها مصنوعون من المعجون، ويرتدون ربطات عنق من زجاج المرايا...

ازدحام الركّاب المتنقلين عبر نفق شارع سبنسر يكنسني كنساً، وكأنّني نِثار عند الساعة السابعة واثنين وأربعين دقيقة. رائحة النفق مزيج من روائح كوابح القطارات، والقهوة الطازجة، وآلاف العطور النسائيّة. أستدير يساراً، وأصعد مرتفعاً يصل إلى محطة الريف والولايات الأخرى، عوضاً عن اللحاق بالحشد تحت شارع سبنسر. أحبّ ما يأتي إلى هذه المحطّة وما يذهب منها! وعدُّ المسافة، وكيف سأصعد يوماً على متن طائرة، وأذهب بعيداً عن عملي وعائلتي، وعن كلّ شيء آخر يذكّرني بأيّام صباي.

بلغ طولي أربعة أقدام وإحدى عشرة بوصة، حين كنت في السادسة عشرة من عمري. ولا أعلم أنّ المراهقة لا زال أمامها ثلاث سنوات أخرى، وأنّ طولي سيزداد سبع بوصات في سنة واحدة عام 1983، وجسمي الغافل سوف يتمطمط، ويلتوي، ويُرْهَقُ بآلام متزايدة. أنا كتلة من الهرمونات التي بلغ عمرها ست عشرة سنة، لكنّها محبوسة في جسم صبيّ!

عند الساعة السابعة وخمس وخمسين دقيقة، أعبر الطريق إلى زاوية التقاء شارعي "كولينز" و"سبنسر"، وأنتظر قرب درجات بناء "مصرف الولاية"، كما جاء في تعليمات الرسالة. أتفحّص انعكاس هيئتي في الأبواب الزجاجيّة، وأضبط ربطة عنق من نسيج قطنيّ مخطّط، مُجعّد، كافية لتجفيف عدد غير قليل

من صحون العشاء.

أتذكّر نصيحة أختي التي أسدتها إليّ الليلة التي سبقت. ولربّما استشهدت بكلام جون لينون، أم هل كان كلام زوجته يوكو؟ 'ربّما لن تجد فرقاً يذكر بين الزعيم "ماو" و"ريتشارد نيكسون" إذا ما جرّدتهما من ثيابهما!'

'إذا أحسست بالرعب،' قالت، 'ما عليك سوى تصوّرهم كلّهم بلا ثياب، وهذا من أفضل ما يجعل الأمور كلّها متساوية.' جين تحضّر لشهادة في الآداب من جامعة ملبورن، ولهذا نراها تنفطر حكمة!

سمعتُ في تلك اللحظة رتاجاً ينزلق للخلف، ومفتاحاً يقعقع في القفل. تفتح فتاة شقراء الباب، رتّبت شعرها بالهلام على شكْل أشواك، ترتدي زيّ المصرف الرسميّ الذي كان يغصّ بفخذيها، وتدلى عن عنقها، من حبل نيلونيّ، قلم مستشعّ له مسكة كبيرة في إحدى نهايتيه. ظهر القلم وكأنّه عضو ذكريّ، زهريّ اللون، كبير الحجم، محشور بين ثدييها.

قالت: 'مرحب، أنا ديبي، لابدّ أنّك جون؟'

لكنْ كلّ ما كنت أراه هو ديبي التي لم تكن ترتدي شيئاً سوى قضيب زهريّ معلّق بخيط، ووجهي يتورّد بما شاع إليه من عروقي، فلكأنّه انتفخ فماثل ربطة عنقي!

ما قال لي أحد إنّ أيّاماً مثل هذه ممكنة، أيّام عجيبة حقّاً، فريدة بغرابتها. أواه يا خِلّتي!

تمّ تعريفي إلى موظفي ولاية فيكتوريا، فرع المنطقة الغربيّة.

المدير جبل تكسي الثلوج قمّته بشعره الأبيض بياض الحرير، وله أنف يدلّ انتفاخه على نشاطات ليست لها علاقة بالمصارف. اسمه بوب إلين، ويُطلق عليه لقب "تايني"، وهو بطل كرة قدم سابق لفريق المصرف. وعلى الرغم من أنّ تدريبه السابق

مع فريق "ريتشموند" ذي المكانة العالية هو ما أوصله للشهرة المؤسفة، أضف إلى ذلك أحشاءه المفعمة بالجعة، لسوف أقابل في السنوات التالية كثيراً من موظّفي المصرف الذين "تدرّبوا" مع نوادي اتحاد فيكتوريا لكرة القدم، ولكنْ انتهى بهم الأمر ليصبحوا نجوماً لمباريات كرة القدم بين المصارف فقط لا غير.

ليس لأحد من الموظّفين اسماً إنسانيّاً عاديّاً. قدّموني إلى مجموعة غريبة من الأسماء المستعارة مثل: صرصار، خرافيّة، عربيد، نمر، ساخر، وحش. تختلف ربطات عنق الرجال في أطوالها وحجومها، لكنّها كلّها من النسيج القطنيّ المخطّط المتجعّد، عدا ربطة عنق الوحش الصفراء الفاقعة التي حوت صورة راقصة هزّ بطن نصف عارية. ومع هذا، فإن كمّيّة هذا القماش المخطط المجعّد كافية لصنع غطاء طاولة كبير المقاييس. أما النساء فيرتدين الملابس النظاميّة الخاصّة بالمصرف، ويبدو أنّ قياساً واحداً يناسبهنّ جميعاً، يتمّ تعديله بواسطة سحّاب أماميّ يخفّف حدّة الضغط على القماش وفق حجم الصدر.

يضعونني تحت إشراف "بوسوم"، المبتدئة السابقة، التي هي في الواقع "ديبي" ذات القضيب الزهريّ المحشور في صدرها. ستكون بوسوم مرشدتي وأنا أشقّ طريقي عبر المسائل المصرفيّة الصعبة.

جون لينون داخل استوديو التسجيل في مدينة نيويورك، يتمرّن على لحن أغنية جديدة ذات العنوان التهكمي "اِكبَر معي"، والتي ستكون من ضمن أغنيات ألبوم يدعى "حليب وعسل". وهو في الواقع ألبوم لن تقع عليه عينه، أو تسمعه أذنه.

اِكبر معي دائماً
وما سيشاء القدر لنا
سنواجهه للنهاية
لأنّ حبنا صادق

بإمكانك تلميع حذائك وارتداء بزّة، بإمكانك تسريح شعرك وإظهار جاذبيّتك، بإمكانك إخفاء وجهك خلف ابتسامة، لكنّك لن تستطيع إخفاء الشلل إنْ كان بداخلك...

أوّل عمل لي كمصرفيّ هو تسجيل طلبات الشاي الصباحيّة. يتوجّب تجهيزها على الطاولة في تمام الساعة التاسعة والنصف استعداداً لاستراحة الشاي الصباحيّة الأولى. ترافقني بوسوم عبر شارع كولينز، وتعرّفني على "ديلفين" صاحبة محل "المسرّات الحلوة". وهكذا تصبح ديلفين أولى اتصالاتي المصرفيّة الهامّة. أشتري ثلاثة أصابع من الكعك، وأربعة أقراص من النقانق، ومربيّات متنوعة مع الدونة بالسكر الناعم، وفاكهة للبهائم التي تهتمّ بصحتها.

سندويتشات البيض والخسّ التي تخصّ تايني جاهزة، ويجب أنْ تصل إلى مكتبه مباشرة، قبل كلّ شيء آخر. كلا ديلفين وبوسوم تركّزان على أهمّيّة سندويتشات البيض والخسّ. إذا وصلت السندويتشات دون مشكلة، وفي الوقت المحدّد، فإنّ تعاملي مع تايني ينتهي لذلك اليوم.

حين رجعت إلى الفرع، نادتني "خرافيّة"، واسمها الأصلي "فيليس"، جانباً وهمست بأذني شيئاً عن لفّات المراحيض. أعلمتني أنّه لزام عليّ أنْ أتأكّد أنّ جميع المراحيض تحتوي على مؤونة كافية من الورق.

أضع السندويتشات بسرعة في مكتب تايني، وأتبع خرافيّة إلى المستودع في الطابق الأسفل. شعرها طويل داكن يسترسل هبوطاً ليصل إلى حاشية ردائها الرسميّ القصير. كان شعرها ينوس في الاتجاه المعاكس لعجيزتها أثناء مسيرها، تاركاً تأثير تنويم مغناطيسيّ لدى من يتابع الحركة.

قالت: 'هنا نخزّن لفّات ورق المراحيض. حين ترى لفّة فارغة على الأرض خارج مراحيض السيّدات، فهذا يعني أنّها بحاجة لتبديل. اقرع الباب أوّلاً وتأكّد من أنّ المرحاض شاغر، ثمّ

تأكّد من أنْ تضع في كلّ مرحاض لفّة على الحامل الخاصّ، وواحدة احتياطيّة في زاوية المرحاض. هل هذا واضح؟ أمّا مراحيض الرجال، فهذا عائد لك.'

وفكّرت عندها: هل يجب أنْ أكون حاضراً لأمسح خلفك الخرافيّ يا خرافيّة؟ لكنّها كانت في نصف الطريق صاعدة على الدرج، مخلّفة وراءها آثار رائحة مسك من الأطياب التي تعطّر بها جسمها، وما تمالكتُ سوى أنْ أسأل نفسي فيما إذا كانت محادثة أولى عن ورق المراحيض كفيلة بحدّ ذاتها باستهلال صداقة دائمة.

في الطابق الأعلى صالة الشاي تنضح الضحكات وروائح القهوة، فيما يُشرّح أفراد الدفعة الأولى من مستلمي الإفطار أقراص النقانق، وقطع الكعك الدبقة.

جون لينون، في استوديوهاته في نيويورك، يشرب القهوة الرديئة التي أعدّتها زوجته يوكو أونو، يشاركه مهندس الصوت. يقول مهندس الصوت شيئاً مثل: أنا لم أصادف شخصاً لا يستطيع تحضير شيء بسهولة القهوة الفوريّة. لكنّه في الواقع يفكّر بأنّ القهوة تبدو جيّدة مقارنة مع غناء يوكو.

إنّه آخر فنجان قهوة سيشربه لينون. ولو كان يعلم أنّه فنجانه الأخير، لطلب حتماً قهوته من السوق— لاتيه أو إكسبريسو! ولربّما تناول كعكة أو شوكولاته بالبندق مع قهوته. لكنّ المسألة بالنسبة له كانت مجرّد فنجان آخر من قهوة يوكو السيّئة. ما كان ليعلم البتّة أنّ الفنجان المتشقّق، غير المغسول، الذي كان يحتسي منه قهوته سيباع يوماً بالمزاد بمبلغ يزيد عن ألفي دولار أمريكيّ!

وفقاً لما تسير الأمور عليه الآن، لا شكّ أنّهم سيصلبونني...

أبحث عن بوسوم لأعرف ما هي مشكلتي المصرفيّة الصعبة التالية، لكنّ تايني يصرخ منادياً باسمي عبر الفرع، فقط لقبي، وهذا لا يمكن أنْ يكون بشير خير بعد ساعتين فقط من بدء

عملي الجديد. أشكّ أنّ هناك مشكلة بالسندويتشات.

حين أصل إلى مكتب تايني، أرى وجهه أكثر احمراراً ممّا كان عليه في المرّة السابقة، كما أنّه كان يحمل نسخة أكثر تفلطحاً من السندويتشات التي تركتها على منضدته!

'هل هذه مألوفة لديك؟'

'نوعاً ما،' أخرجت عبارتي متلعثماً. ياله من شخصيّة تفرض نفسها، يقف مثل البرج فوق رأسي، مهدّداً متوعّداً، وشعره ببياض الحرير— قبل أوانه، لكثرة إفراطه في الشرب. ويمكنني القول إنّه يمقت ضآلتي.

'ماذا كانت هذه السندويتشات تفعل فوق منضدتي؟'

'فكّرت— '

'لو أنّك فكّرت، ما جلستُ أنا على هذه السندويتشات الملعونة. أُنظر كيف أصبحت غير صالحة للأكل. من المفروض أنْ تضعها على خزانة الإضبارات. هل هذا صعب؟'

'لا، ولكنْ— '

'لا أتطلّب الكثير. فقط أحضر السندويتشات بطريقة صحيحة، ولن نختلف أيّها الشاب. والآن أسرع عبر الشارع، وأحضر لي سندويتشات ثلاثيّة الأبعاد.'

أتذكّر نصيحة أختي وأنا على وشك التحرّك. يالها من شقيّة أختي جين! يقف تايني أمامي الآن كما ولدته أمه، يلوّح بسندويتشته، بيض وخسّ، مهروسة أمام وجهي، وقضيبه المضحك بدا بحجم فستقة صغيرة تحت بطنه المنتفخ من كثرة ما يحتسي من البيرة. أبتسمُ بتكلّف. ثمّ تتحول إلى ابتسامة عريضة لا ريب فيها. ينظر تايني إليّ وكأنّي سأصبح مقوّمات سندويشته التالية. شيء واحد فقط أشدّ سوءاً في سجله من شخص صغير مثلي، ألا وهو أنْ لا يخاف هذا الشخص من وحش بدين مثله.

يغلق تايني باب مكتبه بعنف، ويثبّت إصبعاً ثخيناً

مصبوغاً بالنيكوتين على وجهي.

’لا أعلم أين تظنّ نفسك، بابا، ولكنْ هذا هو عالم الواقع. لم تعد في الثانويّة. بإمكاني أنْ أجعل أيّامك هنا شقاء وبؤساً. إذهب فوراً وأحضر لي السندويتشة المشؤومة، ثمّ خذ حافلة الترام إلى مركز الإدارة واجلب لي علبة من استمارات الاتفاقيّات الشفويّة، ولربّما تكون أعصابي قد هدأت حين عودتك. سترشدك بوسوم أين تتوجّه.‘

يالها من لعينة هذه البوسوم. كان يجب أنْ تخبرني عن خزانة الأضابير.

لنجرّب حظنا فنطير بعيداً... إلى مكان ما

أجلسُ في ردهة الاستقبال، في الطابق الرابع عشر من مبنى الإدارة. استطعت حتّى حينه أنْ أكتشف أنّ الاتفاقيّة الشفويّة هي المعادل المصرفيّ لمطرقة عسراويّة، أو لعلبة دهان "مخطّط سلفاً" كما تسري النكتة على المتدربين الجدد أحياناً. لكنّني كنت في الواقع مستمتعاً بابتعادي عن الفرع، وبمراقبة موظّفة الاستقبال الشابّة تنحني عارية فوق جهاز تصوير المستندات.

يُطلّ، بين الحين والآخر، موظّف ما ليلقي نظرة على هذا الصبيّ المسكين الذي أرسلوه من الفرع الغربيّ ليجلب استمارات الاتفاقيّات الشفويّة. كنت أعرّي كلّ واحد منهم تماماً، هنالك في ردهة الاستقبال! شكراً لأختي جين، يبدو أنّني بدأت بتطوير مهارة سوف تخدمني جيّداً طيلة بقيّة أيّامي المصرفيّة.

بدأت أشعر، بعد ساعتين من الانتظار، أنّ عليّ الرجوع فوراً، لكنّ فتاة الاستقبال نادتني في تلك اللحظة، وقالت: ’نأسف لجعلك تنتظر. عليك إعلام السيّد إلين أنّ مخزون الاستمارات نفذ، وسنرسل كمّيّة منها فور ورودها من المطبعة.‘

’حسناً! على أيّ حال، سرّني مشاهدتكِ وأنت تقومين

بتصوير المستندات.' حين قلت لها ذلك غمرتني بنظرة تخلو من أيّ تعبير، وكأنّها تقول من خلالها إنّها مجرّد موظّفة استقبال لا أكثر. نظرةٌ ستصبح مألوفة لديّ مع تتالي السنين.

أقرر أنْ لا أعود إلى الفرع مباشرة. ليذهب تايني إلين إلى الجحيم، هو وسندويتشاته! أضف إلى ذلك أنّني مسيطر تماماً على لعق الطوابع، كما أنّ مخزون الورق في المراحيض على أتمّه، إلاّ إذا تسببت نقانق ديلفين بتفشي زنطاريّة غير متوقّعة.

أذهبُ في جولة عبر شارع إليزابيث. أغنية جون لينون "أراقب الدواليب" تنطلق من محلاّت "براشز". أشتري زجاجة كولا من المقهى المجاور، وأتلقّى كلمات من الأغنية:

...لم أعد أركب الدّوامة

لم يسعني سوى التخلّي عنها

أما جولتي الشخصيّة على الدوّامة، فستستمرّ ستّ سنوات مضنية أخرى، لتنتهي في مكتب مدير بدين مؤسف آخر، سيتكسّر كرسيّه تحت وزنه الفظيع، فيقع على الأرض منهاراً. ولسوف أضحك وأسخر منه، ألا وهو القرد المنتفخ بشكْله ذاك، وأغلق الباب بعنف، وهو لا زال يتخبّط على الأرض تخبّط حوتٍ مرميّ على الشاطئ. وبعد ستة أيّام سأكون على طائرة تتجه إلى شبه القارّة، وستبدأ حياتي بشكْلها الحقيقيّ. لكنّني لا أعلم أيّاً من هذا بعد. الآن، لدي كثير من الطوابع البريديّة التي يجب أنْ ألعق.

في الساعة الواحدة وتسع وأربعين دقيقة، أركب الترام عائداً إلى شارع سبينسر.

الساعة الآن العاشرة وتسع وأربعين دقيقة، في مدينة نيويورك، يوم الثامن من ديسمبر. جون لينون ويوكو أونو يمشيان باتجاه منزلهما عائدين من استديوهات التسجيل عندما يسمعان صوتاً يقول: 'آه، هذا أنت يا سيّد لينون؟' يشهر مارك دافيد تشابمان مسدساً من عيار 0.38 من داخل معطفه، ويطلق خمس رصاصات على ذراعي وظهر لينون.

تصل سيّارة الإسعاف بأقل من ثلاث دقائق، لكنْ تعلن وفاة جون لينون عند وصوله إلى مستشفى "سانت لوق-روزفيلت" متأثّراً بنزيف حاد.

لو كان للخنافس رسالة، لكانت 'تعلّم السباحة، وحين تتقنها اسبح!'

أقرّر أنْ أغادر الترام في شارع كينغ، وأتمشّى باقي المسافة نحو الفرع. ستّ ساعات فقط منذ بدئي للعمل، وتراني أحاول إيجاد وسائل لتفادي الذهاب للعمل.

ألاحظ وجود لافتة تعلن عن مكان مرآب للسيّارات خاصّ بمصرف ولاية فيكتوريا، موجودة على منحدر يتفرّع عن الحارة الخلفيّة للمصرف. لم يكلّف أحد نفسه فيخبرني بوجود هذا المرآب. أخمّن أنّهم يعتقدون أنّ هذه المعلومات غير ضروريّة لصبيّ في السادسة عشرة من العمر.

أنطلق بسرعة نحو المرآب لألقي نظرة، فأكتشف أنّه بإمكانك معرفة الكثير عن شخصيّة الإنسان من نوع السيّارة التي يقتني. مثلاً هناك سيّارة "فورد ليمِتِد" لوحة أرقامها "TINY 1". لا ثناء مني على هذه اللوحة. إلى جانبها سيّارة "تورانا" بلون أخضر ليمونيّ، وعلى زجاجها الخلفيّ عبارة ساخرة، هي في الواقع دعاية إحدى محطّات الإذاعة: "إنتبهوا! جراد الروك ثري إكس واي يعبر الطريق". وعلى لوحة الأجهزة يتدلّى قلم قضيبيّ آخر لونه من لون السيّارة. لا شك أنّ هذه سيّارة بوسوم. وهناك مجموعة من سيّارات "فالكون" و"كومودور"، على الزجاج الخلفيّ لكلّ منها لصاقة ذات عبارة واهية مثل: "سيّارتي التالية ستكون مرسيدس"، "لاتدْن كثيراً منّي، فنحن بالكاد نعرف بعضنا"، ولا بد من عبارة "أيقظني حين يأتي يوم الجمعة".

سيّارة تايني غير مقفولة. أفتح باب الراكب الأماميّ، آخذ قلماً من علبة السنّادة النصفيّة، وأحرر الهواء من كلّ دواليب

سيّارته. أشعر بارتياح. إذا انزعج لمجرّد سندويتش لعينة، فهذا سيسبّب له سكتة دماغيّة.

أجد نفسي أكرّر العمليّة ذاتها على دواليب بوسوم أيضاً (كان يجب أن تنبّهني إلى أمر خزانة الأضابير).

سيّارتان فقط ستكونان مثاراً للشك، ولهذا، ليكن ما يكون، سأنفّس دواليب كلّ السيّارات في هذا المرآب! كلّها عدا تلك العائدة للدراجة النارية ماركة "دوكاتي"، التي تحمل اسم "وحش"، منقوشاً على حاوية الوقود. لربّما فقدت رشدي، لكنّي لن أورّط نفسي مع أمين صندوق مصرفيّ يزيد وزنه عن مئة وعشرين كيلوغراماً، اسمه وحش!

"ستروبيري فيلدز" إلى الأبد

أثناء عودتي إلى المنزل، في القطار، يتحدّث الناس عن حادثة إطلاق النار على جون لينون. غريب أنْ نرى الناس يتحدّثون بهذا الانفتاح وهم في حافلة نقل عامّ. بعضهم متأثّر بوضوح، والبعض الآخر يطلق نظريّات مختلفة حول مارك تشابمان ودوافعه.

وألاحظ أنّنا نحن الغرباء عن خط قطار "برودميدوز"، نخوض غمار تجربة ستبقى معنا بقيّة حيواتنا. أين كنت حين سمعت عن إطلاق النار على جون لينون؟ كما أنّ موظّفي الفرع الغربيّ لمصرف ادخار ولاية فيكتوريا، قد يتذكّرون هذا اليوم على أنّه اليوم الذي قام به أحد أولاد الحرام بتنفيس جميع دواليب سيّاراتهم.

عندها ما كنت أعلم أنّني بعد عشرين عاماً سأزور نصب "ستروبيري فيلدز" التذكاريّ في حديقة نيويورك المركزيّة لأقدّم احترامي، وأتذكّر بوضوح أحداث يوم التاسع من ديسمبر عام 1980، بما في ذلك الكولا التي شربتها خارج محلاّت براشز في شارع إليزابيث، وأنّني سأعود إلى غرفتي في الفندق لأدوّن كلّ شيء

بنشاط على حاسوب من طراز "آبيل باوربووك". يا للعنة، لم يخترعوا بعد ما يسمى بحاسوب تضعه في حضنك!

حبَستْ جين نفسها في "بانغالو"[6] الحديقة الخلفيّة للمنزل، وكان بإمكاني أنْ أسمع نشيجها الهادئ بين أغاني جون لينون. كانت غرفتها مقاماً مكرّساً للخنافس منذ ما شاء لذاكرتي أنْ تسعفني!

'هل جين بخير؟' أسأل والدتي أمام مغسلة المطبخ.

'نعم، مجرّد أنّ مغنّ شعبي، أو شيء من هذا القبيل، مات. أنت تعلم شأن الفتيات الصغيرات هذه الأيّام.'

'نعم، ربّما.'

وأعلم أيضاً مصدر تفكير والدتي. جون لينون ليس واحداً من محظيّيها. لديها مارتن لوثر كينغ، وهارولد هولت،[7] وربّما غريس كيلي.

أجلس مع والدتي أمام التلفاز نأكل شرائح من لحم الخروف، مخبوزة في صلصة بصل فرنسيّة (بكلّ تفاصيلها الواضحة)، وحتّى بريان نايلور، المذيع الرزين، يبدو متأثراً بوضوح وهو يقرأ تفاصيل موت لينون. ولعلّك لا تستطيع الحكم على معجب بالخنافس بمجرّد النظر إلى بذلته وتسريحة شعره.

والدتي تقطع إحدى الشرائح بنظرة عديمة الاهتمام، وكأنّها تتساءل متى يبدأ برنامج "مسابقات القرن". ثمّ تسألني: 'كيف كان أوّل يوم لك في المصرف إذاً؟'

'أسوأ ما يمكن،' أجيبها. 'أعتقد صادقاً أنّ العمل المصرفيّ يعني موتي.'

'آه، حسناً، الأمور أشدّ سوءاً في البحر يا عزيزي. إنّه يومك الأوّل. خذ شريحة لحم أخرى.'

---

[6] نوع من البيوت البسيطة من طابق واحد، يوجد عادة في الريف، أو كشاليه على الشاطئ، ويتواجد أحياناً كمنزل إضافيّ في الحدائق الخلفيّة للبيوت الأستراليّة.

[7] رئيس وزراء أستراليّ سابق.

عندها لاحظتُ مقولة جون لينون التي طبعتها أختي جين فوق زر المحطات على التلفاز، والتي، بعد سنوات، ستكتب على ورقة تُعلّق فوق طاولة كتابتي:

'لو أنّ كلّ واحد طالب بالسلام عوضاً عن جهاز تلفاز، لحلّ السلام.'

وتراني الآن مستغرقاً تماماً في المشكلة المصرفيّة التالية— كيف، بحقّ جهنم، أسحب نفسي من السرير في الصباح لأواجه يوماً آخر؟

جون هولتون ربح جوائز عدّة على قصصه القصيرة. ربحت قصّة "جون لينون ومسألة مصرفيّة معقّدة" جائزة عالميّة، وسبق نشر أصلها الإنكليزيّ كما يلي.

John Lennon and a Difficult Banking Problem, by **John Holton**, published in *Normal Service Will Resume: Fast Fiction for Any Trip*, p.255-265, 2003.

أسترا وارن

الدائرة المغلقة

كلّ مساء أراقب الشمس تنزلق ببطء نحو حافّة العالم. أشكال ملتوية لأشجار الأوكاليبتوس العتيقة تنبثق من السهول المنتفخة للمراعي الجافّة، وتقف سوداء كالنقوش قبالة شفقِ شمسِ آخر الصيف. آخر أشعّة الضوء المتطاولة تضربُ أكوام الحجارة المرصوفة في أشكال غريبة منتظمة تكريماً لإله أجنبيّ.

من الوديان جانب النهر، من مسافات سديمها عند المساء، من خفقات الأوراق التي تهمس بحلول برودة الليل، تنجرف أشباح السكّان الأوائل، بالكاد يمكن تمييزها عن الغسق. أرتجف، حين تمرّ تلك اللحظة وكأنّها ستار يُسدل فوق نافذة تطلّ على عالم آخر.

أنا تلميذة في السنة الجامعيّة الثالثة، أتخصّص في التاريخ الحديث. كانت تلك عطلتي الثانية التي أعمل خلالها لدى مفوضيّة التراث، كمرشدة أبوريجينيّة. حين عرضوا عليّ "نيو نورشيا" للموسم السياحيّ، اغتنمت الفرصة. كانت جزءاً من مناطق دراستي، في فترة عدم الاستقرار الدينيّ الأوروبيّ حين اضطر الكاهن الرائد "سلفادو" أنْ يغادر أسبانيا إلى إيطاليا، ثمّ جاء بكلّ حماس المبشرين من روما إلى هذا المكان النائي.

سبق لمفهومه الطموح عن جزيرة من المدنيّة الأوروبيّة في قلب الأحراج الأستراليّة أنْ أدّى إلى هذه البلدة المقدّسة

الغريبة؛ أشكال معماريّة أسبانيّة غريبة مغروسة هنا من عالم آخر، تهيمن على وجه أرضٍ بدائيّة دون أنْ تقهرها.

كانت صرحاً شاهداً على حماقة الغزاة في محاولتهم تغيير معتقدات بني قومي القديمة. لا زالت نار أسلافي تجري قويّة في عروقي، على الرغم من أنّ دمي الآن مغشوش لدرجة أنّ من يراني يعتقد أنّني إيطاليّة أو يونانيّة. مثلنا مثل أرضنا، ثبتنا ولم ننهزم.

وهكذا راقبت مرور هذا الصيف الطويل، والسوّاح يحضرون ويغادرون، وأجراس الدير تعلن الساعات في أرض سرمديّة. سبق أنْ ملأتُ الأبنية بأشباح ماتت منذ وقت طويل. وتجولتُ في المقبرة أقرأ ابتهالات أسماء أجنبيّة من أماكن بعيدة، كلٌّ مات هنا بأسى، دون جدوى، بعيداً عن موطنه.

دوري اليوم كان مع جولة الساعة الحادية عشرة قبل الظهر. حين قدّمت نفسي للمجموعة التي كانت تنتظر خارج المكتب السياحيّ، استطاعت عيني الخبيرة أنْ تستعرضهم؛ مجموعتان عائليتان مع أولاد بدأوا المشاكسة في هذا الجو الحار، زوجان متقدّمان في السن سيحتاجان للرعاية في الأماكن الوعرة، يتبعهما حمَلَةُ عتادهما بسيقانهم البرونزيّة وسراويلهم الجينيّة المقطّعة، وزوجان آخران أخمّن أن يكونا تلميذين.

لم تتح لي فرصة التحدث إلى مجموعتي إلاّ بعد الوقفة الرابعة على الدرب المخصّصة للمسير.

أعلنتُ لهم: 'هذه هي مطحنة الدقيق القديمة. تمّ بناؤها في الخمسينيّات من القرن التاسع عشر...' ثمّ ذهبتُ للتحدّث.

ارتفع البناء القديم صامداً في بحر من الغبار والعشب الذي جفّفته الشمس. النوافذ في الطبقة الأرضيّة مغلقة بألواح، وتلك التي في الطبقة العلويّة كانت مشدوهة ترمق السهول المتموّجة التي كانت يوماً تزوّد البناء بأسباب وجوده.

انتظرت حين كانت المجموعة تسترق النظر من خلال

شقوق الباب المكسوّ بألواح الخشب. أنا وحدي التي سمعت جلجلة وقضم الأحصنة المتململة في المسلاّت الكبيرة، وشممتُ الحبوب المغبرّة.

أمّا الرائحة المنتشرة الآن فهي رائحة البول، حيث أراحت الكلاب الغازِيَة والبشر المستهترون أنفسهم قبالة الحجر العاري الذي لا زال خشناً من يد النحّات.

لكنّ الفتاة كانت تنال مني. تمسّكت بكلّ كلمة، وبقيت قريبة منّي وكأنّها كانت تبلع وتهضم كلّ كِسرة من المعلومات. وهكذا انتهيت إلى جانبها حين مشينا تحت الأشجار الأجنبيّة المستوردة بطيئة الرسوخ، مثل الليلك، والصنوبر الإسكتلنديّ، والجاكاراندا.

'مرحب. من أين أنت؟'

أطلقت عيناها ابتسامة للأعلى نحو الرجل الطويل جانب كتفها.

'سيدني.'

'ولكنْ بلهجة مثل تلك اللهجة؟'

بقبقت ضحكتها، وتمايل قُرطاها مع الصوت.

'أنا من إيطاليا. اسمي ماريكا. ستيفان يوغسلافيّ. جئنا إلى أستراليا لنجد عملاً، ولكنْ لا يتوفر أيّ عمل لبيولوجيّة مثلي في سيدني. كان ستيفان يعمل – مهنته برمجة الحاسوب، لكنّنا أردنا رؤية المزيد من أستراليا قبل أنْ نستقرّ...'

استمرّت في الكلام إلى أنْ وصلنا إلى الكاتدرائيّة. حين دخلنا، تبدّلت الأرض الجافّة، ورائحة العشب اليابس الناتجة عن صيف طويل، بعبَق البهارات العفنيّ لأجيال من المتّقين. كان كلّ جيل على طريقته الخاصّة تَقْدمةً من البخور للإله الذي آمن به أيّاً كان. ركعت ماريكا للصلاة، ليس بطريقة معظم السيّاح الواعية للذات، وإنما في مُصلّى جانبيّ، بهدوء، كعادة كانت جزءاً من حياتها.

بعد نهاية الجولة، شعرت أنّ خيطاً خفيّاً كان يشدّني إليها، وحين بدأت المجموعة تتفرّق، لامستُ ذراعها بصورة عفوية. 'اسمعي، أتناول غدائي عادة في الحانة. هل تودّان مشاركتي؟ سأطلب لكما بيرة من صنع غرب أستراليا.' ابتسما بالقبول، وبعد أنْ شطبت اسمي في المكتب، مشيت إلى الحانة، لأجدهما يجلسان على طاولة تحت رواق فخم ذي أعمدة وأرض رخاميّة.

أثناء الطعام، تحدّثت ماريكا باستمرار عن البيت، والأصدقاء، وتجربتهما في سفرهما بالسيّارة عبر هذه القارّة. كان ستيفان دمثاً، قليل الكلام، راضياً أنْ تقوم ماريكا بهذه المهمة. كانت تحاول بشدّة أنْ لا تشعر أنّها غريبة في أرض غريبة، لكنّ نشاطها وحيويّتها لم يسعفاها— تماماً مثل الأبنية المزخرفة التي كانت تحيط بنا، وتعلن غربتها عن سكون المناظر الطبيعيّة الأستراليّة، السكون المتنفّس بالحياة.

أخيراً قالت، 'أفترض أنّكِ تتساءلين لمَ أتينا إلى هذا المكان؟'

'الحقيقة...' تردّدت في إجابتي، ولكنْ كان هذا في الواقع السؤال الملّح في ذهني. ثمّ فسّرت لها، 'معظم السيّاح يأتون هنا من طريق الصدفة، أو يأتون من ضمن الولاية. فهذا المكان ليس محجّاً للسياحة العالميّة.'

'يسعدني أنْ أقول لك إنّ جدّتي كانت أسبانيّة وولدت في "غاليشيا". وكما تعلمين، هو المكان الذي أتى منه "روزيندو سالفادو"، أليس كذلك؟ أتت من أسبانيا إلى إيطاليا لتعتني بي بعد أن صُرع والديّ في حادث سيّارة. أسمعها تتحدّث عنه وكأنّه أخاها. كان من "توي"، القرية المجاورة، وخلال طفولتي كنت على علم بالكاهن العظيم الذي أحضر المسيح إلى أستراليا السوداء الوثنيّة.'

ذُهلت لكلامها، ولكنّ تصميمها على الكلام جعلها تغفل

عنّي.

'ولذلك حين كنّا في السيّارة، قلت لستيفان، اتبع هذه الطريق وسأتمكّن من رؤية مآثر روزيندو سالفادو، إكراماً لجدّتي. أرى في المقبرة أسماءً مألوفة، ولذلك أحسّ أنّني في بلدي.'

تابعنا حديثنا لفترة، ولكنّهما أرادا الرجوع إلى "بيرث"[8] قبل حلول الظلام. أعطيتهما عنواني، ووعدا أنْ يداوما الاتصال. دفعني فضولي لمرافقتهما إلى موقف السيّارات ليستقلاّ سيارتهما الـ"فولكس فاكن" البالية، وافترقنا.

ذلك المساء، وأنا أراقب الغسق يستردّ البلدة ببطء، رأيت رجل شرطتنا يتجه بسيّارته خارج البلدة، وينطلق مسرعاً على الطريق باتجاه "بيرث"، ليلحقه مباشرة عويل سيّارة الإسعاف. لم يكن هذا أمراً غير معتاد، فحدود السرعة القصوى، على طرقات بُنيت أصلاً للخيول والعربات، كانت وصفة للكوارث.

في وقت لاحق في بار صالون الحانة، حيث يتجمّع معظم السكّان المحلّيّين يتسامرون بأحاديثهم الليليّة، أتى بيتر وجلس بتعب على أحد كراسيّ البار. سحب النادل كأساً كبيراً من البيرة ووضعه أمامه والبيرة تُزْبد.

'ليلة قاسية يابيتر؟'

أخذ الشرطيّ جرعة طويلة فيها من الامتنان الشيء الكثير.

'اصطدام مقدّمتين آخر، على تلك الهضبة الطويلة النازلة. يبدو أنّهم سيّاح. بائس عديم الصبر حاول تجاوز شاحنة عند الخطّ الأبيض المزدوج وهو يتجه نزولاً. الـ"فولكس فاكن" صارت حطاماً.

توقّف العالم عن دورته.

'فولكس فاكن،' قلت. 'ما لونها؟'

'أبيض. لكنّك لن تلاحظي ذلك مع كلّ الدم الذي يغطّيها.

---

[8]عاصمة ولاية غرب أستراليا.

واه! هل أنت بخير، يا بنيّة؟ أمسكوا بها، يا ناس.'

'لا، أنا بخير. لكنّي أعتقد أنّهما من كانا في مجموعتي السياحيّة هذا الصباح.'

'إذن، أريد منك إفادة يا كايلي.'

'نعم، ولكنّي لم أتحدث إليهما طويلاً، ولا أعرف الكثير.'

ولكنّي تحدثت. كنت أعلم كلّ شيء عن ماريكا وكأنّها ظلّي، ذاتي الأخرى.

لاحقاً، ذلك الأسبوع، وحين وقفت في المقبرة، عندما كانت النعوش تُنزّل إلى الأرض المقوّاة بالحديد، عرفت أنّ الماضي يحيا. عادت ماريكا إلى موطنها.

أُغلِقتْ الدائرة.

أسترا وارن كاتبة من غرب أستراليا. نشر الأصل الإنكليزيّ لقصّة "الدائرة المغلقة" أوّلاً في مجلّة أدبيّة محليّة، ثمّ اختير للنشر في مجموعة تضمّ أعمال كاتبات غرب أستراليا كما يلي.

Closed Circle, by **Astra Warren**, was published in *Footprints: an Anthology of the Twentieth Century*, 2000.

المترجم

د. رغيد النحّاس مستشار بيئيّ وموّظف حكوميّ متقاعد.

نشر وترأّس تحرير مجلّة "كلمات" المحكّمة في أستراليا بين 2000 و2006، بحصيلة 14 عدداً بالإنكليزيّة و10 أعداد بالعربيّة.

من كتب النحّاس في الترجمة

• **أبيات عبر تسمان**. ترجمة لشعر معاصر من أستراليا ونيوزيلندا. منشورات رغيد النحّاس 2015، سيدني، أستراليا.

• **اسمك ذاكرتي** (بالإنكليزيّة). ترجمة لديوان "مدن غائمة" للشاعر خالد الحلّي. منشورات بابيروس 2012، ملبورن، أستراليا.

• **أرابسك الحبّ** (بالإنكليزيّة). ترجمة لمجموعة قصائد مختارة من عدّة دواوين للشاعر القنصل ماهر خير. منشورات بابيروس 2010، ملبورن، أستراليا.

• **يوم الجمعة، يوم الأحد** (بالإنكليزيّة). ترجمة لكتاب السفير الأستاذ الدكتور خالد زيادة حول مدينة طرابلس اللبنانيّة. منشورات كلمات 2005، سيدني.

• **حيث الذئب** (بالإنكليزيّة مع نويل عبد الأحد). ترجمة لديوان للشاعر شوقي مسلماني. منشورات كلمات 2004، سيدني.

• **أوراق العزلة** (بالإنكليزيّة مع نويل عبد الأحد). ترجمة لديوان للشاعر شوقي مسلماني. منشورات كلمات 2004، سيدني.

• **همسات الجنوب البعيد**. أنطولوجيا لمختارات من الشعر الأستراليّ مع ترجمات النحّاس لها إلى العربيّة، تضم أعمالاً لتسعة وسبعين شاعراً. منشورات الأبجديّة 1999، دمشق. (بمنحة من المجلس الأستراليّ للآداب والفنون.)

لمزيد من التفاصيل حول منشورات النحّاس يمكن زيارة موقع جمعيّة الكتّاب الأستراليّين:

https://www.asauthors.org/memberportfolios/raghid-nahhas

وموقع أرشيف الآداب الأستراليّة الذي يعدّد له أكثر من 300 عمل:

http://www.austlit.edu.au

رغيد النحّاس، بعدسة دريد مدينة Raghid Nahhas, by Dureid Madina

These Tales

This is a collection of my Arabic translations of thirty-four contemporary Australian short stories, told by writers of varied backgrounds, but they all call Australia home.

I originally published most of them in different issues of *Kalimat*, a journal I edited between 2000 & 2006. (*Kalimat* is the Arabic for "words".) Most of these tales embody elements of the cultural heritage of their writers or their forbears. As such, they extend beyond Australian boundaries to include other geographical, historical and intellectual spheres.

Some of these tales take us to a village in Lebanon, a street in New York or a field in Afghanistan. Others tell us about what happens in some Australian suburbs, beaches, mangroves or an industrial city such as Newcastle.

They speak of the human condition in its sexuality, mental capacity, health, social status, domestic upheavals, business ventures, civil strives, fantasies and much more.

I am grateful to all the writers who originally were the air that *Kalimat* was breathing. With their contributions we were able to sustain publication for a while. Now, readers of Arabic have an opportunity to enjoy and explore these contributions, particularly that they are included in one book. This book is intended to delight the general reader of Arabic and the scholar.

Raghid Nahhas

List of Authors

Numbers refer to pages
where translated work starts

Hyacinth Ailwood 27, 30
Susan Beinart 40
Carmel Bird 67
Greg Bogaerts 51, 61
Marisa Cano 187
Fional M. Carroll 179
Dave Cauldwell 196
Justin D'Ath 85
Jane Downing 103
Ryn England 21
Kennedy Estephan 9, 13
Mary Goulding 167
John Griffin 155
Pam Harvey 271
John Holton 278
Pam Jeffery 77, 81
Carolyn van Langenberg 172
Andrew McKenna 251
Chris Mansell 246
Strephyn Mappin 215
Eileen Marshall 221
Sophie Masson 230, 233
Jean L. Menere 262
Bruce Pascoe 33
Rachael Quigley 205
Eva Sallis (Eva Hornung) 117
Thomas Shapcott 125
Graham Sheil 139
Astra Warren 291

raghid nahhas

thirty-four tales

Arabic translations of
contemporary australian short stories by

Hyacinth Ailwood, Susan Beinart, Carmel Bird, Greg Bogaerts, Marisa Cano, Fiona M. Carroll, Dave Cauldwell, Justin D'Ath, Jane Downing, Ryn England, Kennedy Estephan, Mary Goulding, John Griffin, Pam Harvey, John Holton, Pam Jeffery, Carolyn van Langenberg, Andrew McKenna, Chris Mansell, Strephyn Mappin, Eileen Marshall, Sophie Masson, Jean L. Menere, Bruce Pascoe, Rachael Quigley, Eva Sallis (Eva Hornung), Thomas Shapcott, Graham Sheil & Astra Warren